

سلسلة تهذيب كتب الإمام ابن قيم الجوزية (٩)



تهذيب كتاب الروح

للإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

إعداد

د. سلطان بن ناصر الناصر

إشراف

عطاءات العلم



دار عطاءات العلم


تهذيب
كتاب الروح

ح) مؤسسة عطاءات العلم للنشر، ١٤٤٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الناصر، سلطان بن ناصر
تهذيب الروح./ سلطان بن ناصر الناصر - ط١ . .- الرياض، ١٤٤٤هـ
٢٤٤ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٠-٣٤-٨٣١٤-٦٠٣-٩٧٨
١- الأحوال الشخصية للمسلمين ٢- الأسرة في الإسلام ٣- الآباء والأبناء
أ- العنوان
ديوي ٢٥٤ ١٤٤٤/٤٠١٩



info@ataat.com.sa
٠٠٩٦٦ ٥٥٩٢٢٢٥٤٣
@ataat11

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٣م

توزيع

دار الحضارة للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الرياض
الرقم الموحد: 920000908
الفاكس: 011-2702719

0551523173
daralhadarah@hotmail.com
@daralhadarah
متجر دار الحضارة
daralhadarah.net



سلسلة تهذيب كتب الإمام ابن قيم الجوزيّة (٩)

تهذيب
كتاب الروح

للإمام العلاّمة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزيّة
(٦٩١-٧٥١هـ)

إعداد
د. سلطان بن ناصر النّاصر

إشراف
عطاءات العلم

دار عطاءات العلم



تقديم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإن «**عطاءات العلم**» بيت خبرة في تطوير البرامج العلمية الشرعية، ورعايتها، وتمكين العاملين فيها، وهي تسعىٰ إلىٰ الارتقاء بالجهات والبرامج العلمية الشرعية بطريقة منهجية، وصولًا لتحقيق مقاصد الشريعة، وترسيخ القيم الإسلامية.

لقد نهضت «**عطاءات العلم**» منذ تأسيسها بعدة مشاريع نوعية وفق منهجية احترافية، صممتها خصيصًا لصناعة المشاريع العلمية الشرعية، بين دراسات علمية محكّمة، ونصوص تراثية محققة، وبرامج تطويرية متخصصة، وموسوعات علمية إلكترونية متميزة، وسلسلة إصدارات كوكبة من الأئمة الأعلام، وغيرها من المشاريع والبرامج ذات الأثر العظيم والنفع العميم.

ولما كانت خدمة العلم الشرعي ونشره وتوريثه للأجيال المتعاقبة مما يجدر بأهل الإسلام الحرص عليه أولته «**عطاءات العلم**» عنايتها واهتمامها؛ فاحتضنت لأجله أحد مشروعاتها النوعية، وهو مشروع تحقيق آثار العلماء ونشرها، ومنها آثار الإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، وذلك بطباعتها وتحقيقها تحقيقًا علميًّا لائقًا؛ بتوفير أفضل نسخها الخطية في العالم، ومقابلة نصوصها، وتحريرها، والتعليق عليها بما يخدمها، ويوضّح مقاصدها، وكتابة مقدمات تعرّف بكل كتاب وتكشف مزاياه، وصُنْع فهارس كاشفة مفصلة لعلومه وخباياه، في عمل علمي مبارك ابتدأ

منتصف عام ١٤٢١هـ بإشراف الشيخ العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد، وتمويل مؤسسة الشيخ سليمان الراجحي الخيرية، واستمر نحو عشرين عامًا حتىٰ سنة ١٤٤١هـ، ونفع الله به من شاء من عباده في مختلف بلدان العالم.

وحين انتهىٰ العمل من نشر هذه الكتب العلمية النافعة باتت الحاجة ماسة إلىٰ تقريب عيون هذه الكتب، وتهذيبها، واختصارها بمنهج علمي محكم، يسهم في توسيع دائرة الاستفادة من علومها وفوائدها لعموم القراء، الذين قد يحول بينهم وبين الانتفاع بها استطراد المؤلف وإسهابه في تقرير المسائل، والرد علىٰ المخالفين، ونحو ذلك، كما يستفيد منها المتخصصون في العلوم الشرعية الراغبون في خلاصات جامعة لأفكار الكتب لغرض المراجعة والاستذكار.

ويطيب اليوم لـ«**عطاءات العلم**» أن تقدم لأهل العلم وطلابه والحريصين علىٰ تراثه هذا المشروع العلمي الجديد في تهذيب نخبة من مؤلفات الإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، وهو مشروعٌ علمي مبارك نهض به فكرةً وإعدادًا فضيلة الشيخ الدكتور سلطان بن ناصر الناصر (عضو المجلس الإشرافي لـ «**عطاءات العلم**»)، وتولت «**عطاءات العلم**» الإشراف عليه تتميمًا ومراجعةً وتوثيقًا وصفًّا وإخراجًا.

نسأل الله ﷻ أن ينفع بهذه الإصدارات العلمية المهذبة كما نفع بأصولها، وأن يبارك فيها وينفع بها الأمة، ويجزل الأجر، ويعظم المثوبة للشيخ سليمان بن عبد العزيز الراجحي ومؤسسته الخيرية علىٰ رعايتها المباركة التي أثمرت هذا المشروع وأصله، ولفضيلة الشيخ الدكتور سلطان بن ناصر الناصر وجميع المشاركين فيه، ويجعله من العلم النافع الذي يستمر ثوابه ولا ينقطع. والحمد لله أوَّلًا وآخرًا، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

عَطَاءَاتُ العِلْم

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين، ومن تبع هداهم واقتفىٰ سننهم إلىٰ يوم الدين.

أما بعد: فإن الإمام الحافظ أبا عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر، المعروف بـ«ابن قيم الجوزية»، المولود سنة ٦٩١، والمتوفىٰ سنة ٧٥١ هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من أعلىٰ أهل العلم مرتبة في جودة التصنيف وكثرة التأليف، وقد أسبغ الله علىٰ كتبه من النضارة وجمال العبارة ما بهر عقول العلماء؛ لما فيها من استقصاء أصول المسائل وآثارها، وإبراز مقاصد الشريعة وأسرارها، فصار لها من القبول والانتشار والأثر ما هو لائق بتلك العلوم والفوائد والدرر.

ولما كانت مؤلفات هذا الإمام الجليل زاخرة بالتحقيقات العلمية والتجليات الإيمانية التي تعظم حاجة الناس إلىٰ مداومة النظر فيها علىٰ اختلاف مستوياتهم المعرفية، فضلًا عن طلاب العلوم الشرعية، والتي قد يحول دون قراءتها وورودُها بين أمواج بحر تقريراته وردوده ذات النفس الطويل؛ ظهرت الحاجة لتقريب مصنفاته بتقديم تهذيبات علمية مركزة لمباحثها وأفكارها، دون ما فيها من الاستطرادات التي لا تكون محل اهتمام لدىٰ غير المختصين بموضوعاتها، فجاء هذا العمل محققًا لتلك الغاية الشريفة، خدمةً لعموم المسلمين وخاصتهم، سواء منهم من لم يتسنَّ له قراءة الأصل، ومن أراد تكرار النظر في زبدة ذلك الأصل،

وجاريًا علىٰ طريقة أهل العلم في اختصار التصانيف وتهذيبها، وذلك من أغراض التأليف ومقاصده المشهورة، كما عبَّر عنه ابن خلدون في مقدمته بقوله: «أن يكون الشيء من التآليف التي هي أمهات للفنون مطولًا مسهبًا؛ فيقصد بالتأليف تلخيص ذلك بالاختصار والإيجاز وحذف المتكرر إن وقع».

وقد جرى العمل في التهذيب وفق منهج يتلخص فيما يأتي:

١- إثبات ألفاظ المؤلف بدون تصرف فيها، ولا زيادة عليها.

٢- المحافظة علىٰ ترتيب ورود النصوص في الأصل بدون تقديم أو تأخير.

٣- الاقتصار علىٰ صلب الفكرة المقصودة، وحذف الاستطرادات، مع الحرص علىٰ إظهار السياق علىٰ نحوٍ متسق.

٤- الاختصار في عرض الأقوال والأدلة والنقاشات والتعريفات ونحوها.

٥- إثبات جميع عناوين الأبواب والفصول، ولو كان المحذوف فيها كثيرًا.

٦- إبراز بعض الفوائد والعبارات الصالحة للانتقاء والاقتباس، وذلك بتحبيرها باللون الأحمر.

٧- وضع قائمة في آخر التهذيب بالفوائد والعبارات المنتقاة التي وردت في الأصل، ولم تثبت في التهذيب؛ نظرًا لعدم ملاءمتها للسياق؛ لورودها في نصٍّ لم يطابق شرط التهذيب.

٨- الاعتماد علىٰ النص المحقق في الإصدارات العلمية المتقنة التي تولت نشرها والإشراف عليها «عطاءات العلم».

وقد تكرمت «عطاءات العلم» جزاها الله خيرًا بخدمة التهذيب بما يأتي:

١- تخريج الأحاديث تخريجًا مختصرًا من حواشي الأصل.

٢- شرح الألفاظ الغريبة شرحًا مختصرًا مستفادًا من حواشي الأصل.

٣- وضع عناوين جانبية للموضوعات في بداية الفصول.

٤- وضع أرقام صفحات الأصل علىٰ هامش الصفحات الأيمن والأيسر.

٥- وضع فهرس للفوائد والعبارات الصالحة للاقتباس في نص التهذيب أو النصوص المحذوفة من الأصول.

٦- وضع فهرس مفصل للكتاب.

٧- مراجعة التهذيب وتحكيمه علميًّا.

٨- التجهيز للطباعة.

وأجزل الشكر وأوفاه للمؤسسة العلمية الرائدة «**عطاءات العلم**» لجهودها في خدمة هذا المشروع، ولكل من أسهم في إنجازه بسهم، تحقيقًا لأصوله، ومراجعة لنصوصه، وتنسيقًا لها وإخراجًا، تقبل الله من الجميع أعمالهم، وبارك فيها، وجعلها خالصة لوجهه، إنه سميع مجيب.

وكتب

د. سُلطان بن ناصِر النَّاصِر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ص: ٣

مقدمة

الحمد لله العلي العظيم، الحليم الحكيم، الغفور الرحيم.

الحمد لله ربِّ العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، لقد خلق الإنسان من سُلالة من طين، ثم جعله نطفة في قرارٍ مكين، ثم خلق النطفةَ عَلَقةً سوداءَ للناظرين، ثم خلق العلقةَ مُضغةً، وهي قطعة لحم بقدر أكلة الماضغين، ثم خلق المضغةَ عظامًا مختلفةَ المقادير والأشكال أساسًا يقوم عليه هذا البناءُ المتين، ثم كسا العظامَ لحمًا هو لها كالثوب لِلّابسين، ثم أنشأ خلقًا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

فسبحان مَن شملت قدرتُه كلَّ مقدور، وجرت مشيئتُه في خلقه بتصاريف الأمور، وتفرَّد بمُلك السماوات والأرض، يخلق ما يشاء ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إلهًا جلَّ عن المثيل والنظير، وتعالىٰ عن الشريك والظهير، وتقدَّس عن شبه خلقه، فـ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ: ١١].

وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، وخيرتُه من خلقه، وأمينُه علىٰ وحيه، وحجَّتُه علىٰ عباده؛ أرسله رحمةً للعالمين، وقدوةً للعاملين، ومحجَّةً للسالكين، وحجَّةً علىٰ العباد أجمعين. فصلّىٰ اللهُ وملائكتُه ورسلُه عليه. وعليه السلام ورحمة الله وبركاته.

أما بعد، فهذا الكتاب مشتمل علىٰ إحدىٰ وعشرين مسألةً في الروح وما يتعلَّق بها[1].

---

(١) هذه المقدمة مأخوذة من مقدمة كتاب تحفة المودود في أحكام المولود للمصنف، اقتبسها =

أمّا المسألة الأولى وهي هل تَعرفُ الأمواتُ بزيارةِ الأحياء وسلامِهم عليهم أم لا؟

ص: ٥

فقال ابنُ عبد البرِّ: ثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**ما من مسلمٍ يمرُّ بقبر أخيه، كان يعرفه في الدنيا، فيُسلِّمُ عليه إلا ردَّ اللهُ عليه روحَه حتىٰ يردَّ عليه السلام**»[١].

فهذا نصٌّ في أنه يعرفه بعينه، ويرُدُّ عليه السلام.

وفي الصحيحين[٢] عنه ﷺ من وجوهٍ متعددةٍ: أنه أمر بقتلىٰ بدر، فأُلقُوا في قَلِيب. ثم جاء حتىٰ وقف عليهم، وناداهم بأسمائهم: «**يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، هل وجدتم ما وعدكم ربُّكم حقًّا؟ فإنّي وجدتُ ما وعدني ربِّي حقًّا**»، فقال له عمرُ: يا رسول الله، ما تخاطب من أقوامٍ قد جَيَّفوا؟ فقال: «**والذي بعثني بالحقِّ ما أنتم بأسمَعَ لما أقول منهم، ولكنَّهم لا يستطيعون جوابًا**».

وثبت عنه ﷺ: أنّ الميِّت يسمع قَرْعَ نعال المشيِّعين له، إذا انصرفوا عنه[٣].

وقد شرع النبيُّ ﷺ لأمَّته، إذا سلَّموا علىٰ أهل القبور، أن يسلموا عليهم سلامَ

= وأضافها إلىٰ كتاب الروح بعض ناسخيه، إذ وجده خِلْوًا من المقدمة، وآثرنا إثبات هذه لورودها في أقدم النسخ التي بين أيدينا. وانظر المقدمات الأخرىٰ في مقدمة التحقيق.

(١) وهو حديث ابن عباس، أخرجه تمام في فوائده (١٣٩)، والخطيب في تاريخ بغداد (٦/ ١٣٧). وهو ضعيف، وقد أورده الألباني في السلسلة الضعيفة (٤٤٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٠)، ومسلم (٢٨٧٣).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٧٤)، ومسلم (٢٨٧٠).

مَن يخاطبونه، فيقول المسلِّم: «**السلام عليكم دارَ قوم مؤمنين**»(١)، وهذا خطاب لمن يسمعُ ويعقل، ولولا ذلك لكان هذا الخطابُ بمنزلة خطاب المعدوم والجَماد.

والسلف مجمِعون علىٰ هذا، وقد تواترت الآثار عنهم بأنّ الميّتَ يَعرف بزيارة الحيِّ له ويستبشر به.

قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا في «كتاب القبور»، باب معرفة الموتىٰ بزيارة الأحياء:

عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ما مِن رجل يزور قبر أخيه ويجلسُ عنده إلا استأنس به وردَّ عليه حتىٰ يقوم**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه قال: إذا مرَّ الرجل بقبرٍ يعرفه فسلَّم عليه ردَّ عليه السلام وعَرَفه. وإذا مرَّ بقبر لا يعرفه فسلَّم عليه ردَّ عليه السلام(٣).

وحدثنا محمد بن الحسين، حدثني بكر بن محمد، حدثنا جسر القصاب قال: كنت أغدو مع محمد بن واسع في كل غداةِ سبتٍ حتىٰ نأتي الجَبَّان(٤)، فنقف علىٰ القبور، فنسلِّم عليهم، وندعو لهم، ثم ننصرف. فقلت ذات يوم: لو صيَّرتُ هذا اليوم يومَ الاثنين! قال: بلغني أنَّ الموتىٰ يعلمون بزُوَّارهم يوم الجمعة، ويومًا قبلها، ويومًا بعدها(٥).

---

(١) أخرجه مسلم في (٢٤٩).

(٢) لم أجده في المطبوع من كتاب القبور. وإسناده ضعيف جدًّا، وضعفه ابن رجب في أهوال القبور (ص١٦٤).

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (٩٢٩٦).

(٤) الجبّان والجبّانة: المقبرة.

(٥) أورده ابن رجب في أهوال القبور (٨٤).

حدثني محمد، حدثنا عبد العزيز بن أبَان، قال: حدثنا سفيان الثوري، قال: بلغني عن الضحاك أنه قال: من زار قبرًا يومَ السبت قبل طلوع الشمس عَلِم الميِّتُ بزيارته. فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: لمكان يوم الجمعة[1].

وأبلغُ من ذلك أنَّ الميِّت يعلم بعمل الحيِّ من أقاربه وإخوانه.

عن أبي أيوب قال: تُعرَض أعمالُ الأحياء علىٰ الموتىٰ، فإذا رأوا حسنًا فرحوا واستبشروا، وإن رأوا سُوءًا قالوا: اللهم راجِعْ به[2].

وذكر ابن أبي الدنيا عن أحمد بن أبي الحَوَاري قال: حدثني محمد أخي قال: دخل عبَّاد بن عباد علىٰ إبراهيم بن صالح - وهو علىٰ فلسطين - فقال: عظني، قال: بم أعظك أصلحك الله؟ بلغني أن أعمال الأحياء تُعرَض علىٰ أقاربهم من الموتىٰ، فانظر ما يُعرَض علىٰ رسول الله ﷺ من عملك. فبكىٰ إبراهيم حتىٰ أخضَلَ لحيتَه[3].

وهذا باب فيه آثارٌ كثيرة عن الصحابة، وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول: إني أعوذ بك من عمل أخزَىٰ به عند عبد الله بن رواحة، كان يقول ذلك بعد أن استُشْهِد عبد الله[4].

ويكفي في هذه تسميةُ المسلِّم عليهم «زائرًا»، ولولا أنهم يشعرون به لما صحَّ تسميته زائرًا؛ فإن المزُورَ إن لم يعلم بزيارةِ مَن زاره لم يصحَّ أن يقال: زاره، هذا هو المعقولُ من الزيارة عند جميع الأمم.

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٧/ ١٨).

(٢) الزهد لابن المبارك (٤٤٣).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢١).

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٦٥).

وكذلك السلام عليهم أيضًا، فإنَّ السلام علىٰ من لا يشعر ولا يعلم بالمسلِّم محالٌ، وقد علَّم النبي ﷺ أمَّته إذا زاروا القبور أن يقولوا: «**سلام عليكم أهلَ الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحمُ الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية**»(١).

= فهذا السلامُ والخطاب والنداء لِموجودٍ يَسمع ويُخاطب ويَعقِل ويَرُدُّ، وإن لم يسمع المسلِّم الردَّ.

وإذا صلَّىٰ الرجل قريبًا منهم شاهدوه، وعلموا صلاته، وغَبَطوه علىٰ ذلك.

وقال ابن أبي الدنيا: عن زيد بن وَهْب، قال: خرجت إلىٰ الجَبَّانة، فجلست فيها، فإذا رجل قد جاء إلىٰ قبر، فسوَّاه، ثم تحول إليَّ، فجلس، قال: فقلت له: ما هذا القبر؟ قال: أخ لي، فقلت: أخ لك؟ فقال: أخ لي في الله، رأيته فيما يرىٰ النائم، فقلت: فلانُ، عِشتَ! الحمد لله رب العالمين، قال: قد قلتَها، لأَن أقدرَ علىٰ أن أقولها أحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها، ثم قال: ألم تر حيث كانوا يدفنوني، فإن فلانًا قام، فصلىٰ ركعتين؟ لأَن أكونَ أقدر علىٰ أن أصلِّيَهما أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها(٢).

وهذه المرائي وإن لم تصلُح بمجرَّدها لإثبات مثل ذلك، فهي علىٰ كثرتها - وإنها لا يحصيها إلا الله - قد تواطأَتْ علىٰ هذا المعنىٰ، وقد قال النبي ﷺ: «**أرىٰ رؤياكم قد تواطأَتْ علىٰ أنها في العشر الأواخر**»(٣) يعني ليلةَ القدر، فإذا تواطأت رؤيا المؤمنين علىٰ شيء كان كتواطؤِ روايتهم له، وكتواطؤ رأيهم علىٰ استحسانه واستقباحه، وما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوه قبيحًا فهو عند

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٤).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٧/ ١٩).

(٣) أخرجه البخاري (٢٠١٥)، ومسلم (١١٦٥).

الله قبيح[١]؛ علىٰ أنَّا لم نُثبِت هذا بمجرد الرؤيا، بل بما ذكرناه من الحُجَج وغيرها.

وقد ثبت في الصحيح أنَّ الميِّت يستأنسُ بالمشيِّعين لجنازته بعد دفنه.

فروىٰ مسلم في صحيحه[٢] من حديث عبد الرحمن بن شِمَاسة المَهْرِيِّ قال: حضَرْنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت، فبكىٰ طويلًا، وحوَّل وجهه إلىٰ الجدار، فجعل ابنُه يقول: ما يُبكيك يا أبتاه؟ أما بشَّرك رسول الله ﷺ بكذا؟ فأقبل بوجهه، فقال: إنَّ أفضلَ ما نُعِدُّ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. وإني كنت علىٰ أطباقٍ ثلاث، لقد رأيتُني وما أحدٌ أشدَّ بغضًا لرسول الله ﷺ مني، ولا أحبَّ إليَّ أن أكون قد استمكنتُ منه، فقتلته. فلو مِتُّ علىٰ تلك الحال لكنت من أهل النار.

فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيتُ رسول الله ﷺ، فقلت: ابسط يدك فلأبايعْكَ، فبسط يمينه، قال: فقبضتُ يدي، فقال: «**مالك يا عمرو؟**» قلت: أردتُ أن أشترط، قال: «**تشترطُ ماذا؟**» قلت: أن يُغفَر لي، قال: «**أما علمتَ أنَّ الإسلام يهدم ما كان قبله، وأنَّ الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأنَّ الحج يهدم ما كان قبله؟**». وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالًا له، ولو سئلتُ أن أصفه ما أطَقْتُ لأني لم أكن أملأُ عينيَّ منه، ولو متُّ علىٰ تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة.

ثم ولينا أشياءَ ما أدري ما حالي فيها.

فإذا أنا متُّ فلا تصحَبْني نائحةٌ ولا نار، فإذا دفنتموني فسُنُّوا عليَّ التراب سَنًّا[٣]،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٤٦٥) عن ابن مسعود موقوفًا.

(٢) برقم (١٢١).

(٣) أي صُبُّوه صبًّا سهلًا. ويروىٰ بالمعجمة. انظر: مشارق الأنوار (٢/ ٢٢٣).

ثم أقيموا حول قبري قَدرَ ما تُنحر جَزور ويُقسَم لحمُها، حتىٰ أستأنس بكم، وأنظرَ ماذا أراجعُ به رسلَ ربِّي.

فدلَّ علىٰ أنَّ الميِّت يستأنس بالحاضرين عند قبره ويُسَرُّ بهم.

وقد ذُكِر عن جماعة من السلف أنهم أوصَوْا أن يُقرأ عند قبورهم وقت الدفن.

قال عبد الحق: يروىٰ أنَّ عبد الله بن عمر أمر أن يُقرأ عند قبره سورة البقرة. وممن رأىٰ ذلك العلاء بن عبد الرحمن. وكان الإمام أحمد ينكر ذلك أولًا حيث لم يبلغه فيه أثر، ثم رجع عن ذلك[١].

وقال الحسن بن الصباح الزَّعفراني: سألت الشافعيَّ عن القراءة عند القبر، فقال: لا بأس به[٢].

وذكر الخلَّال عن الشَّعبيِّ قال: كانت الأنصار إذا مات لهم الميت اختلفوا إلىٰ قبره يقرؤون عنده القرآن[٣].

وفي النَّسائي وغيره من حديث مَعقِل بن يسار المُزَني عن النبي ﷺ أنه قال: **«اقرؤوا (يس) عند موتاكم»**[٤].

وهذا يَحتمل أن يُراد به قراءتُها علىٰ المحتَضَر عند موته، فيكون مثل قوله: **«لقِّنوا موتاكم لا إله إلا الله»**[٥]، ويحتمل أن يرادَ به القراءةُ عند القبر، والأول أظهَرُ لوجوه:

---

(١) كتاب «العاقبة في ذكر الموت» (١٨٤).

(٢) القراءة عند القبور (٤)، والأمر بالمعروف (٢٤٨).

(٣) القراءة عند القبور (٧).

(٤) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (١٠٩١٣)، وأبو داود (٣١٢١)، وابن ماجه (١٤٤٨). وضعَّفه النووي في الخلاصة (٢/ ٩٢٥).

(٥) أخرجه مسلم (٩١٦).

الأول: أنه نظير قوله: «**لقِّنوا موتاكم لا إله إلا الله**».

الثاني: انتفاعُ المحتَضَر بهذه السورة لما فيها من التوحيد، والمعَادِ، والبشرىٰ بالجنة لأهل التوحيد، وغبطةِ من مات عليه بقوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧]، فتستبشر الروح بذلك، فتحبُّ لقاءَ الله، فيحبُّ اللهُ لقاءَه، فإنَّ هذه السورة قلبُ القرآن[١] ولها خاصِّية عجيبة في قراءتها عند المحتضَر.

الثالث: أنّ الصحابة لو فهموا من قوله ﷺ: «**اقرؤوا (يس) عند موتاكم**» قراءتَها عند القبر لما أَخلُّوا به، وكان ذلك أمرًا معتادًا مشهورًا بينهم.

ص: ٢٧

سؤال الموتى عن الأحياء

فصل

وقد ترجم الحافظ أبو محمد عبد الحق الإشبيليُّ[٢] علىٰ هذا، فقال: «ذِكْرُ ما جاء أنّ الموتىٰ يَسألون عن الأحياء، ويَعرفون أقوالهم وأعمالهم».

واحتج الحافظ أبو محمد في هذا الباب بما رواه أبو داود في سُننه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من أحد يسلِّم عليَّ إلا ردَّ الله عليَّ روحي حتىٰ أردَّ عليه السلام**»[٣].

قال: وقال سليمان بن نُعَيم: رأيت النبي ﷺ في النوم، فقلت: يا رسول الله،

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٨٧).

(٢) في كتابه: العاقبة في ذكر الموت والآخرة (١٥٥).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٠٤١). وصححه ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ١٧٤).

هؤلاء الذين يأتونك ويسلِّمون عليك، أتفْقَه منهم؟ قال: «**نعم، وأردُّ عليهم**»[١].

قال: وكان ﷺ يعلِّمهم أن يقولوا إذا دخلوا المقابر: «**السلام عليكم أهل الديار..**» الحديث[٢]، قال: وهذا يدل علىٰ أنَّ الميّت يعرف سلام من يسلِّم عليه، ودعاءَ من يدعو له[٣].

فصل

ص: ٢٩

تلقين الميت

ويدلُّ علىٰ هذا أيضًا ما جرىٰ عليه عمل الناس قديمًا وإلىٰ الآن من تلقين الميت في قبره، ولولا أنه يَسمع ذلك وينتفعُ به لم يكن فيه فائدةٌ وكان عبثًا.

وقد سئل عنه الإمام أحمد، فاستحسنه، واحتجَّ عليه بالعمل.

ويُروىٰ فيه حديثٌ ضعيف ذكره الطبراني في معجمه[٤] من حديث أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا مات أحدكم، فسوَّيتُم عليه الترابَ، فلْيقمْ أحدكم علىٰ رأس قبره، ثم يقول: يا فلان بن فلانة، فإنه يسمع ولا يجيب، ثم ليقل: يا فلان بن فلانة، الثانيةَ، فإنه يستوي قاعدًا، ثم ليقل: يا فلان بن فلانة. فإنه يقول: أرشِدْنا، رحمك الله، ولكنكم لا تسمعون، فيقول: اذكر ما خرجتَ عليه من الدنيا: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأنك رضيتَ بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا، وبالقرآن إمامًا، فإنَّ منكرًا ونكيرًا يتأخر كل واحد منهما ويقول:**

(١) كتاب العاقبة (١٥٦).

(٢) أخرجه مسلم في (٢٤٩).

(٣) كتاب العاقبة (١٥٦-١٥٧).

(٤) الكبير (٧٩٧٩). وضعّفه النووي في الخلاصة (٢/ ١٠٢٩).

انطلِقْ ما يُقعِدنا عند هذا، وقد لُقِّن حجتَه؟ ويكون الله حجيجه دونهما»، فقال رجل: يا رسول الله، فإن لم يعرف أمَّه؟ قال: «**ينسبه إلىٰ أمه حوَّاء**».

فهذا الحديث، وإن لم يثبت، فاتصال العمل به في سائر الأمصار والأعصار، ومن غير إنكار، كافٍ في العمل به، وما أجرىٰ الله سبحانه العادةَ قطُّ بأنّ أمّةً طبَّقت مشارق الأرض ومغاربها، وهي أكمل الأمم عقولًا وأوفرُها معارفَ، تُطبِق علىٰ مخاطبةِ مَن لا يسمع ولا يعقل، وتستحسن ذلك، ولا ينكرُه منها منكِر، بل سنَّه الأول للآخِر، ويقتدي فيه الآخِر بالأول، فلولا أنَّ المخاطَب يسمع وإلا كان ذلك بمنزلة الخطاب للتراب والخشبِ والحجر أو للمعدوم، وهذا، وإن استحسنه واحد، فالعقلاء قاطبةً علىٰ استقباحه واستهجانه.

وقد روىٰ أبو داود في سننه[١] بإسناد لا بأس به أنَّ النبي ﷺ حضر جنازة رجل، فلما دُفن قال: «**سَلُوا لأخيكم التثبيت، فإنه الآن يُسأل**»، فأخبرَ أنه يُسأل حينئذ، وإذا كان يُسأل فإنَّه يسمع التلقين.

وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنَّ الميت يسمع قرْعَ نعالهم إذا ولَّوا منصرفين[٢].

وذكر ابن أبي الدنيا عن تُماضِرَ بنت سهل امرأةِ أيوب بن عيينة قالت: رأيت سفيان بن عيينة في النوم فقال لي: جزىٰ الله أخي أيوبَ عنّي خيرًا، فإنه يزورني كثيرًا، وقد كان عندي اليوم. فقال أيوب: نعم حضرتُ الجبَّان اليوم، فذهبت إلىٰ قبره[٣].

---

(١) برقم (٣٢٢١). وقال النووي في المجموع (٥/ ٢٩٢): «إسناده جيد».

(٢) سبق تخريجه (ص: ١٢).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في المنامات (٢٠).

ص: ٤٤

فصل

وأما المسألة الثانية

وهي أن أرواح الموتى هل تتلاقى وتتزاور وتتذاكر أم لا؟

فهي أيضًا مسألة شريفة كبيرة القَدْر، وجوابُها أن الأرواح قسمان: أرواح معذَّبة، وأرواح منعَّمة، فالمعذَّبة في شغلٍ مما هي فيه من العذاب عن التزاور والتلاقي، والأرواحُ المنعَّمةُ المرسَلَةُ غيرُ المحبوسة تتلاقىٰ وتتزاور وتتذاكر ما كان منها في الدنيا وما يكون من أهل الدنيا، فتكون كلُّ روح مع رفيقها الذي هو علىٰ مثل عملها، وروحُ نبينا محمد ﷺ في الرفيق الأعلىٰ.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩]، وهذه المعيَّةُ ثابتةٌ في الدنيا وفي دار البرزخ وفي دار الجزاء، و«**المرءُ مع من أحبَّ**»[1] في هذه الدور الثلاثة.

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]، أي: ادخلي في جملتهم، وكوني معهم، وهذا يقال للروح عند الموت.

وقد أخبر الله ﷻ عن الشهداء بأنهم أحياءٌ عند ربهم يُرزَقون، وأنهم يستبشِرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، وأنهم يستبشرون بنعمة من الله وفضل، وهذا يدلُّ علىٰ تلاقيهم من ثلاثة أوجه:

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠).

أحدها: أنهم أحياءٌ عند الله، وإذا كانوا أحياء فهم يتلاقون.

الثاني: أنَّهم إنما استبشروا بإخوانهم لقدومهم عليهم ولقائهم لهم.

الثالث: أنّ لفظ «يستبشرون» يفيد في اللغة أنهم يبشِّر بعضُهم بعضًا مثل «يتباشرون».

وقد تواترت المرائي بذلك، فمنها ما قال عبد الله بن المبارك: رأيت سفيانَ الثوريَّ في النوم فقلت له: ما فَعَل الله بك؟ قال: لقيتُ محمدًا وحِزْبَه[1].

وقال صخر بن راشد: رأيتُ عبد الله بن المبارك في النوم بعد موته، فقلتُ أليس قد متَّ؟ قال: بلىٰ، قلت: فما صنعَ الله بك؟ قال: غفر لي مغفرةً أحاطت بكل ذنبٍ، قلت: فسفيان الثوري؟ قال: بخٍ بخ! ذاك ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩][2].

وقد جاءت سنّةٌ صريحةٌ بتلاقي الأرواح وتعارُفِها.

ذكر معاوية بن يحيىٰ، عن عبد الله بن سَلَمة أنَّ أبا رُهْمٍ السَّمَعِيَّ حدَّثه أنّ أبا أيوب الأنصاريَّ حدَّثه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إنّ نفس المؤمن إذا قُبضت تلقَّاها أهلُ الرحمة من عند الله كما يُتلقَّىٰ البشيرُ في الدنيا، فيقولون: أنظِروا أخاكم حتَّىٰ يستريح فإنّه كان في كرب شديد، فيسألونه: ماذا فعل فلان؟ وما فعلتْ فلانة؟ وهل تزوّجت فلانة؟ فإذا سألوه عن رجل مات قبله قال: إنه قد مات قبلي، قالوا: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ذُهِبَ به إلىٰ أمّه الهاوية؛ فبئست الأمُّ، وبئست المربِّية!**»[3].

---

(١) العاقبة في ذكر الموت (٢٢٣)، وأخرجه ابن أبي الدنيا في المنامات (٤٥).

(٢) العاقبة (٢٢٣). وأخرجه ابن أبي الدنيا في المنامات (٦٣).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣٨٨٧)، والأوسط (١٤٨)، وضعفه ابن حبان في المجروحين (١/ ٣٣٥ - ٣٣٦)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٥٢٢).

ص: ٥٦

فصل

وأما المسألة الثالثة

وهي أنه هل تتلاقى أرواح الأحياء وأرواح الأموات؟

فشواهد هذه المسألة وأدلَّتُها أكثرُ من أن يحصيَها إلا الله تعالىٰ، والحسُّ والواقع من أعدل الشهود بها، فتلتقي أرواح الأحياء والأموات، كما تلتقي أرواح الأحياء، وقد قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

قال أبو عبد الله بن منده: عن ابن عباس في هذه الآية قال: بلغني أن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام، فيتساءلون بينهم، فيمسك الله أرواحَ الموتىٰ، ويرسل أرواحَ الأحياء إلىٰ أجسادها[1].

وهذا **أحد القولين** في الآية، وهو أنَّ الممسَكة مَن تُوفّيت وفاة الموت أولًا، والمرسَلة من توفيت وفاة النوم، والمعنىٰ علىٰ هذا القول: أنه يتوفَّىٰ نفسَ الميت، فيمسكها، ولا يرسلها إلىٰ جسدها قبل يوم القيامة. ويَتوفَّىٰ نفس النائم، ثم يرسلها إلىٰ جسدها إلىٰ بقية أجلها، فيتوفاها الوفاةَ الأخرىٰ.

والقول الثاني في الآية: أنّ الممسَكة والمرسَلة في الآية كلاهما تُوُفِّيَ وفاة النوم، فمن استكمَلت أجلَها أمسكها عنده، فلا يرُدُّها إلىٰ جسدها، ومن لم تستكمل أجلَها

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٢٢).

ردَّها إلىٰ جسدها لتستكمله.

واختار شيخ الإسلام هذا القول، وقال: عليه يدلُّ القرآنُ والسنة، قال: فإنه سبحانه ذكر إمساكَ التي قَضَىٰ عليها الموت من هذه الأنفس التي توفاها وفاةَ النوم، وأما التي توفاها حين موتها، فتلك لم يصفها بإمساكٍ ولا بإرسال، بل هي **قِسْم ثالث**[1].

والذي يترجَّح هو القول الأول: لأنّه سبحانه أخبر بوفاتين: وفاة كبرىٰ وهي وفاة الموت، ووفاة صغرىٰ وهي وفاة النوم، وقسَم الأرواح قسمين: قسمًا قضىٰ عليها الموت، فأمسكها عنده وهي التي تَوفَّاها وفاة الموت، وقسمًا لها بقيةُ أجلٍ، فردَّها إلىٰ جسدها إلىٰ استكمال أجلها، وجعل سبحانه الإمساك والإرسال حُكمَين للوفاتين المذكورتين أولًا: فهذه ممسَكة، وهذه مرسَلة، وأخبر أنَّ التي لم تمُت هي التي توفَّاها في منامها، فلو كان قد قَسَم وفاة النوم إلىٰ قسمين: وفاة موت، ووفاة نوم = لم يقل: ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ﴾ فإنها من حين قُبضت ماتت، وهو سبحانه قد أخبر أنها لم تمُت، فكيف يقول بعد ذلك: ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾؟

وقد دلَّ علىٰ التقاء أرواح الأحياء والأموات أنّ الحيَّ يرىٰ الميتَ في منامه، فيستخبره، ويخبره الميّت بما لا يعلمه الحيّ، فيصادِف خبرَه كما أخبر في الماضي والمستقبل، وربما أخبره بمال دفنه الميّتُ في مكان لم يعلم به سواه، وربما أخبره بدَين عليه، وذكر له شواهده وأدلته.

وأبلغُ من هذا أنه يخبره بما عمله من عمل لم يطَّلع عليه أحد من العالمين، وأبلغ من هذا أنّه يخبره أنّك تأتينا إلىٰ وقت كذا وكذا، فيكون كما أخبر. وربما

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٤٥٣).

أخبره عن أمور يقطع الحيُّ أنه لم يكن يعرفها غيره.

وقال العباس بن عبد المطلب: كنت أشتهي أن أرىٰ عمر في المنام، فما رأيته إلا عند قرب الحول، فرأيته يمسح العرق عن جبينه، وهو يقول: هذا أوان فراغي. إن كاد عرشي ليُهَدُّ، لولا أنّي لقيتُ رؤوفًا رحيمًا[١].

وقال عبد الله بن عمر بن عبد العزيز: رأيت أبي في النوم بعد موته، كأنه في حديقة، فدفع إليَّ تفاحات، فأوَّلْتُهنّ الولدَ. فقلت: أيَّ الأعمال وجدتَ أفضل؟ فقال: الاستغفار أي بنيّ[٢].

وقال سهيل أخو حزمٍ: رأيت مالك بن دينار بعد موته فقلت: يا أبا يحيىٰ، ليت شِعري ماذا قَدِمتَ به علىٰ الله؟ قال: قدمتُ بذنوب كثيرة محاها عنّي حسنُ الظن بالله ﷻ[٣].

ورُئِي الفضيل بن عِيَاض بعد موته، فقال: لم أرَ للعبد خيرًا من ربّه[٤].

وقال أبو يعقوب القارئ: رأيتُ في منامي رجلًا آدمَ طُوالًا، والناس يتبعونه، قلت: من هذا؟ قالوا: أويسٌ القَرَنيُّ، فاتَّبعتُه، فقلت: أوصِني، يرحمك الله، فكلَحَ في وجهي، فقلت: مسترشِدٌ، فأرشِدْني، رحمك الله، فأقبل عليَّ، فقال: ابتغِ رحمةَ الله عند محبّته، واحذر نقمتَه عند معصيته، ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك. ثم ولَّىٰ، وتركني[٥].

---

(١) المنامات (٢٢).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في المنامات (٢٦).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في المنامات (٣٢)، وحسن الظن بالله (٧).

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٠٤).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في المنامات (٦٦)، وحسن الظن بالله (١٣٥).

وقال ابن السَّمَّاك: رأيت مِسْعَرًا في النوم، فقلت: أيَّ الأعمال وجدْتَ أفضلَ؟ قال: مجالس الذكر(١).

وقال عبد الملك بن عتَّاب الليثيُّ: رأيت عامر بن عبد قيس في النوم، فقلت: أيَّ الأعمال وجدتَ أفضل؟ قال: ما أُريدَ به وجهُ الله ﷻ(٢).

وقال يزيد بن نَعامة: هلكتْ جاريةٌ في طاعون الجارف، فلقيها أبوها بعد موتها، فقال لها: يا بُنيَّة، أخبريني عن الآخرة. قالت: يا أبتِ، قدِمنا علىٰ أمرٍ عظيمٍ، نعلم ولا نعمل، وتعملون ولا تعلمون. واللّهِ، لتسبيحةٌ أو تسبيحتانِ أو ركعة أو ركعتان في صحيفة عملي أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها(٣).

وقال أبو بكر أحمدُ بن محمد بن الحجَّاج: حدثني رجلٌ من أهل طَرَسوس قال: دعوتُ الله ﷻ أن يُريني أهلَ القبور حتىٰ أسألَهم عن أحمد بن حنبل ما فَعَل الله به؟ فرأيتُ بعد عشر سنين في المنام، كأنَّ أهلَ القبور قد قاموا علىٰ قبورهم، فبادروني بالكلام، فقالوا: يا هذا، كم تدعو الله ﷻ أن يُرِيَك إيَّانا! تسألنا عن رجل لم يَزَلْ منذ فارقكم تحليه الملائكةُ تحت شجرة طوبىٰ.

قال أبو محمد عبد الحقّ: وهذا الكلامُ من أهل القبور إنما هو إخبارٌ عن عُلوِّ درجة أحمد بن حنبل وارتفاع مكانه وعِظَمِ منزلته، فلم يقدِروا أن يُعبِّروا عن صفة حاله وعمّا هو فيه إلّا بهذا، وما هو في معناه(٤).

وهذا بابٌ طويل جدًّا، فإن لم تسمح نفسك بتصديقه، وقلت: هذه منامات،

(١) أخرجه ابن ابي الدنيا في المنامات (٦٩).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في المنامات (٨٠) والإخلاص والنية (١٣).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في المنامات (٨٦). (٤) كتاب العاقبة (٢٢٤).

وهي غير معصومة، فتأمَّلْ من رأىٰ صاحبًا له أو قريبًا أو غيره، فأخبَرَه بأمر لا يعلمه إلا صاحبُ الرؤيا، أو أخبَره بمال دفَنَه هو أو غيره، أو حذَّره من أمر يقع، أو بشَّرَه بأمر يوجد، فوقع كما قال؛ أو أخبَره بأنه يموت هو أو بعضُ أهله إلىٰ كذا وكذا، فيقع كما أخبر؛ أو أخبَره بِخِصْب أو جَدْب أو عدوٍّ أو نازلة أو مرض يعرِضُ له، فوقع كما أخبَر، والواقعُ من ذلك لا يُحصيه إلا الله، والناسُ مشتركون فيه، وقد رأينا نحن وغيرُنا من ذلك عجائب.

والرؤيا علىٰ ثلاثة أنواع: رؤيا من الله، ورؤيا من الشيطان، ورؤيا من حديث النفس[1].

والرؤيا الصحيحةُ أقسام منها: إلهامٌ يُلقيه الله سبحانه في قلب العبد، وهو كلامٌ يُكلِّم به الربُّ عبدَه في المنام، كما قال عبادة بن الصامت[2] وغيره، ومنها: مَثَلٌ يضربه له ملكُ الرؤيا الموكلُ بها، ومنها: التقاءُ روحِ النائم بأرواح الموتىٰ من أهله وأقاربه وأصحابه وغيرهم، كما ذكرناه، ومنها: عروجُ روحه إلىٰ الله ﷻ وخطابُها له، ومنها: دخولُ روحه إلىٰ الجنة ومشاهدتُها وغير ذلك، فالتقاءُ أرواح الأحياء والموتىٰ نوعٌ من أنواع الرؤيا الصحيحة التي هي عند الناس من جنس المحسوسات.

وروىٰ جعفر بن عون عن إبراهيم الهجَري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: إنَّ الأرواحَ جنودٌ مجندةٌ تتلاقىٰ، فتَشامُّ كما تشامّ الخيلُ، فما تعارفَ منا ائتلفَ، وما تناكرَ منها اختلفَ[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠١٧)، ومسلم (٢٢٦٣).

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر (١/ ٣٩٠)، وضعفه ابن حجر في فتح الباري (١٢/ ٣٥٤).

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (٩٠٣٨).

ولم يزل الناسُ قديمًا وحديثًا تعرفُ هذا وتشاهِدهُ، قال جميل بن مَعمَر العُذْري:

أظَلُّ نهاري مُستهامًا وتلتقي مع الليل روحي في المنام وروحُها[١]

وقد تتناسب الرُّوحانِ وتشتدُّ علاقةُ إحداهما بالأخرىٰ، فيشعر كلٌّ منهما ببعض ما يحدث لصاحبه، وإنْ لم يشعرْ بما يحدثُ لغيره لشدة العلاقة بينهما، وقد شاهد الناس من ذلك عجائب.

والمقصود أن أرواحَ الأحياء تتلاقىٰ في النوم، كما تتلاقىٰ أرواحُ الأحياء والأموات.

قال بعضُ السلف: إنَّ الأرواحَ تتلاقىٰ في الهواء، فتتعارف، وتتناكر، فيأتيها ملكُ الرؤيا بما هو لاقيها من خير أو شر، قال: وقد وكَّلَ اللهُ بالرؤيا الصادقةِ ملَكًا علَّمه وأَلهمه معرفةَ كلِّ نفس بعينها، واسمِها، ومنقلَبِها في دينها ودنياها، وطبعِها، ومعارِفِها؛ لا يشتبه عليه منها شيء، ولا يغلطُ فيها، فيأتيه نسخة من علمِ غيب الله من أُمِّ الكتاب بما هو مُصيبٌ لهذا الإنسان من خيرٍ وشرٍّ في دينه ودنياه، ويضربُ له فيها الأمثال والأشكال علىٰ قدر عادته، فتارةً يبشِّره بخير قدَّمه أو يقدِّمه، ويُنذره من معصية ارتكبها أو هَمَّ بها، ويحذِّره من مكروه انعقدتْ أسبابه؛ لِيعارض تلك الأسبابَ بأسبابٍ تدفعها، ولغير ذلك من الحِكم والمصالح التي جعلها الله في الرؤيا نعمةً منه ورحمةً وإحسانًا وتذكيرًا وتعريفًا، وجعل أحدَ طُرق ذلك تلاقيَ الأرواح وتذاكُرَها وتعارفَها.

وكم ممن كانت توبتُه وصلاحُه وزهدُه وإقبالُه علىٰ الآخرة عن منامٍ رآه أو رُئِيَ له! وكم ممن استغنىٰ وأصابَ كنزًا أو دفينًا عن منام!

---

(١) ديوان جميل (٥١).

وهذا عبد المطلب دُلَّ في النوم علىٰ زمزم، وأصاب الكنزَ الذي كان هناك[1].

والحكاياتُ في هذا الباب كثيرةٌ جدًّا.

وأما من حصل له الشفاءُ باستعمال دواءٍ رأىٰ مَن وصفَه له في منامه، فكثير جدًّا.

وقد حدَّثني غيرُ واحدٍ ممّن كان غيرَ مائل إلىٰ شيخِ الإسلام ابن تيمية، أنه رآه بعد موته، وسأله عن شيء كان يُشكِل عليه من مسائل الفرائض وغيرها، فأجابه بالصواب.

وبالجملة، فهذا أمرٌ لا ينكره إلا مَن هو مِن أجهلِ الناس بالأرواح وأحكامها وشأنها، وبالله التوفيق.

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ١٤٦).

فصل
وأمَّا المسألة الرابعة
وهي أنّ الروح هل تموت، أم الموت للبدن وحده؟

ص: ٩٧

فقد اختلف الناسُ في هذا، فقالت طائفة: تموت وتذوق الموتَ؛ لأنها نفس، وكلُّ نفس ذائقةُ الموت.

قالوا: وقد دلَّت الأدلَّة علىٰ أنه لا يبقىٰ إلا الله وحده، قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

قالوا: وإذا كانت الملائكة تموت، فالنفوسُ البشرية أولىٰ بالموت.

قالوا: وقد قال تعالىٰ عن أهل النار إنهم قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، فالموتة الأولىٰ هي المشهودة، وهي للبدن، والأخرىٰ للروح.

وقال آخرون: لا تموت الأرواحُ، فإنها خُلِقَت للبقاء، وإنما تموت الأبدانُ. قالوا: وقد دلَّ علىٰ هذا الأحاديثُ الدالَّةُ علىٰ نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلىٰ أن يَرجِعَها الله في أجسادها، ولو ماتت الأرواحُ لانقطع عنها النعيمُ والعذاب. وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩- ١٧٠]. هذا مع القطع بأنَّ أرواحَهم قد فارقتْ أجسادهم، وقد ذاقت الموت.

والصوابُ أن يقال: موتُ النفوس هو مفارقتُها لأجسادها وخروجُها منها، فإن

أُريد بموتها هذا القدر، فهي ذائقة الموت، وإن أُريدَ أنها تُعدَم وتضمحلُّ وتصير عدمًا محضًا، فهي لا تموت بهذا الاعتبار؛ بل هي باقيةٌ بعد خلقها في نعيم أو في عذاب، كما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ بعد هذا، وكما صرَّح به النصُّ أنّها كذلك حتىٰ يردَّها الله في جسدها.

وقد نظم أحمدُ بن الحسين الكندي هذا الاختلاف في قوله:

تنـازَعَ النـاسُ حتـى لا اتفـاقَ لهم إلّا على شَجَبٍ والخُلْفُ في شَجَبِ

فقيـل تـخلُصُ نفسُ المرءِ سـالمةً وقيل تشرَكُ جسمَ المرء في العَطَبِ

فإن قيل: فعند النفخ في الصور، هل تبقىٰ الأرواحُ حيَّةً كما هي، أو تموت ثم تحيا؟

قيل: قد قال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]. فقد استثنىٰ الله سبحانه بعضَ من في السموات ومن في الأرض من هذا الصَّعق، فقيل: هم الشهداء، هذا قول أبي هريرة، وابن عباس، وسعيد بن جُبير.

وقيل: هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملَك الموت، وهذا قول مقاتل وغيره.

وقيل: هم الذين في الجنةِ من الحور العين وغيرهم، ومَن في النار من أهلِ العذاب وخَزَنتها؛ قاله أبو إسحاق بن شاقلا من أصحابنا.

وقد نصَّ الإمام أحمد علىٰ أنَّ الحورَ العين والوِلدان لا يمُتْنَ عند النفخ في الصور.

وقد أخبر سبحانه أن أهلَ الجنة ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]، وهذا نصٌّ علىٰ أنهم لا يموتون غيرَ تلك الموتة الأولىٰ، فلو ماتوا مرةً ثانية لكانت موتتان.

وأما قولُ أهل النار: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾، فتفسيرُ هذه الآيةِ: الآيةُ التي في البقرة، وهي قوله تعالىٰ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]. فكانوا أمواتًا وهم نُطَفٌ في أصلاب آبائهم وفي أرحام أمهاتهم، ثم أحياهم بعد ذلك، ثم أماتهم، ثم يحييهم يوم النشور، وليس في ذلك إماتةُ أرواحهم قبل يوم القيامة، وإلا كانت ثلاث موتات.

وصعقُ الأرواح عند النفخ في الصور لا يلزم منه موتُها، ففي الحديث الصحيح: «**أن الناسَ يَصْعَقون يومَ القيامة، فأكونُ أولَ من يُفيق، فإذا موسىٰ آخذٌ بقائمة العرش، فلا أدري أفاقَ قبلي أم جُوزي بصعقة يوم الطور**»[1]، فهذا صعقٌ في موقف القيامة إذا جاء الله سبحانه لفصل القضاء، وأشرقت الأرضُ بنوره، فحينئذٍ تَصعقُ الخلائقُ كلُّهم. قال تعالىٰ: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥]، ولو كان هذا الصَّعق موتًا لكانت موتة أخرىٰ.

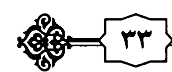
وقد تنبَّه لهذا جماعةٌ من الفضلاء، فقال أبو عبد الله القرطبي: ظاهرُ هذا الحديث أن هذه صعقةُ غشي تكون يوم القيامة، لا صعقة الموت الحادثة عند نفخ الصور[2].

قلت: وحينئذٍ فلا تدلُّ الآية علىٰ أنّ الأرواحَ كلَّها تموت عند النفخةِ الأولىٰ، نعم تدلُّ علىٰ موت الخلائق عند النفخة الأولىٰ، وكلُّ من لم يذق الموتَ قبلها فإنه يذوقه حينئذ، وأما من ذاقَ الموتَ أو من لم يُكتب عليه الموتُ، فلا تدل الآية علىٰ أنه يموت موتةً ثانية، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٩٨)، ومسلم (٢٣٧٤).

(٢) التذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة (١/ ٤٥٧).



فصل
وأما المسألة الخامسة

ص: ١٠٧

وهي أنّ الأرواحَ، بعد مفارقة الأبدان إذا تجرَّدت، بأيِّ شيء يتميَّز بعضُها من بعض، حتى تتعارفَ وتتلاقى؟ وهل تَشَكَّلُ إذا تجردتْ بشكل بدنها الذي كانت فيه وتلبس صورتَه، أم كيف يكون حالُها؟

فهذه مسألةٌ لا تكاد تجد من تكلَّم فيها، ولا تظفرُ فيها من كتب الناس بطائلٍ ولا غير طائل.

ولا يمكن جواب هذه المسألة إلا علىٰ أصول أهل السنة التي تظاهرتْ عليها أدلةُ القرآن والسنة والآثار والاعتبار والعقل، والقولِ: إنّها ذاتٌ قائمةٌ بنفسها تصعَدُ وتنزل، وتتصلُ وتنفصل، وتخرج وتذهب وتجيء، وتتحرك وتسكن. وعلىٰ هذا أكثر من مئة دليلٍ قد ذكرناها في كتابنا الكبير في معرفة الروح والنفس، وبينَّا بطلانَ ما خالف هذا القول من وجوهٍ كثيرة، وأنَّ من قال غيرَه لم يعرف نفسَه.

وقد وصفها الله ﷻ بالدخول والخروج والقبض والتوفي والرجوع وصعودها إلىٰ السماء وفتحِ أبوابها لها وغَلْقها عنها، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣]. وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠] وهذا يقال لها عند المفارقة للجسد.

وقال تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧- ٨]، فأخبر أنه سوَّىٰ النفس، كما أخبر أنه سوَّىٰ البدن في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧]، فهو سبحانه سوَّىٰ نفسَ الإنسان كما سوَّىٰ بدنَه، بل سوَّىٰ بدنه كالقالَب لنفسه، فتسويةُ البدن تابعٌ لتسوية النفس، والبدن موضوعٌ لها كالقالَب لما هو موضوعٌ له.

ومن هاهنا يُعلم أنها تأخذ من بدنها صورةً تتميَّز بها عن غيرها، فإنها تتأثَّر وتنتقل عن البدن، كما يتأثَّر البدنُ وينتقل عنها. فيكتسبُ البدنُ الطيّبَ والخبيثَ من طيِّب النفس وخبيثها، وتكتسب النفسُ الطيِّب والخَبيثَ من طيِّب البدن وخبيثه، فأشدُّ الأشياء ارتباطًا وتناسبًا وتفاعلًا وتأثُّرًا من أحدهما بالآخر الروحُ والبدنُ، ولهذا يقال لها عند المفارقة: اخرُجي أيتها الروح الطيبة كانت في الجسدِ الطيِّبِ، واخرُجي أيتها الروح الخبيثة كانت في الجسدِ الخبيث.

وقد أخبر سبحانه عن الشهداءِ بأنهم ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. وهذه حياةُ أرواحهم، ورزقُها دارًّا، وإلا فالأبدان قد تمزَّقتْ.

وقد فسَّر رسول الله ﷺ هذه الحياةَ بأنّ «**أرواحَهم في جوف طيرٍ خُضْرٍ، لها قناديلُ مُعلَّقة بالعرش، تسرحُ في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلىٰ تلك القناديل. فاطَّلع عليهم ربهم اطّلاعةً فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أيَّ شيء نشتهي؟ ونحن نسرحُ من الجنة حيث شئنا، ففعل بهم ذلك ثلاثَ مرات، فلما رَأَوا أنهم لن يُترَكوا من أن يسألوا قالوا: نريد أن تُرَدَّ أرواحُنا في أجسادنا، حتىٰ نُقتَلَ في سبيلك مرةً أخرىٰ**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٨٧).

وإذا كان هذا شأنَ الأرواح، فتميزُّها بعد المفارقة يكون أظهرَ من تميُّز الأبدان، والاشتباهُ بينها أبعد من اشتباهِ الأبدان، فإن الأبدانَ تشتبه كثيرًا، وأما الأرواح فقلَّما تَشتبه.

وأُخبركَ بأمرٍ إذا تأمَّلتَ أحوال الأنفس والأبدان شاهدتَه عِيانًا: قَلَّ أن ترىٰ بدنًا قبيحًا وشكلاً شنيعًا إلا وجدتَه مُرَكَّبًا علىٰ نفسٍ تُشاكله وتناسبه، وقَلَّ أن ترىٰ آفةً في بدن إلا وفي روح صاحبه آفةٌ تناسبها، ولهذا تأخذ أصحاب الفراسة أحوالَ النفوس من أشكال الأبدان وأحوالها، فقلَّ أن تخطئ ذلك، ويُحكَىٰ عن الشافعي رحمه الله في ذلك عجائب.

وإذا كانت الأرواح العلوية - وهم الملائكة - متميزًا بعضهم عن بعض من غير أجسامٍ تحملهم، وكذلك الجن، فتميُّز الأرواح البشرية أولىٰ.



فصل

وأما المسألة السادسة

وهي أنَّ الروح هل تُعاد إلى الميتِ في قبره وقتَ السؤال، أم لا تُعاد؟

ص: ١١٥

فقد كفانا رسولُ الله ﷺ أمرَ هذه المسألة، وأغنانا عن أقوال الناس، حيث صرَّح بإعادة الروح إليه، فقال البراء بن عازب: كنا في جنازة في بقيع الغَرْقد، فأتانا النبيُّ ﷺ، فقعد، وقعدنا حوله، كأنّ علىٰ رؤوسنا الطير، وهو يُلحَدُ له، فقال: «**أعوذ بالله من عذاب القبر**» ثلاث مرات، ثم قال: «**إن العبدَ المؤمن إذا كان في إقبالٍ من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت إليه الملائكة كأنَّ وجوهَهم الشمس، فجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملكُ الموت حتىٰ يجلِسَ عند رأسه، فيقول: أيتها النفسُ الطيِّبة، اخرُجي إلىٰ مغفرةٍ من الله ورضوان**».

قال: «**فتخرُج تَسيل، كما تسيل القطرةُ من فِي السِّقاء، فيأخذُها، فإذا أخذَها لم يَدَعوها في يده طرفةَ عين حتىٰ يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن وذلك الحَنُوط، ويخرج منها كأطيبِ نفحةِ مسكٍ وُجدَتْ علىٰ وجه الأرض**».

قال: «**فيصعَدون بها فلا يمرُّون بها - يعني: علىٰ ملأ من الملائكة - إلا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الطيِّب؟ فيقولون: فلانُ بن فلان - بأحسن أسمائه التي كانوا يُسمونه به في الدنيا - حتىٰ ينتهوا بها إلىٰ السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيُفتَحُ له، فيُشيِّعه من كل سماء مقرَّبوها إلىٰ السماء التي تليها، حتىٰ يُنتهىٰ بها إلىٰ السماء التي فيها الله ﷻ، فيقول الله ﷻ: اكتُبوا كتابَ عبدي في علِّيِّين، وأعيدوه إلىٰ الأرض، فإني منها**

خلقتُهم، وفيها أُعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرىٰ».

قال: «فتُعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان، فيُجلسانه، فيقولان له: من ربُّك؟ فيقول: ربِّي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلامُ. فيقولان له: ما هذا الرجلُ الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان له: وما عِلْمُك؟ فيقول: قرأتُ كتاب الله، فآمنتُ به، وصدَّقت. فينادي منادٍ من السماء أن: صدَق عبدي، فأفرِشوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلىٰ الجنة».

قال: «فيأتيه من ريحها وطِيبها، ويُفسَح له في قبره مدَّ بصره».

قال: «ويأتيه رجل حسنُ الوجه حسنُ الثياب طَيِّبُ الريح، فيقول: أبشِرْ بالذي يسُرُّك، هذا يومُك الذي كنت تُوعَد. فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجهُ يجيء بالخير! فيقول له: أنا عملُك الصالح. فيقول: ربِّ أقم الساعة، حتىٰ أَرجع إلىٰ أهلي ومالي».

قال: «وإنَّ العبدَ الكافر إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكةٌ سُودُ الوجوه، معهم المُسُوح[1]، فيجلسون منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملكُ الموت حتىٰ يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفسُ الخبيثة اخرُجي إلىٰ سَخَطٍ من الله وغَضَب».

قال: «فتَفرَّق في جسده، فينتزعها، كما يُنتزَع السَّفُّود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذَها لم يدَعوها في يده طرفةَ عين حتىٰ يجعلوها في تلك المُسوح، ويخرج منها كأنتنِ ريح جيفةٍ وُجدت علىٰ وجه الأرض، فيصعَدون بها فلا يمرُّون بها علىٰ ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الخبيث؟ فيقولون: فلانُ بن فلان

---

(١) جمع المِسْح، وهو الكساء من الشعر.

- بأقبحِ أسمائه التي كان يُسمىٰ بها في الدنيا - حتىٰ يُنتهىٰ بها إلىٰ السماء الدنيا، فيُستفتح له فلا يُفتَح له».

ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، **فيقول الله ﷻ: اكتُبوا كتابَه في سِجِّين في الأرض السُّفلىٰ، فتُطرح روحُه طرحًا»**، ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

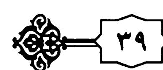
فتعاد روحُه في جسده، ويأتيه ملكان، فَيُجلِسانه، فيقولان له: من ربُّك؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري. فيقولان له: ما هذا الرجلُ الذي بُعِث فيكم؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري، فينادي منادٍ من السماء: أن كَذَب، فأفرِشوه من النار، وافتحوا له بابًا إلىٰ النار، فيأتيه من حرِّها وسَمُومها، ويُضيَّق عليه قبرُه حتىٰ تختلِفَ فيه أضلاعُه، ويأتيه رجلٌ قبيح الوجه قبيح الثياب مُنتِنُ الريح، فيقول: أبشِرْ بالذي يَسوءك! هذا يومك الذي كنت تُوعَد، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجهُ يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيثُ، فيقول: ربِّ لا تُقِم الساعة».

رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وروىٰ النسائي وابن ماجه أوله، ورواه أبو عوانة الإسفراييني في «صحيحه»[1].

وذهب إلىٰ القول بموجب هذا الحديثِ جميعُ أهل السنَّة والحديث من سائر الطوائف.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٨٥٣٤)، وأبو داود (٤٧٥٣)، وأبو عوانة في صحيحه كما في إتحاف المهرة (٢/ ٤٥٩)، وأخرج بعضه النسائي (٢٠٠١)، وابن ماجه (١٥٤٩)، وصححه ابن خزيمة في التوحيد (١٧٥، ١٧٦).



وقال أبو محمد بن حزم في كتاب «الملل والنحل» له[1]: وأما من ظنَّ أن الميتَ يحيا في قبره قبل يوم القيامة، فخطأ؛ لأنّ الآيات التي ذكرنا تمنع من ذلك. يعني قوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ [غافر: ١١]، وقوله: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٨].

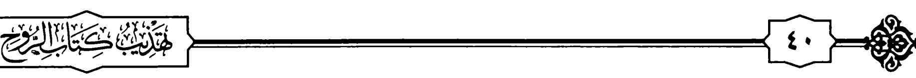
قال: ولو كان الميتُ يَحيا في قبره لكان تعالىٰ قد أماتنا ثلاثًا وأحيانا ثلاثًا، وهذا باطلٌ، وخلافُ القرآن، إلا من أحياه اللهُ تعالىٰ آيةً لنبيٍّ من الأنبياء، و﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، والذي ﴿مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، ومن خصَّه نصٌّ.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ [الزمر: ٤٢] فصحَّ بنصِّ القرآن أن أرواحَ سائر من ذكرنا لا ترجع إلىٰ جسده إلا إلىٰ الأجل المسمَّىٰ، وهو يوم القيامة.

وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]، فنفىٰ السمعَ عمن في القبور، وهي الأجساد بلا شك، ولا يشكُّ مسلمٌ أنّ الذي نفىٰ الله ﷻ عنه السمعَ هو غيرُ الذي أثبت له رسولُ الله ﷺ السمع.

قلت: وما ذكره أبو محمد فيه حقٌّ وباطلٌ، أما قوله: من ظنَّ أنّ الميت يحيا في قبره فخطأ؛ فهذا فيه إجمالٌ إن أراد به الحياةَ المعهودة في الدنيا التي تقوم فيها الروحُ بالبدن، وتدبِّره وتصرِّفه ويحتاج معها إلىٰ الطعام والشراب واللِّباس، فهذا خطأ كما قال، والحِسُّ والعقل يُكذِّبه كما يُكذِّبه النصُّ.

(١) الفصل في الملل والنحل (٤/ ٥٦ - ٥٧).



وإن أراد به حياةً أخرىٰ غيرَ هذه الحياة، بل تُعاد الروحُ إليه إعادةً غير الإعادة المألوفة في الدنيا، ليُسأل ويُمتحن في قبره= فهذا حقٌّ، ونَفيُه خطأ، وقد دلَّ عليه النصُّ الصحيح الصريح، وهو قوله: «**فَتُعاد روحُه في جسده**».

وأما استدلاله بقوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ [غافر: ١١] فلا ينفي ثبوتَ هذه الإعادةِ العارضة للروح في الجسد للمساءلة، كما أنَّ قتيلَ بني إسرائيل الذي أحياه الله بعد قتله ثم أماتَه، لم تكن تلك الحياةُ العارضة له مُعتدًّا بها، فإنه حَيِيَ لحظةً بحيث قال: فلانٌ قتلني، ثمَّ خرَّ ميتًا. علىٰ أن قوله: «ثم تُعاد روحُه في جسده» لا يدلُّ علىٰ حياة مستقرة، وإنما يدلُّ علىٰ إعادةٍ لها إلىٰ البدن وتعلُّقٍ به، والرّوحُ لم تزل متعلقةً ببدنها، وإن بَلِي، وتمزَّق، **وسِرُّ ذلك أنَّ الروح لها بالبدن خمسةُ أنواع من التعلُّق متغايرةُ الأحكام**:

أحدها: تعلُّقها به في بطن الأمِّ جنينًا.

الثاني: تعلُّقها به بعد خروجه إلىٰ وجهِ الأرض.

الثالث: تعلُّقها به في حال النوم، فلها به تعلُّقٌ من وجه، ومفارقةٌ من وجه.

الرابع: تعلُّقها به في البرزخ، فإنها وإن فارقته وتجردَتْ عنه فإنها لم تُفارقْه فراقًا كليًّا بحيث لا يبقىٰ لها التفات إليه البتة، وقد ذكرنا في أول الجواب من الأحاديث والآثار ما يدلُّ علىٰ ردِّها إليه وقتَ سلام المسلِّم، وهذا الردُّ إعادةٌ خاصة لا تُوجِب حياةَ البدن قبل يوم القيامة.

الخامس: تعلُّقها به يومَ بعث الأجساد، وهو أكملُ أنواع تعلُّقها بالبدن، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلُّق إليه؛ إذ هو تعلُّقٌ لا يقبل البدنُ معه موتًا ولا نومًا ولا فسادًا.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ [الزمر: ٤٢] فإمساكُه سبحانه التي قضىٰ عليها الموتَ لا يُنافي ردَّها إلىٰ جسد الميت في وقتٍ ما ردًّا عارضًا لا يوجب له الحياةَ المعهودة في الدنيا، وإذا كان النائم روحُه في جسده، وهو حيٌّ، وحياتُه غير حياة المستيقظ، فإنَّ النوم شقيقُ الموت؛ فهكذا الميتُ إذا أعيدت روحُه إلىٰ جسده كانت له حالٌ متوسطةٌ بين الحيِّ وبين الميِّت الذي لم تُردَّ روحُه إلىٰ بدنه، كحال النائمِ المتوسطة بين الحيِّ والميت. **فتأمَّلْ هذا يُزيح عنك إشكالاتٍ كثيرة.**

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢] فسياقُ الآية يدلُّ علىٰ أنَّ المرادَ منها: أنَّ الكافرَ مَيِّتُ القلب، لا يقدرُ علىٰ إسماعه سماعًا ينتفع به، كما أنَّ مَن في القبور لا يقدر علىٰ إسماعهم سماعًا ينتفعون به، ولم يُرِدْ سبحانه أنَّ أصحابَ القبور لا يسمعون شيئًا البتة، كيف وقد أخبر النبيُّ ﷺ أنهم يسمعون خفقَ نِعال المشيِّعين[1]، وأخبر أن قتلىٰ بدر سمعوا كلامَه وخطابَه[2]، وشرعَ السلامَ عليهم بصيغة الخطاب للحاضر الذي يسمع[3]، وأخبر أنَّ من سلَّم علىٰ أخيه المؤمن ردَّ عليه السلام[4]؟ وهذه الآية نظيرُ قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠].

وقد يقال: نفيُ إسماعِ الصُّمِّ مع نفي إسماعِ الموتىٰ يدلُّ علىٰ أنَّ المرادَ عدمُ أهليّة كلٍّ منهما للسماع. وأنَّ قلوبَ هؤلاء لما كانت ميتةً صُمًّا كان إسماعها

---

(١) سبق تخريجه (ص: ١٢).
(٢) سبق تخريجه (ص: ١٢).
(٣) سبق تخريجه (ص: ١٣).
(٤) سبق تخريجه (ص: ١٣).

ممتنعًا بمنزلة خطاب الميِّت والأصمِّ، وهذا حقٌّ، ولكن لا ينفي إسماعَ الأرواح بعد الموت إسماعَ توبيخٍ وتقريع، بواسطة تعلّقها بالأبدان في وقت ما، فهذا غير الإسماع المنفي، والله أعلم.

وحقيقةُ المعنىٰ: إنك لا تستطيع أن تُسمِعَ من لم يشأ الله أن يُسمعَه. إن (أنت إلا نذير)، أي: إنما جعل الله لك الاستطاعةَ علىٰ الإنذار الذي كلَّفك إياه، لا علىٰ إسماع من لم يشأ الله إسماعَه.

قال شيخُ الإسلام[1]: الأحاديثُ الصحيحة المتواترة تدلُّ علىٰ عَود الروح إلىٰ البدن وقت السؤال، وسؤالُ البدن بلا روح قولٌ قاله طائفة من الناس، وأنكره الجمهور، وقابلهم آخرون، فقالوا: السؤالُ للروح بلا بدن، وهذا قاله ابن مسرَّة وابن حزم، وكلاهما غلط، والأحاديث الصحيحة تردُّه، ولو كان ذلك علىٰ الروحِ فقط لم يكن للقبر بالروح اختصاصٌ.

فصل

ص: ١٤٦

عذاب القبر على النفس وعلى البدن

وهذا يتضح بجواب **المسألة** [الملحقة بالسادسة]، **وهي قول السائل: هل عذاب القبر علىٰ النفس والبدن، أو علىٰ النفس دون البدن، أو علىٰ البدن دون النفس؟ وهل يُشارك البدنُ النفسَ في النعيمِ والعذاب أم لا؟**

وقد سُئل شيخُ الإسلام عن هذه المسألة - ونحن نذكر لفظَ جوابه - فقال[2]:

---

(١) في شرح حديث النزول. انظر: مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٤٤٦).

(٢) انظر: مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٢٨٢ - ٢٩٥).

«بل العذابُ والنعيم على النفس والبدن جميعًا باتِّفاق أهل السنة والجماعة. تُنعَّم النفسُ وتُعذَّب منفردةً عن البدن، وتُنعَّم وتُعذَّب متَّصلة بالبدن، والبدن متَّصلٌ بها، فيكون النعيمُ والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعَين، كما يكون للروح منفردةً عن البدن.

وهل يكون العذاب والنعيم للبدن بدون الروح؟ هذا فيه قولان مشهوران لأهل الحديث والسنة وأهل الكلام، وفي المسألة أقوال شاذّة ليست من أقوال أهل السنة والحديث».

فصل

ص: ١٤٩
الميت إما في نعيم أو عذاب

«ومذهب سلف الأمة وأئمتها: أنّ الميتَ إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأنّ ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأنّ الروحَ تبقىٰ بعد مفارقة البدن مُنعَّمة أو مُعذَّبة، وأنها تتَّصل بالبدن أحيانًا فيحصل له معها النعيم أو العذاب، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرىٰ أُعيدت الأرواح إلىٰ الأجساد، وقاموا من قبورهم لربِّ العالمين، ومعادُ الأبدان متفقٌ عليه بين المسلمين واليهود والنصارىٰ».

ص: ١٥٠

فصل

أحاديث عذاب القبر

«ونحن ننصر ما ذكرناه، فأما أحاديثُ عذاب القبر ومساءلة منكر ونكير، فكثيرةٌ متواترة عن النبي ﷺ، كما في «الصحيحين»[1] عن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ مرَّ بقبرين، فقال: «**إنهما لَيُعذَّبان، وما يُعذَّبان في كبير، أما أحدُهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخرُ فكان يمشي بالنميمة**»، ثم دعا بجريدة رَطْبة، فشقَّها نصفين، فقال: «**لعله يخفَّفُ عنهما ما لم يَيْبسا**».

وفي «صحيح مسلم»[2]: عن زيد بن ثابت قال: بينا رسولُ الله ﷺ في حائط لبني النجار علىٰ بغلته، ونحن معه، إذ حادت به، فكادت تلقيه، فإذا أقبُرٌ ستة أو خمسة أو أربعة. فقال: «**من يعرف أصحابَ هذه القبور؟**» فقال رجل: أنا، قال: «**فمتىٰ مات هؤلاء؟**» قال: ماتوا في الإشراك، فقال: «**إنَّ هذه الأمةَ تُبتلىٰ في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوتُ الله أن يُسمِعكم من عذاب القبر الذي أسمعُ منه**»، ثم أقبل علينا بوجهه، فقال: «**تعوَّذوا بالله من عذاب النار**»، قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار، قال: «**تعوَّذوا بالله من عذاب القبر**»، قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر، قال: «**تعوَّذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن**»، قالوا: نعوذُ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قال: «**تعوَّذوا بالله من فتنة الدجَّال**»، قالوا: نعوذُ بالله من فتنة الدجَّال.

وفي «صحيح مسلم»[3] وجميع السنن[4]: عن أبي هريرة أن النبيَّ ﷺ قال: «**إذا فَرَغ أحدُكم من التشهد الأخير، فليتعوَّذ بالله من أربعٍ: من عذاب جهنم، ومن عذاب**

---

(١) البخاري (٢١٦) ومسلم (٢٩٢). (٢) برقم (٢٨٦٧).

(٣) برقم (٥٨٨).

(٤) أخرجه أبو داود (٩٨٣) والنسائي (١٣٠٩) وابن ماجه (٩٠٩)، والترمذي (٣٦٠٤).

القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجَّال».

وفي «الصحيحين»[(١)]: عن أبي أيوب قال: خرج النبيُّ ﷺ، وقد وجَبت الشمسُ، فسمع صوتًا، فقال: «**يهود تُعذَّب في قبورها**».

وفي «الصحيحين»[(٢)]: عن عائشة قالت: دخلتْ عليَّ عجوزٌ من عجائز يهود المدينة، فقالت: إنّ أهلَ القبور يُعذَّبون في قبورهم. قالت: فكذَّبتُها، ولم أُنعِمْ أن أُصدِّقَها. قالت: فخرجَتْ، ودخل عليَّ رسولُ الله ﷺ، فقلتُ: يا رسول الله، إنَّ عجوزًا من عجائز يهود أهل المدينة دخلتْ، فزعمتْ أنَّ أهلَ القبور يُعذَّبون في قبورهم، قال: «**صدقَتْ، إنَّهم يُعذَّبون عذابًا تسمعُه البهائمُ كلُّها**». قالت: فما رأيتُه بعدُ في صلاة إلا يتعوَّذ من عذاب القبر.

قلتُ[(٣)]: وأحاديث المسألة في القبر كثيرة، كما في الصحيحين والسُّنن عن البراء بن عازب أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**المسلم إذا سُئِل في قبره، فيشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فذلك قول الله تعالىٰ:** ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]».

وفي لفظ: «**نزلت في عذاب القبر، يقال له: مَن ربُّك؟ فيقول: ربِّي الله، ونبيِّي محمد، فذلك قول الله:** ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾»[(٤)].

---

(١) البخاري (١٣٧٥) ومسلم (٢٨٦٩).
(٢) البخاري (٦٣٦٦) ومسلم (٥٨٦).

(٣) السياق موهمٌ أن القائل هنا ابن القيم، ولكن الكلام الآتي لشيخ الإسلام.

(٤) أخرجه البخاري (٤٦٩٩)، ومسلم (٢٨٧١)، وأبو داود (٤٧٥٠)، والترمذي (٣١٢٠)، والنسائي (٢٠٥٧)، وابن ماجه (٤٢٦٩).

وهذا الحديث قد رواه أهل السنن والمسانيد مطوَّلاً كما تقدّم.

وقد صرح في هذا الحديث بإعادة الروح إلىٰ البدن، وباختلاف أضلاعه، وهذا بيِّنٌ في أنّ العذاب علىٰ الروح والبدن مجتمعين.

وفي الصحيحين(١) من حديث قتادة، عن أنس أنَّ النبي ﷺ قال: «**إنَّ الميت إذا وُضِع في قبره، وتولَّىٰ عنه أصحابُه - إنّه ليَسمع خفقَ نعالهم - أتاه ملكان فيقرِّرانِه، فيقولان له: ما كنتَ تقول في هذا الرجل محمد؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله**»، قال: «**فيقول: انظر إلىٰ مقعدك من النار، قد أَبْدَلَك الله به مقعدًا من الجنة**». قال رسول الله ﷺ: «**فيراهما جميعًا**».

قال قتادة: وذُكِر لنا أنَّه يُفسَح له في قبره سبعون ذراعًا، ويُملأ عليه خَضِرًا إلىٰ يوم يبعثون، ثم رجع إلىٰ حديث أنس، قال: «**فأمّا الكافرُ والمنافق فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقولان: لا دريْتَ ولا تَلَيْتَ! ثم يُضرَب بمطراقٍ من حديد بين أذنيه، فيصيح صيحةً، فيسمعُها مَن عليها غيرَ الثقَلَين**»(٢).

ومعلوم أنَّ هذا كلَّه للجسد بواسطة الروح.

---

(١) البخاري (١٣٧٤) ومسلم (٢٨٧٠).

(٢) هنا انتهىٰ ما نقله المصنف من كلام شيخه. انظر: مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٢٩٥).

ص: ١٦٥

فصل

إجماع أهل السنة على وجود العذاب في القبر

وهذا كما أنَّه مقتضَىٰ السنّة الصحيحة، فهو متفق عليه بين أهل السنة.

قال المرُّوذي: قال أبو عبد الله: عذابُ القبر حقٌّ لا ينكره إلا ضالٌّ مُضِلّ[١].

وقال حنبل: قلت لأبي عبد الله في عذاب القبر، فقال: هذه أحاديثُ صحاحٌ نؤمن بها، ونُقِرُّ بها. كلُّ ما جاء عن النبي ﷺ إسنادُه جيِّدٌ[٢] أقررنا به، إذا لم نُقِرَّ بما جاء به الرسول، ودفَعناه، وردَدْناه= رددنا علىٰ الله أمرَه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]. قلت له: وعذابُ القبر حقٌّ؟ قال: حقٌّ، يعذَّبون في القبور.

قال[٣]: وسمعت أبا عبد الله يقول: نؤمن بعذاب القبر وبمنكر ونكير، وأنَّ العبد يُسأل في قبره فـ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ﴾ في القبر.

وقال أحمد بن القاسم[٤]: قلتُ: يا أبا عبد الله، تُقِرُّ بمنكر ونكير، وما يروَىٰ في عذاب القبر؟ فقال: سبحان الله! نعم، نُقِرُّ بذلك، ونقوله، قلت: هذه اللفظة نقول: «منكَر ونكير» هكذا، أو نقول ملكين؟ قال: منكر ونكير، قلت: يقولون ليس في حديثٍ منكر ونكير، قال: هو هكذا، يعني: أنهما منكر ونكير.

---

(١) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلىٰ (١/ ١٤٩).

(٢) نقله المنبجي في تسلية أهل المصائب (٢٨٥)، والسفاريني في لوامع الأنوار (٢/ ٢٣).

(٣) نقله المنبجي في تسلية أهل المصائب (٢٨٥)، والسفاريني في لوامع الأنوار (٢/ ٢٣).

(٤) ذكره بنحوه ابن أبي يعلىٰ في ترجمته في طبقات الحنابلة (١/ ١٣٥).

فصل

ص: ١٦٩

وقوع العذاب على الميت المستحق له سواء قُبر أو لا

ومما ينبغي أن يُعلم أنَّ عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكلُّ من مات، وهو مستحِقٌّ للعذاب، ناله نصيبه منه، قُبر أو لم يُقبر، فلو أكلته السباع، أو أُحرِق حتى صار رمادًا، أو نُسف في الهواء، أَو صُلِب، أو غَرِق في البحر= وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور.

وفي «صحيح البخاري»[1] عن سَمُرة بن جُنْدُب قال: كان النبي ﷺ إذا صلَّىٰ صلاةً أقبل علينا بوجهه، فقال: «**من رأىٰ منكم الليلة رؤيا؟**» قال: فإن رأىٰ أحدٌ رؤيا قصَّها، فيقول ما شاء الله، فسألنا يومًا، فقال: «**هل رأىٰ أحد منكم رؤيا؟**» قلنا: لا، قال: «**لكنّي رأيتُ الليلةَ رجلين أتياني، فأخذا بيدي، وأخرجاني إلىٰ الأرض المقدَّسة، فإذا رجل جالس، ورجل قائم، بيده كَلُّوبٌ من حديد، يُدخله في شِدْقِه حتىٰ يبلغ قفاه، ثم يفعل بشِدقه الآخرِ مثلَ ذلك، ويلتئم شِدقه هذا، فيعود، فيصنع مثله.**

قلتُ: ما هذا؟ قالا: انطلِقْ.

فانطلقنا حتىٰ أتَيْنا علىٰ رجلٍ مضطجع علىٰ قَفاه، ورجلٌ قائمٌ علىٰ رأسه بصخرة أو فِهْر، فيشدَخ بها رأسَه، فإذا ضربه تدَهْدَهَ الحجر، فانطلقَ إليه ليأخذه، فلا يرجع إلىٰ هذا حتىٰ يلتئم رأسُه، وعاد رأسه كما هو، فعاد إليه، فضربه.

قلتُ: ما هذا؟ قالا: انطلِق.

فانطلقنا إلىٰ نَقْبٍ مثل التنّور، أعلاه ضيِّق، وأسفلُه واسع، يوقَد تحته نارٌ، فإذا

---

(١) برقم (١٣٨٦).

فيه رجالٌ ونساءٌ عراةٌ، فيأتيهم اللهب من تحتهم، فإذا اقترب ارتفعوا حتىٰ كادوا يخرجوا، فإذا خمدت رجعوا.

فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق.

فانطلقنا، حتىٰ أتينا علىٰ نهر من دمٍ، فيه رجل قائم، وعلىٰ وسط النهر رجل بين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذي في النهر، فإذا أراد أن يخرج رمَىٰ الرجلُ بحجرٍ في فيه، فردَّه حيث كان، فجَعل كلَّما جاء ليخرج رمَىٰ في فيه بحجر، فرجع كما كان.

فقلت: ما هذا، قالا: انطلق.

فانطلقنا حتىٰ انتهينا إلىٰ روضة خضراءَ، فيها شجرةٌ عظيمة، وفي أصلها شيخ وصبيان، وإذا رجل قريب من الشجرة، بين يديه نارٌ يوقدها، فصعدا بي الشجرة، وأدخلاني دارًا لم أرَ قط أحسنَ منها، فيها شيوخ وشبَّان، ثم صعدا بي فأدخلاني دارًا هي أحسن وأفضل.

قلت: طَوَّفْتُماني الليلة، فأخبِراني عما رأيتُ، قالا: نعم، الذي رأيتَه يُشَقُّ شِدقُه كذَّاب يحدِّث بالكَذْبة، فتُحمَل عنه حتَّىٰ تبلغ الآفاق؛ فيُصنَع به إلىٰ القيامة، والذي رأيته يُشدَخ رأسُه، فرجلٌ علَّمه الله القرآن، فنام عنه بالليل، ولم يعمل به في النهار؛ يُفعل به إلىٰ يوم القيامة، وأما الذي رأيت في النَّقْب فهم الزناة، والذي رأيتَه في النهر فآكلُ الربا.

وأما الشيخ الذي في أصل الشجرة فإبراهيم، والصبيانُ حوله فأولاد الناس، والذي يوقِد النار فمالكٌ خازُن النار، والدارُ الأولىٰ دار عامَّة المؤمنين، وأما هذه الدار فدار الشهداء، وأنا جبريل، وهذا ميكائيل، فارفع رأسك، فرفعتُ رأسي، فإذا

قصر مثلُ السحابة، قالا: ذاك منزلك، قلت: دَعاني أدخلْ منزلي، قالا: إنه بقي لك عمر لم تستكمله، فلو استكملتَه أتيتَ منزلك».

وهذا نصٌّ في عذاب البرزخ، فإنَّ رؤيا الأنبياء وَحْي مطابق لما في نفس الأمر.

وفي سنن أبي داود[١] من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما عُرِج بي مررتُ بقومٍ، لهم أظفارٌ من نحاس، يخمِشُون وجوههم وصدورهم. فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم**».

---

(١) برقم (٤٨٧٨). وإسناده صحيح، انظر: الصحيحة (٥٣٣).

فصل

ص: ١٨١

وأما المسألة السابعة

وهي قول السائل: ما جوابُنا للملاحدة والزنادقة المنكرين لعذاب القبر وسَعته وضِيقه، وكونِه حفرةً من حُفَر النار أو روضةً من رياض الجنة، وكونِ الميت لا يجلس ولا يقعد فيه؟

قالوا: فإنّا نكشف القبر، فلا نجد فيه ملائكة عُمْيًا صُمًّا يضربون الموتىٰ بمطارق الحديد، ولا نجد هناك حيَّاتٍ ولا ثعابينَ ولا نيرانًا تأجَّجُ. ولو كشفنا حالَه في حالة من الأحوال لوجدناه لم يتغير. ولو وضعنا علىٰ عينيه الزئبقَ، وعلىٰ صدره الخَرْدل، لوجدناه علىٰ حاله، وكيف يُفسَح له مدَّ بصره، أو يُضيَّق عليه، ونحن نجده بحاله، ونجد مساحته علىٰ حدِّ ما حفرناها، لم تزد ولم تنقص؟ وكيف يسَعُ ذلك اللحد الضيِّق له وللملائكة وللصورة التي تؤنسه أو توحشه؟

قال إخوانهم من أهل البدع والضلال: وكلُّ حديث يخالف مقتضىٰ العقول والحسِّ يُقطَعُ بتخطئة ناقليه.

قالوا: ونحن نرىٰ المصلوب علىٰ خشبته مدةً طويلة، لا يسأل ولا يجيب، ولا يتحرّك، ولا يتوقَّد جسمُه نارًا؛ ومن افترسته السباع، ونهشَتْه الطيور، وتفرّقت أجزاؤه في أجواف السباع، وحواصل الطيور، وبطون الحيتان، ومدارج الرياح= كيف تُسأَلُ أجزاؤه مع تفرُّقها؟ وكيف يُتصوَّر مسألةُ الملكين لِمَن هذا وصفُه؟ وكيف يصير القبر علىٰ هذا روضةً من رياض الجنة أو حفرةً من حفر النار؟ وكيف

يضيق عليه حتىٰ تلتئم أضلاعه؟

ونحن نذكر أمورًا يُعلم بها الجواب:

الأمر الأول: أن يُعلَم أنّ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لم يخبروا بما تُحيله العقول، وتقطع باستحالته، **بل أخبارهم قسمان:**

أحدهما: ما تشهد به العقول والفِطَر.

الثاني: ما لا تدركه العقول بمجرَّدها، كالغيوب التي أخبروا بها عن تفاصيل البرزخ واليوم الآخر، وتفاصيل الثواب والعقاب.

ولا يكون خبرهم مُحالًا في العقول أصلًا، وكلُّ خبر يُظَنُّ أنَّ العقل يُحيله، فلا يخلو من أحد أمرين: إما أن يكون الخبر كذبًا عليهم، أو يكون ذلك العقلُ فاسدًا.

وهو شبهة خيالية يظنُّ صاحبُها أنَّها معقول صريح، قال تعالىٰ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦]. وقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩].

فصل

ص: ١٨٣

وجوب فهم كلام الرسول على مراده

الأمر الثاني: أن يُفهَم عن الرسول ﷺ مرادُه من غير غلُوٍّ ولا تقصير، فلا يُحمَّلَ كلامُه ما لا يحتمله، ولا يُقَصَّرَ به عن مراده وما قصَدَه من الهدىٰ والبيان.

وقد حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله، **بل سوءُ الفهم عن الله ورسوله أصلُ كلِّ بدعة وضلالة نشأت في**

الإسلام، بل هو أصلُ كل خطأ في الأصول والفروع.

ولكثرة أمثلة هذه القاعدة تركناها، فإنَّا لو ذكرناها لزادت علىٰ عشرة ألوفٍ؛ حتّىٰ إنّك لتمرُّ علىٰ الكتاب من أوله إلىٰ آخره، فلا تجدُ صاحبَه فَهِمَ عن الله ورسوله مرادَه كما ينبغي في موضع واحد!

وهذا إنما يعرفه من عَرَف ما عند الناس، وعَرَضه علىٰ ما جاء به الرسول، وأما مَن عَكَس الأمرَ بعرض ما جاء به الرسول علىٰ ما اعتقده، وانتحله، وقلَّد فيه مَن أحسَنَ به الظنَّ؛ فليس يُجدي الكلامُ معه شيئًا. فدعه وما اختاره لنفسه، ووَلِّه ما تولَّىٰ، واحمَدِ الذي عافاك مما ابتلاه به.

ص: ١٨٥

أنواع الدُور

فصل

الأمر الثالث: أنّ الله سبحانه جعل الدُّورَ ثلاثةً: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار؛ وجعل لكلِّ دار أحكامًا تختصُّ بها، وركَّب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام دار الدنيا علىٰ الأبدان، والأرواحُ تبعٌ لها، ولهذا جعل أحكامه الشرعيةَ مرتَّبةً علىٰ ما يظهر من حركات اللسان والجوارح، وإن أضمَرت النفوسُ خلافَه، وجعل أحكام البرزخ علىٰ الأرواح، والأبدانُ تبعٌ لها. فكما تبعت الأرواحُ الأبدانَ في أحكام الدنيا، فتألمت بألمها، والتذَّت براحتها، وكانت هي التي باشرت أسباب النعيم والعذاب= تبعت الأبدانُ الأرواحَ في نعيمها وعذابها، والأرواح حينئذ هي التي تباشر العذاب والنعيم.

فالأبدان هنا ظاهرة، والأرواح خفية، والأبدان كالقبور لها، والأرواحُ هناك

ظاهرة، والأبدان خفية في قبورها، تجري أحكام البرزخ علىٰ الأرواح، فتسري إلىٰ أبدانها نعيمًا أو عذابًا، كما تجري أحكام الدنيا علىٰ الأبدان، فتسري إلىٰ أرواحها نعيمًا أو عذابًا.

فأحِطْ بهذا الموضع علمًا، واعرِفْه كما ينبغي، يزيل عنك كلَّ إشكالٍ يُورَد عليك من داخل وخارج.

ص: ١٨٧

فصل

الحكمة في جعل أمور الآخرة غيبية

الأمر الرابع: أنَّ الله سبحانه جعل أمر الآخرة وما كان متصلًا بها غيبًا، وحَجَبها عن إدراك المكلَّفين في هذه الدار، وذلك من كمال حكمته، ولِيتميَّزَ المؤمنون بالغيب من غيرهم.

فأولُ ذلك أنَّ الملائكة تنزل علىٰ المحتضَر، وتجلس قريبًا منه، ويشاهدهم عِيانًا. ويتحدثون عنده، ومعهم الأكفانُ والحَنُوط، إما من الجنة أو من النار؛ ويؤمِّنون علىٰ دعاء الحاضرين بالخير أو الشر. وقد يسلِّمون علىٰ المحتضَر، ويردُّ عليهم تارةً بلفظه، وتارةً بإشارته، وتارةً بقلبه حيث لا يتمكن من نطق ولا إشارة.

وقد سُمِع بعضُ المحتضَرين يقول: أهلًا وسهلًا ومرحبًا بهذه الوجوه!

وأخبرني شيخنا عن بعض المحتضَرين، فلا أدري أشاهدَه أو أُخبر عنه، أنَّه سُمِع، وهو يقول: عليك السلام، هاهنا فاجلس، وعليك السلام، هاهنا فاجلس.

والآثار في ذلك أكثرُ من أن تُحصَر، وأبلغ، ويكفي من ذلك كلِّه قولُ الله ﷻ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا

تُبۡصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٨٥]. أي: أقرب إليه بملائكتنا ورُسُلنا، ولكنكم لا ترونهم، فهذا أول الأمر، وهو غير مرئيّ لنا ولا مشاهَد، وهو في هذه الدار.

ثم يمُدُّ الملَكُ يدَه إلىٰ الروح، فيقبضُها، ويخاطبها، والحاضرون لا يرونه، ولا يسمعونه، ثم تخرج، فيخرج لها نور مثلُ شعاع الشمس، ورائحةٌ أطيب من رائحة المسك، والحاضرون لا يرون ذلك، ولا يشَمُّونه، ثم تصعد بين سِماطَين من الملائكة، والحاضرون لا يرونهم، ثم تأتي الروح فتشاهِد غسلَ البدن وتكفينَه وحملَه، وتقول: قدِّموني، قدِّموني، أو إلىٰ أين تذهبون بي؟ ولا يسمع الناس ذلك.

فصل

ص: ١٩٢

نعيم القبر وعذابه ليس من جنس أشياء الدنيا

الأمر الخامس: أنَّ النار التي في القبر والخُضْرة ليست من نار الدنيا ولا من زرع الدنيا، فيشاهدَه مَن شاهد نار الدنيا وخُضرَتها، وإنما هي من نار الآخرة وخضرتها، وهي أشدُّ من نار الدنيا، ولا يحسُّ به أهل الدنيا، فإن الله سبحانه يُحْمي عليه ذلك الترابَ والحجارة التي عليه وتحته حتىٰ يكون أعظمَ حرًّا من جمر الدنيا. ولو مسَّها أهل الدنيا لم يحسُّوا بذلك.

بل أعجبُ من هذا أنَّ الرجلين يُدفنان، أحدُهما إلىٰ جنب الآخر، وهذا في حفرة من حُفَر النار، لا يصل حرُّها إلىٰ جاره، وذلك في روضة من رياض الجنة، لا يصل رَوْحُها ونعيمُها إلىٰ جاره.

وقدرة الربِّ تعالىٰ أوسع وأعجب من ذلك، وقد أرانا من آيات قدرته في هذه الدار ما هو أعجبُ من ذلك بكثير، ولكنَّ النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تُحِط

به علمًا، إلا من وفَّقه الله وعصمه. فيفرَش للكافر لوحان من نار، يشتعل عليه قبرُه بهما كما يشتعل التنور، فإذا شاء الله سبحانه أن يُطلِع علىٰ ذلك بعضَ عَبيده أطلعه، وغيَّبه عن غيره؛ إذ لو اطَّلع عليه العباد كلُّهم لزالت حكمةُ التكليف والإيمان بالغيب، ولما تدافَنَ الناس، كما في الصحيح[1] عنه ﷺ: «**لولا أن تدافنوا لدعوتُ الله أن يُسمِعَكم من عذاب القبر ما أسمع**».

ولما كانت هذه الحكمة منفيَّةً في حقّ البهائم سمعت ذلك وأدركته، كما حادت برسول الله ﷺ بغلتُه، وكادت تُلقِيه لمّا مرَّ بمن يُعذب في قبره[2].

وحدَّثني صاحبنا أبو عبد الله محمد بن الرُّزَيز الحَرَّانيُّ أنه خرج من داره بعد العصر بآمِدَ إلىٰ بستانٍ، قال: فلمّا كان قبل غروب الشمس توسطتُ القبورَ، فإذا بقبر منها، وهو جمرةُ نار مثلُ كُور الزجَّاج، والميتُ في وسطه، فجعلتُ أمسح عينيَّ، وأقول: أنائم أنا أم يقظانُ؟ قال: ثم التفتُّ إلىٰ سور المدينة، وقلت: والله ما أنا بنائم، ثم ذهبت إلىٰ أهلي، وأنا مدهوشٌ، فأتَوْني بطعام، فلم أستطع أن آكلُ، ثم دخلت البلد، فسألت عن صاحب القبر، فإذا به مَكَّاسٌ قد توفِّي ذلك اليوم.

فرؤيةُ هذه النار في القبر كرؤية الملائكة والجنِّ تقع أحيانًا لمن شاء الله أن يُريه ذلك.

وقد ذكر ابن أبي الدنيا في «كتاب القبور»[3] أنَّ رجلاً سأل أبا إسحاق الفزاريَّ عن النَّباش: هل له توبة؟ فقال: نعَم إن صحَّت نيته، وعلم الله منه الصدقَ، فقال له الرجل: كنت أنبُش القبور، وكنت أجد قومًا وجوهُهم لغير القِبلة، فلم يكن عند

---

(١) مسلم (٢٨٦٧).
(٢) جزء من الحديث السابق.
(٣) برقم (٩٩).

الفزاريِّ في ذلك شيء، فكتب إلىٰ الأوزاعي يخبره بذلك، فكتب إليه الأوزاعي: تُقبَل توبتُه إذا صحَّت نيته، وعلم الله الصدق من قلبه، وأما قوله: إنَّه كان يجد قومًا وجوههم لغير القبلة، فأولئك قوم ماتوا علىٰ غير السنّة.

وقال ابن أبي الدنيا(١): حدثني محمد بن الحسين، قال: حدَّثني أبو إسحاق صاحب الشاء، قال: دُعيت إلىٰ ميت لأغسِّله، فلما كشفت الثوب عن وجهه إذا بحيَّة قد تطوَّقتْ علىٰ حلقه، فذكر من غِلَظها، قال: فخرجت ولم أغسله، فذكروا أنه كان يسبُّ الصحابة رضي الله عنهم.

وهذه الأخبار وأضعافُها وأضعاف أضعافِها - مما لا يتَّسع لها الكتاب - مما أراه الله سبحانه لبعض عباده من عذاب القبر ونعيمه عِيَانًا.

وأما رؤية المنامِ، فلو ذكرناها لجاءت عدّة أسفار، ومن أراد الوقوفَ عليها، فعليه بكتاب «المنامات» لابن أبي الدنيا، وكتاب «البستان» للقيرواني، وغيرِهما من الكتب المتضمِّنة لذلك، وليس عند الملاحدة والزنادقة إلا التكذيبُ بما لم يحيطوا بعلمه.

---

(١) في كتاب القبور (١٢٩).

ص: ٢٠٦

فصل

من عجائب فعل الله تعالى في الدنيا

الأمر السادس: أنّ الله سبحانه يُحْدِث في هذه الدار ما هو أعجبُ من ذلك. فهذا جبريلُ كان ينزل على النبي ﷺ، ويتمثَّلُ له رجلًا، فيكلِّمه بكلام يسمعه، ومَن إلى جانب النبي ﷺ لا يراه، ولا يسمعُه، وكذلك غيره من الأنبياء، وأحيانًا يأتيه الوحي في مثل صَلصلَة الجرس، ولا يسمعه غيره من الحاضرين.

وهؤلاء الجنُّ يتحدَّثون ويتكلَّمون بالأصوات المرتفعة بيننا، ونحن لا نسمعهم، وقد كانت الملائكة تضرب الكفَّارَ بالسياط، وتضربُ رقابهم، وتصيح بهم؛ والمسلمون معهم لا يرونهم، ولا يسمعون كلامهم، والله سبحانه قد حجب بني آدم عن كثير مما يُحْدِثه في الأرض، وهو بينهم، وقد كان جبريل يقرئ النبي ﷺ، ويدارسُه القرآن، والحاضرون لا يسمعونه.

وكيف يستنكر من يعرف الله سبحانه ويُقِرُّ بقدرته، أن يُحدِثَ حوادثَ يَصرِفُ عنها أبصارَ بعض خلقه، حكمةً منه ورحمةً بهم؛ لأنّهم لا يطيقون رؤيتها وسماعَها؟ والعبد أضعفُ بصرًا وسمعًا من أن يثبُتَ لمشاهدة عذاب القبر.

وسرُّ المسألة: أنَّ هذه التوسعةَ والضيق والإضاءة والخضرة والنار ليس من جنس المعهود في هذا العالم، والله سبحانه إنما أشهدَ بني آدم في هذه الدار ما كان فيها ومنها، فأما ما كان من أمر الآخرة، فقد أَسْبَلَ عليه الغطاءَ ليكون الإقرارُ به والإيمانُ سببًا لسعادتهم، فإذا كُشِفَ عنهم الغطاءُ صار عيانًا مشاهدًا.

فصل

ص: ٢٠٩

لا يمتنع رد الروح إلى الميت

الأمر السابع: أنه غير ممتنعٍ أن تُردَّ الروح إلىٰ المصلوب والغريق والمحترق ونحن لا نشعر بها؛ إذ ذلك الردُّ نوعٌ آخرُ غير المعهود، فهذا المغمَىٰ عليه والمسكوتُ[(١)] والمبهوتُ أحياء، وأرواحُهم معهم، ولا نشعر بحياتهم، ومن تفرقت أجزاؤه لا يمتنع علىٰ من هو علىٰ كل شيء قدير أن يجعل للروح اتصالًا بتلك الأجزاء، علىٰ تباعُدِ ما بينهما وقربه، ويكون في تلك الأجزاء شعورٌ بنوع من الألم واللذَّة.

وإذا كان الله ﷻ قد جعل في الجمادات شعورًا وإدراكًا تُسبِّح ربَّها به، وتسقط الحجارةُ من خَشيته، وتسجد له الجبال والشجر، وتسبِّحه الحصَىٰ والمياهُ والنبات.

فإذا كانت هذه الأجسام فيها الإحساس والشعور، فالأجسام التي كانت فيها الروح والحياة أولىٰ بذلك.

فصل

ص: ٢١٣

عذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ ونعيمه

الأمر الثامن: أنه ينبغي أن يُعلَم أنَّ عذاب القبر ونعيمَه اسمٌ لعذاب البرزخ ونعيمه، وهو ما بين الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]. وهذا البرزخ يُشرف أهله فيه علىٰ الدنيا والآخرة.

وسمِّي عذابَ القبر ونعيمَه وأنه روضة أو حفرةُ نار باعتبار غالب الخلق، فالمصلوبُ والحريق والغريق وأكيل السِّباع والطيور، له من عذاب البرزخ ونعيمه

---

(١) يعني من أصابته السكتة.

قِسْطُه الذي تقتضيه أعماله، وإن تنوعت أسباب النعيم والعذاب وكيفياتهما.

وقد ظنَّ بعضُ الأوائل أنّه إذا حُرِق جسده بالنار، وصار رمادًا، وذُرِي بعضه في البحر وبعضه في البرِّ في يوم شديد الريح= أنه ينجو من ذلك، فأوصىٰ بنيه أن يفعلوا به ذلك، فأمر الله البحرَ فجمع ما فيه، وأمر البرَّ فجمع ما فيه، ثم قال: قم، فإذا هو قائم بين يدي الله فسأله: ما حملك علىٰ ما فعلت؟ فقال: خَشْيتُك يا ربِّ، وأنت أعلم. فما تلافاه أن رحمه[١].

فصل

ص: ٢١٥

الموت معاد وبعث أول

الأمر التاسع: أن الموت معادٌ وبعث أوَّل، فإنَّ الله سبحانه جعل لابن آدم معادَين وبعثَين، يجزي فيهما الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنىٰ.

فالبعث الأول: مفارقةُ الروح للبدن، ومصيرها إلىٰ دار الجزاء الأول.

والبعث الثاني: يومَ يردُّ الله الأرواح إلىٰ أجسادها، ويبعثُها من قبورها إلىٰ الجنة أو إلىٰ النار، وهو الحشر الثاني، ولهذا في الحديث الصحيح: «**وتؤمن بالبعث الآخر**»[٢]، فإنَّ البعث الأول لا ينكره أحد، وإن أنكر كثير من الناس الجزاء فيه والنعيم والعذاب.

---

(١) يشير إلىٰ ما أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٨، ٣٤٨١)، ومسلم في التوبة باب سعة رحمة الله (٢٧٥٦، ٢٧٥٧) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (٩).

وقد ذكر الله سبحانه هاتين القيامتين - وهما الصغرى والكبرى - في سورة المؤمنين، وسورة الواقعة، وسورة القيامة، وسورة المطففين، وسورة الفجر، وغيرها من السور. وقد اقتضى عدلُه وحكمتُه أن جعلهما داري جزاءٍ للمحسن والمسيء، ولكنَّ توفية الجزاء إنما يكون يومَ المعاد الثاني في دار القرار، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وعذابُ البرزخِ ونعيمُه أولُ عذاب الآخرة ونعيمها، وهو مشتقٌّ منه، وواصِلٌ إلىٰ أهل البرزخ من هناك، كما دلَّ عليه القرآن والسنة الصريحةُ في غير موضع دلالةً صريحةً، كقوله: «**فيفتح له باب إلىٰ الجنة، فيأتيه من رَوْحها ونعيمها**»، وفي الفاجر: «**فيفتح له باب إلىٰ النار، فيأتيه من حرِّها وسمومها**»[1]، ومعلوم قطعًا أنَّ البدن يأخذ حظَّه من هذا الباب كما تأخذ الروح حظَّها، فإذا كان يومُ القيامة دخَلَ من ذلك الباب إلىٰ مقعده الذي هو داخلُه.



(١) سبق تخريجه (ص: ٣٦).

ص: ٢١٨

فصل

وأما المسألة الثامنة

وهي قول السائل: ما الحكمةُ في كون عذاب القبر لم يذكر في القرآن، مع شدة الحاجة إلى معرفته والإيمان به ليُحذَر ويُتَّقى؟

فالجواب من وجهين: مجمل، ومفصل.

فأما المجمل، فهو أنَّ الله سبحانه أنزل على رسوله وَحْيَين، وأوجب على عباده الإيمان بهما والعمل بما فيهما، وهما الكتابُ والحكمةُ؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

والكتاب هو القرآن، والحكمة هي السنة، باتفاق السلف، وما أخبر به الرسول عن الله، فهو في وجوب تصديقه والإيمان به كما أَخبرَ به الربُّ تعالى على لسان رسوله، هذا أصلٌ متفق عليه بين أهل الإسلام، لا ينكره إلا من ليس منهم، وقد قال النبي ﷺ: «**إني أوتيتُ الكتابَ ومثلَه معه**»[1].

وأما الجواب المفصل، فهو أنَّ نعيم البرزخ وعذابَه مذكور في القرآن في غير موضع، فمنها: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٤)، والإمام أحمد (١٧١٤٧). وإسناده صحيح. وانظر: الصحيحة (٢٨٧٠).

وهذا خطاب لهم عند الموت قطعًا، وقد أخبرت الملائكة - وهم الصادقون - أنَّهم حينئذٍ يُجزون عذاب الهون، ولو تأخَّر عنهم ذلك إلىٰ انقضاء الدنيا لما صحَّ أن يقال لهم: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ﴾.

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥- ٤٦]. فذَكَر عذابَ الدَّارَين ذكرًا صريحًا لا يحتمل غيره.

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]. وقد احتجَّ بهذه الآية جماعة - منهم عبد الله بن عباس - علىٰ عذاب القبر، وفي الاحتجاج بها شيءٌ؛ لأنَّ هذا عذابٌ في الدنيا يُستدعىٰ به رجوعُهم عن الكفر، ولم يكن هذا مما يخفَىٰ علىٰ حبر الأمة وترجمان القرآن، لكن من فِقْهه في القرآن ودِقَّة فهمه فيه، فَهِم منها عذابَ القبر؛ فإنَّه سبحانه أخبر أنَّ له فيهم عذابين: أدنىٰ وأكبر، فأخبر أنه يذيقُهم بعض الأدنىٰ ليرجعوا، فدلَّ علىٰ أنه بقي لهم من الأدنىٰ بقيةٌ يعذَّبون بها بعد عذاب الدنيا، ولهذا قال: ﴿مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾، ولم يقل: ولنذيقنَّهم العذاب الأدنىٰ فتأمَّلْه.

وهذا نظير قول النبي ﷺ: «**فيفتح له طاقةٌ إلىٰ النار، فيأتيه من حرِّها وسَمومها**». ولم يقل: فيأتيه حرُّها وسمومها، فإنَّ الذي وصل إليه بعض ذلك، وبقي له أكثر. والذي ذاقه أعداء الله في الدنيا بعضُ العذاب الأدنىٰ، وبقي لهم ما هو أعظم منه.

وأنت إذا تأمَّلت أحاديث عذاب القبر ونعيمه وجدتها تفصيلًا وتفسيرًا لما دلَّ عليه القرآن، وبالله التوفيق.

فصل
وأما المسألة التاسعة

ص: ٢٢٣

وهي قول السائل: ما الأسباب التي يعذَّب بها أصحاب القبور؟

فجوابها من وجهين: مجمل ومفصَّل.

أما المجمل: فإنهم يعذَّبون علىٰ جهلهم بالله، وإضاعتهم لأمره، وارتكابهم لمعاصيه، فلا يعذِّب الله روحًا عرفته، وأحبَّته، وامتثلت أمرَه، واجتنبت نهيَهُ؛ ولا بدَنًا كانت فيه أبدًا، فإنّ عذاب القبر وعذاب الآخرة أثرُ غضب الله وسُخْطِه علىٰ عبده، فمَن أغضب الله وأسخطَه في هذه الدار، ثم لم يتب، ومات علىٰ ذلك، كان له من عذاب البرزخ بقدر غضبِ الله وسخطِهِ عليه؛ فمستقِلٌّ ومستكثِر، ومصدِّقٌ ومكذِّب.

وأما الجواب المفصَّل، فقد أخبرَ رسول الله ﷺ عن الرجلين الذين رآهما يعذَّبان في قبورهما، يمشي أحدهما بالنميمة بين الناس، ويترك الآخرُ الاستبراءَ من البول[١]، فهذا ترَكَ الطهارة الواجبة، وذلك ارتكب السببَ المُوقِعَ للعداوة بين الناس بلسانه، وإن كان صادقًا، وفي هذا تنبيه علىٰ أنَّ المُوقِعَ بينهم العداوةَ بالكذب والزُّور والبهتان أعظمُ عذابًا، كما أنَّ في ترك الاستبراء من البول تنبيهًا علىٰ أنَّ مَن تَرَكَ الصلاة التي الاستبراءُ من البول بعضُ واجباتها وشروطها، فهو أشدُّ عذابًا.

وقد تقدَّم[٢] حديث سَمُرة في صحيح البخاري في تعذيب من يكذب الكذبة،

---

(١) سبق تخريجه (ص: ٤٤). (٢) (ص: ٤٨).

فتبلغ الآفاق؛ وتعذيب من يقرأ القرآن، ثم ينام عنه بالليل، ولا يعمل به بالنهار؛ وتعذيب الزُّناةِ والزواني، وتعذيب آكل الربا، كما شاهدهم النبي ﷺ في البرزخ.

وقد أخبر النبي ﷺ عن صاحب الشَّملة التي غلَّها من المغنم أنها تشتعل عليه نارًا في قبره(١). هذا، وله فيها حقٌّ، فكيف بمن ظلم غيرَه بما لا حقَّ له فيه!

فعذابُ القبر من معاصي القلب والعين والأذن والفم واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، والبدنِ كلِّه.

فالكذَّابُ، والنمَّام، والمغتاب، وشاهد الزور، وقاذف المحصَن، والمُوضِع في الفتنة، والداعي إلىٰ البدعة، والقائل علىٰ الله ورسوله ما لا علمَ له به، والمجازف في كلامه.

وآكلُ الربا، وآكل أموال اليتامىٰ، وآكل السُّحت من الرشوة والبِرْطِيل(٢) ونحوهما، وآكل مالِ أخيه المسلم بغير حقٍّ أو مال المعاهَد، وشارب المسكِر، وآكل لقمة الشجرة الملعونة، والزاني، واللوطي، والسارق، والخائن،

ونوَّاحو جهنَّم - وهم المغنُّون الغناءَ الذي حرَّمه الله ورسولُه - والمستمعُ إليهم، والذين يبنون المساجد علىٰ القبور، ويُوقدون عليها القناديل والسرج؛ والمطفِّفون في استيفاء ما لهم إذا أخذوه، وهَضْمِ ما عليهم إذا بذلوه، والجبَّارون، والمتكبِّرون، والمراؤون والهمّازون، واللمّازون، والذي يؤخِّر الصلاة إلىٰ آخر وقتها، وينقُرُها، ولا يذكر الله فيها إلا قليلًا، ولا يؤدِّي زكاةَ ماله طيِّبةً بها نفسُه، ولا يحجُّ مع قدرته علىٰ الحجِّ، ولا يؤدِّي ما عليه من الحقوق مع قدرته عليها، ولا

---

(١) سيأتي نصه في (ص: ٩٩).

(٢) البِرطيل: الرشوة.

يتورَّع من لَحْظةٍ ولا لفظةٍ ولا أَكلةٍ ولا خَطوةٍ، ولا يبالي بما حصّل المال من حلال أو حرام، ولا يصلُ رَحِمه.

= فكلُّ هؤلاء وأمثالُهم يعذَّبون في قبورهم بهذه الجرائم بحسَبِ كثرتها وقلّتها، وصِغَرها وكِبَرها.

ولما كان أكثر الناس كذلك كان أكثر أصحاب القبور معذَّبين، والفائزُ منهم قليل. فظواهر القبور تراب، وبواطنها حسرات وعذاب.



فصل

وأمَّا المسألة العاشرة

ص: ٢٣١

وهي قوله: ما هي الأسباب المنجية من عذاب القبر؟

فجوابها أيضًا من وجهين: مجمل، ومفصّل.

أمَّا المجمل، فهو تجنُّب تلك الأسباب التي تقتضي عذاب القبر، ومن أنفعها: **أن يجلس الإنسان عندما يريدُ النومَ لله ساعةً، يحاسبُ نفسه فيها على ما خسره وربحه في يومه، ثم يجدِّد له توبةً نصوحًا بينه وبين الله، فينام على تلك التوبة، ويعزِم على أن لا يعاودَ الذنب إذا استيقظ، ويفعل هذا كلَّ ليلة، فإن مات من ليلته مات على توبة، وإن استيقظ استيقظ مستقبِلًا للعمل، مسرورًا بتأخير أجله حتى يستقبل ربَّه، ويستدركَ ما فاته.**

وليس للعبد أنفعُ من هذه التوبة ولاسيَّما إذا عقَّب ذلك بذكر الله واستعمال السُّنن التي وردت عن رسول الله ﷺ عند النوم، حتى يغلبَه النوم، فَمَن أراد الله به خيرًا وفَّقه لذلك، ولا قوة إلا بالله.

وأما الجواب المفصَّل، فنذكر أحاديث عن رسول الله ﷺ فيما يُنجِي من عذاب القبر.

فمنها: ما رواه مسلم في صحيحه[1] عن سلمان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**رِباطُ يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صيام شهر وقيامه. وإن مات أُجري عليه عملُه الذي**

---

(١) برقم (١٩١٣).

كان يعمله، وأجري عليه رزقُه، وأمِنَ الفتّانَ».

وفي جامع الترمذي[1] من حديث فَضالة بن عبيد عن رسول الله ﷺ قال: «**كلُّ ميِّت يُختَم علىٰ عمله إلا الذي مات مرابطًا في سبيل الله، فإنه يُنمَىٰ له عملُه إلىٰ يوم القيامة، ويأمنُ من فتنة القبر**». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وفي سنن النسائي[2] عن راشد بن سعد، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله ما بالُ المؤمنين يُفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: «**كفىٰ ببارقة السيوف علىٰ رأسه فتنةً**».

وعن ابن عباس قال: ضرَبَ رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ خِباءَه علىٰ قبر، وهو لا يحسَبُ أنه قبرٌ؛ فإذا إنسان يقرأ سورة الملك حتىٰ ختمها، فأتىٰ النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، ضربتُ خبائي علىٰ قبر، وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتىٰ ختمها. فقال النبي ﷺ: «**هي المانعة، هي المنجيةُ، تُنجِيه من عذاب القبر**»[3]. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وفي «سنن النسائي»[4] عن جامع بن شداد قال: سمعت عبد الله بن يسار يقول: كنت جالسًا مع سليمان بن صُرَد وخالد بن عُرْفُطة، فذكروا أنَّ رجلًا مات ببطنه، فإذا هما يشتهيان أن يكونا شَهِدا جنازته، فقال أحدهما للآخر: ألم يقل رسول الله ﷺ: «**من يقتله بطنه لم يعذَّب في قبره**»؟

---

(١) برقم (١٦٢١)، وأخرجه أبو داود (٢٥٠٠)، وصححه ابن حبان (٤٦٢٤).

(٢) برقم (٢٠٥٣)، وصححه الألباني في أحكام الجنائز (ص٥٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٩٠) وإسناده ضعيف.

(٤) برقم (٢٠٥٢)، وأخرجه الترمذي (١٠٦٤)، وصححه ابن حبان (٢٩٣٣).

ص: ٢٥٢

فصل

وأمّا المسألة الحادية عشرة

وهي أن السؤال في القبر هل هو عامٌّ في حقِّ المسلمين والمنافقين والكفار، أو يختصُّ بالمسلم والمنافق؟

فقال أبو عمر بن عبد البرّ في كتاب «التمهيد»: والآثارُ الدالَّة علىٰ أنَّ الفتنة في القبر لا تكون إلا لمؤمنٍ أو منافق ممَّن كان منسوبًا إلىٰ أهل القبلةِ ودين الإسلام بظاهر الشهادة، وأمّا الكافر الجاحد المبطل، فليس ممّن يُسأل عن ربِّه ودينه ونبيِّه، وإنما يُسأل عن هذا أهل الإسلام، فيُثبِّتُ الله الذين آمنوا، ويرتابُ المبطلون.

والقرآن والسنَّة تدلُّ علىٰ خلاف هذا القول، وأنَّ السؤالَ للكافر والمسلم، قال تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقد ثبت في الصحيح[1] أنها نزلت في عذاب القبر حين يُسأل: من ربُّك، وما دينُك.

وفي «الصحيحين»[2]: عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن العبدَ إذا وُضِع في قبره وتولَّىٰ عنه أصحابُه إنه ليسمع قَرْعَ نعالهم**» وذكر الحديث، زاد البخاري: «**وأما المنافقُ والكافر فيقال له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنتُ أقول ما يقول الناسُ، فيقال: لا دَريتَ ولا تَليت، ويُضرب بمطرقةٍ من حديد، يصيحُ صيحةً يسمعها من يليه إلا الثقلين**».

---

(١) سبق تخريجه (ص: ٤٥).

(٢) سبق تخريجه (ص: ١٢).

هكذا في البخاري: «**وأما المنافق والكافر**» بالواو[١].

وفي حديث البراء بن عازب الطويل[٢]: «**وأما الكافر إذا كان في قُبل من الآخرة وانقطاعٍ من الدنيا نزل عليه ملائكة من السماء معهم مُسوح**»، وذكر الحديث إلىٰ أن قال: «**ثم تعاد روحُه في جسده في قبره**»، وذكر الحديث.

وبالجملة فعامَّةُ من روىٰ حديثَ البراء بن عازب قال فيه: «**وأما الكافر**» بالجزم، وبعضهم قال: «**وأما الفاجر**»، وبعضهم قال: «**وأما المنافق أو المرتاب**»[٣]، وهذه اللفظة من شكِّ بعض الرواة هكذا في الحديث: لا أدري أيّ ذلك قال. وأما مَن ذكر الكافر والفاجرَ فلم يشكَّ، وروايةُ من لم يشكّ مع كثرتهم أولىٰ من رواية من شكَّ مع انفراده؛ علىٰ أنه لا تناقضَ بين الروايتين، فإنّ المنافق يُسأل كما يُسأل الكافرُ والمؤمن، فَيُثبِّتُ الله الذين آمنوا بالإيمان، ويُضِلُّ الله الظالمين، وهم الكفار والمنافقون.

وقولُ أبي عمر ﵀: «وأما الكافر الجاحد المبطِل، فليس ممن يُسأل عن ربه ودينه»، فيقال له: ليس كذلك، بل هو من جملةِ المسؤولين، وأولىٰ بالسؤال من غيره، وقد أخبر الله تعالىٰ في كتابه أنه يَسأل الكفارَ يومَ القيامة قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، فإذا سئلوا يومَ القيامة، فكيف لا يُسألون في قبورهم؟ فليس لما ذكَره أبو عمر ﵀ وجه.

---

(١) برقم (١٣٧٤).
(٢) سبق تخريجه (ص: ٣٧).
(٣) أخرجه البخاري (٨٦) ومسلم (٩٠٥).

فصل

وأما المسألة الثانية عشرة

ص: ٢٦١

وهي أنَّ سؤالَ منكرٍ ونكيرٍ هل هو مختصٌّ بهذه الأمة، أو يكون لها ولغيرها؟

فهذا موضعٌ قد تكلَّم فيه الناس، فقال أبو عبد الله الترمذي[1]: إنما سؤال الميت في هذه الأمة خاصّةً؛ لأنّ الأمم قبلنا كانت الرسل تأتيهم بالرسالة، فإذا أبوا كفَّت الرسل، واعتزلوهم، وعوجلوا بالعذاب، فلما بَعث الله محمدًا ﷺ بالرحمة أمانًا للخلق كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أمسك عنهم العذابَ، وأعطىٰ السيفَ، حتىٰ يدخل في دين الإسلام مَن دخل لمهابة السيف، ثم يرسخ الإيمان في قلبه، فأُمهِلوا. فمِن هاهنا ظهر أمرُ النِّفاق، فكانوا يُسِرُّون الكفر، ويُعلِنون الإيمان، فكانوا بين المسلمين في سِتْر، فلما ماتوا قيَّض الله لهم فتَّانَي القبر ليستخرج سرّهم بالسؤال، و﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]، فـ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وخالف في ذلك آخرون، منهم عبدُ الحق الإشبيليُّ والقرطبيُّ، وقالوا: السؤال لهذه الأمة ولغيرها[2].

---

(١) نوادر الأصول - المسندة (١٠٢٠).

(٢) انظر: كتاب العاقبة لعبد الحق (٢٤٦)، والتذكرة للقرطبي (٤١٥).

وتوقَّف في ذلك آخرون، منهم أبو عمر بن عبد البر، فقال: وفي حديث زيد[١] ابن ثابت عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن هذه الأمة تُبتلىٰ في قبورها**»، ومنهم من يرويه: «**تُسأل**»، وعلىٰ هذا اللفظ يحتمل أن تكون هذه الأمة خُصَّت بذلك، فهذا أمر لا يُقطَع عليه[٢].

وقد احتجَّ مَن خصَّه بهذه الأمة بقوله ﷺ: «**إنَّ هذه الأمة تُبتلىٰ في قبورها**»، وبقوله: «**أوحي إليَّ أنَّكم تُفتَنون في قبوركم**»[٣]، وهذا ظاهر في الاختصاص بهذه الأمة، قالوا: ويَدلُّ عليه قول الملَكين له: ما كنتَ تقول في هذا الرجل الذي بُعثَ فيكم؟ فيقول المؤمن: أشهد أنه عبد الله ورسوله[٤]، فهذا خاصٌّ بالنبي ﷺ، وقوله في الحديث الآخر: «**إنّكم بي تُـمتَحنون، وعنّي تُسألون**»[٥].

وقال الآخرون: لا يدلُّ هذا علىٰ اختصاص السؤال بهذه الأمة دون سائر الأمم، فإنّ قوله: «**إنّ هذه الأمة**» إما أن يراد به أمّة الناس، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] وكلُّ جنس من أجناس الحيوان يُسمَّىٰ أمّةً.

وإن كان المراد به أمته ﷺ الذين بُعِث فيهم، لم يكن فيه ما ينفي سؤالَ غيرهم من الأمم؛ بل قد يكون ذكرُهم إخبارًا بأنهم مسؤولون في قبورهم، وأنَّ ذلك لا يختصُّ بمن قَبْلَهم لفضل هذه الأمة وشرفها علىٰ سائر الأمم.

وكذلك قوله ﷺ: «**أوحي إلي أنّكم تُفتنون في قبوركم**»، وكذلك إخباره عن قول

---

(١) سبق تخريجه (ص: ٤٤). (٢) التمهيد (٢٢/ ٢٥٣).

(٣) أخرجه البخاري (٨٦) ومسلم (٥٠٥). (٤) سبق تخريجه (ص: ٣٧).

(٥) أخرجه الإمام أحمد (٢٥٠٨٩). وصحَّحه المنذري في الترغيب والترهيب (٥١٨٤).

الملكين: «**ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟**» هو إخبارٌ لأمته بما تُمتَحن به في قبورها.

والظاهر - والله أعلم - أنّ كلَّ نبيٍّ مع أمته كذلك، وأنَّهم معذَّبون في قبورهم بعد السؤال لهم، وإقامة الحجّة عليهم، كما يعذَّبون في الآخرة بعد السؤال وإقامة الحجَّة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فصل
وأما المسألة الثالثة عشرة
وهي أنَّ الأطفال هل يمتحنون في قبورهم؟

ص: ٢٦٥

اختلفَ الناس في ذلك على قولين، هما وجهان لأصحاب أحمد.

وحجة من قال إنهم يُسألون: أنه تُشرَع الصلاة عليهم، والدعاء لهم، وسؤالُ الله أن يَقِيَهم عذاب القبر وفتنة القبر؛ كما ذكر مالكٌ في موطَّئه(١) عن أبي هريرة أنه صلَّىٰ علىٰ جنازة صبيٍّ، فسُمِع من دعائه: «اللهم قِهِ عذاب القبر»(٢).

قالوا: وقد دلَّ علىٰ ذلك الأحاديث الكثيرة التي فيها أنهم يُمتحنون في الآخرة، وحكاه الأشعريُّ عن أهل السنّة والحديث(٣)، فإذا امتُحِنوا في الآخرة لم يمتنع امتحانهم في القبور.

قال الآخرون: السؤال إنما يكون لمن عَقَل الرسولَ والمرسِل، فيُسأل: هل آمن بالرسول وأطاعه أم لا؟ فيقال له: ما كنتَ تقول في هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فأما الطفلُ الذي لا تمييزَ له بوجه ما، فكيف يقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل الذي بُعِث فيكم؟ ولو رُدَّ إليه عقله في القبر فإنه لا يُسأل عما لم يتمكَّن من معرفته والعلم به، فلا فائدة في هذا السؤال.

---

(١) برقم (٦١٠).

(٢) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (١/ ٣٧٤) مرفوعًا، والصواب هو الموقوف.

(٣) المقالات للأشعري (٢٩٦)، والإبانة له (١٩٤).

وهذا بخلاف امتحانهم في الآخرة، فإنَّ الله سبحانه يُرسل إليهم رسولاً، ويأمرُهم بطاعة أمره، وعقولُهم معهم، فمن أطاعه منهم نجا، ومن عصاه أدخله النار، فذلك امتحانٌ بأمر يأمرهم به يفعلونه ذلك الوقت، لا أنه سؤال عن أمر مضىٰ لهم في الدنيا من طاعةٍ أو عصيانٍ كسؤال الملكين في القبر.

وأما حديث أبي هريرة فليس المرادُ بعذاب القبر فيه عقوبة الطفل علىٰ ترك طاعة أو فعلِ معصية قطعًا، فإنّ الله لا يعذِّب أحدًا بلا ذنبٍ عَمِله، بل عذاب القبر قد يراد به الألمُ الذي يحصلُ للميت بسبب غيره، وإن لم يكن عقوبةً على عملٍ عَمِله. ومنه قوله ﷺ: «إنّ الميِّت لَيُعَذَّبُ ببكاء أهله عليه»[1]. أي: يتألمُ بذلك ويتوجَّع منه، لا أنه يعاقَبُ بذنب الحيِّ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وهذا كقول النبي ﷺ: «السفر قطعة من العذاب»[2]، فالعذابُ أعمُّ من العقوبة. ولا ريبَ أنَّ في القبر من الآلام والهموم والحسرات ما قد يَسْري أثرُه إلىٰ الطفل فيتألمُ به، فيشرعُ للمصلِّي عليه أن يسأل الله تعالىٰ له أن يَقِيَه ذلك العذاب، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٨٦)، ومسلم (٩٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٠٤)، ومسلم (١٩٢٧).

ص: ٢٦٩

فصل
وأما المسألة الرابعة عشرة
وهي قوله: هل عذاب القبر دائم أو منقطع؟

فجوابها أنه نوعان:

نوع دائم، سوىٰ ما وردَ في بعض الحديث[1] أنه يخفَّف عنهم ما بين النفختين، فإذا قاموا من قبورهم قالوا: ﴿يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۗ﴾ [يس: ٥٢].

ويدلُّ علىٰ دوامه قوله تعالىٰ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ﴾ [غافر: ٤٦].

ويدلُّ عليه ما تقدَّم[2] في حديث سَمُرة الذي رواه البخاري في رؤيا النبي ﷺ وفيه: «**فهو يُفعَل به ذلك إلىٰ يوم القيامة**». وفي حديث ابن عبّاس في قصة الجريدتين: «**لعله يخفَّف عنهما ما لم يَيْبَسا**». فجعل التخفيف مقيَّدًا بمدّة رطوبتهما فقط.

وفي الصحيح[3] في قصة الذي لبس بُردين، وجعل يمشي يتبختر: «**فخَسَف الله به الأرض، فهو يتجَلجَل فيها إلىٰ يوم القيامة**».

وفي حديث البراء بن عازب في قصة الكافر: «**ثمّ يُفتَح له بابٌ إلىٰ النار، فينظر إلىٰ مقعده فيها حتىٰ تقوم الساعة**». رواه الإمام أحمد[4].

---

(١) لم أجد فيه حديثًا مرفوعًا. وانظر: تفسير الطبري (١٩/ ٤٥٦).

(٢) (ص: ٤٤، ٤٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٨٩) ومسلم (٢٠٨٨).

(٤) سبق تخريجه (ص: ٣٨).

النوع الثاني: إلىٰ مدّةٍ، ثم ينقطع، وهو عذابُ بعض العصاة الذين خفَّت جرائمهم، فيعذَّب بحسَب جُرْمه، ثم يخفَّفُ عنه؛ كما يعذَّب في النار مدّةً، ثم يزول عنه العذاب.

وقد ينقطع عنه العذاب بدعاءٍ أو صدقة أو استغفار، أو ثواب حج، أو قراءةٍ تصل إليه من بعض أقاربه أو غيرهم.

قال ابنُ أبي الدنيا: وحدَّثنا أحمد بن يحيىٰ قال: حدثني بعضُ أصحابنا قال: مات أخي، فرأيته في النوم، فقلت: ما كان حالُك حين وُضِعْت في قبرك؟ قال: أتاني آتٍ بشهابٍ من نار، فلولا أنّ داعيًا دعا لي لرأيت أنه سيضربني به.

قال ابنُ أبي الدنيا: وحدَّثني أبو عبد الله بن بُجير قال: حدثني بعض أصحابنا قال: رأيتُ أخًا لي في النوم بعد موته، فقلت: أيصل إليكم دعاء الأحياء؟ قال: إي والله، يترفرف مثلَ النور، ثم نَلبَسه!

وسيأتي - إن شاء الله تعالىٰ - تمامٌ لهذا في جواب السؤال عن انتفاع الأموات بما يُهديه إليهم الأحياء[1].

---

(١) (ص: ١٠٢).

ص: ٢٧٤

فصل
وأمّا المسألة الخامسة عشرة
وهي: أين مستقرُّ الأرواح ما بين الموت إلى القيامة؟ هل هي في السماء أم في الأرض؟ وهل هي في الجنة والنار أم لا؟ وهل تُودَع في أجساد غير أجسادها التي كانت فيها، فتنعَّم وتعذَّب فيها، أم تكون مجرَّدة؟

فهذه مسألة عظيمة تكلَّم فيها الناس، واختلفوا فيها، وهي إنما تُتلقَّىٰ من السمع فقط، واختُلِف في ذلك.

فقال قائلون: أرواح المؤمنين عند الله في الجنة - شهداء كانوا أم غير شهداء - إذا لم يحبسهم عن الجنة كبيرةٌ ولا دَيْن، وتلقَّاهم ربّهم بالعفو عنهم والرحمة لهم، وهذا مذهب أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو.

وقالت طائفة: هم بفناء الجنة علىٰ بابها يأتيهم من رَوْحها ونعيمها ورزقها.

وقال طائفة: الأرواح علىٰ أفنية قبورها.

وقال مالك: بلغني أنَّ الروح مرسَلة تذهب حيث شاءت[(١)].

وقال الإمام أحمد في رواية ابنه عبد الله: أرواح الكفار في النار، وأرواح المؤمنين في الجنة[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذكر الموت، كما في مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٢٩٥).

(٢) انظر: الأهوال لابن رجب (١٠٣).

وقال أبو عبد الله بن منده: وقال طائفة من الصحابة والتابعين: أرواح المؤمنين عند الله ﷻ، ولم يزيدوا علىٰ ذلك.

قال: وروي عن جماعة من الصحابة والتابعين أنّ أرواح المؤمنين بالجابية، وأرواح الكفار ببَرَهُوتَ: بئرٌ بحضرموت(١).

وقال صفوان بن عمرو: سألت عامر بن عبد الله أبا اليمان: هل لأنفس المؤمنين مجتمَع؟ فقال: إنَّ الأرض التي يقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] قال: هي الأرض التي يجتمع إليها أرواح المؤمنين حتىٰ يكون البعث(٢)، وقالوا: هي الأرض التي يُورِثها الله المؤمنين في الدنيا.

وقال كعب: أرواح المؤمنين في علِّيين في السماء السابعة، وأرواح الكفار في سجِّينٍ في الأرض السابعة تحت خَدّ إبليس(٣).

وقالت طائفة: أرواح المؤمنين ببئر زمزم، وأرواح الكفار ببئر بَرَهُوتَ(٤).

وقال سلمان الفارسي: أرواح المؤمنين في برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت، وأرواح الكفار في سجِّين(٥).

وفي لفظ عنه: نَسَمةُ المؤمن تذهب في الأرض حيث شاءت(٦).

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذكر الموت (٥٤٤).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٦/ ٤٣٧).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٢٢٣)، والطبري في التفسير (٢٤/ ١٩٤، ١٩٥).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذكر الموت (٥٤١، ٥٤٢).

(٥) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٢٩)، وابن أبي الدنيا في ذكر الموت (٥٤٣).

(٦) صفة الصفوة (١/ ٥٥٥).

وقالت طائفة: أرواح المؤمنين عن يمين آدم، وأرواح الكفار عن شماله.

وقالت طائفة أخرىٰ منهم ابن حزم: مستقرُّها حيث كانت قبل خلق أجسادها، وهو البرزخ الذي ترجع إليه عند الموت.

وقال أبو عمر بن عبد البرّ: أرواح الشهداء في الجنة، وأرواح عامَّة المؤمنين علىٰ أفنية قبورهم. ونحن نذكر كلامه وما احتجَّ به، ونبيِّن ما فيه.

وقال ابن المبارك، **عن ابن جريج، فيما قرئ عليه عن مجاهد**: ليس هي في الجنة، ولكن يأكلون من ثمارها، ويجدون ريحها(١).

وذكر معاويةُ بن صالح عن سعيد بن سويد أنه سأل ابن شهاب عن أرواح المؤمنين، فقال: بلغني أنَّ أرواح الشهداء كطير خضر معلَّقة بالعرش، تغدو وتروح إلىٰ رياض الجنة، تأتي ربَّها في كلِّ يوم، تسلِّمُ عليه(٢).

وقالت فرقة: مستقرُّها العدمُ المحض، وهذا قول من يقول: إنَّ النفس عرَض من أعراض البدن كحياته وإدراكه، فتُعدَم بموت البدن، كما تُعدَم سائرُ الأعراض المشروطة بحياته. وهذا قولٌ مخالفٌ لنصوص القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين، كما سنذكر ذلك إن شاء الله. والمقصود: أنَّ عند هذه الفرقة المبطِلة مستقَرّ الأرواح بعد الموت العدمُ المحض.

وقالت فرقة: مستقرُّها بعد الموت أبدان أُخَر تُناسب أخلاقها وصفاتها التي اكتسبتها في حال حياتها، فتصيرُ كلُّ روح إلىٰ بدن حيوانٍ يشاكِلُ تلك الأرواحَ. فتصيرُ النفس السَّبُعيّةُ إلىٰ أبدان السباع، والكَلبيةُ إلىٰ أبدان الكلاب، والبهيميةُ إلىٰ

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (١١/ ٦٣). (٢) انظر: الأهوال لابن رجب (٩٣).

أبدان البهائم، والدنيَّة السُّفليَّة إلىٰ أبدان الحشرات. وهذا قول التناسُخيَّة منكري المعاد وهو قول خارج عن أقوال أهل الإسلام كلّهم.

فهذا ما تلخَّص لي من جميع أقوال الناس في مصير أرواحهم بعد الموت، ولا تظفر به مجموعًا في كتاب واحد غير هذا البتَّة، **ونحن نذكر مآخذ هذه الأقوال، وما لكل قول وما عليه، وما هو الصواب من ذلك الذي دلَّ عليه الكتاب والسنَّة، علىٰ طريقتنا التي مَنَّ الله بها، وهو مَرجوٌّ الإعانة والتوفيق.**

فصل

ص: ٢٨٢

دليل من قال بأن مستقر الروح بعد الموت إما الجنة أو النار

فأمَّا من قال: هي في الجنة، فاحتجَّ بقوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩].

قال: وهذا ذكره سبحانه عقيبَ ذكر خروجها من البدن بالموت، وقسَّم الأرواح إلىٰ ثلاثة أقسام: مقرَّبين، وأخبر أنّهم في جنّة نعيم؛ وأصحاب يمين، وحكم لها بالسلام، وهو يتضمَّن سلامتها من العذاب، ومكذِّبةٍ ضالَّةٍ، وأخبر أنَّ لها نُزُلاً من حميم وتصليةَ جحيم.

قالوا: وهذا بعد مفارقتها للبدن قطعًا، وقد ذكر سبحانه حالها يوم القيامة في أول السورة، فذكر حالها بعد الموت، وبعد البعث.

واحتجُّوا بقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠]، وقد قال غيرُ واحد من الصحابة والتابعين: إنَّ هذا يقال لها عند خروجها من الدنيا، يبشِّرها الملَك بذلك،

ولا ينافي ذلك قولَ من قال: إن هذا يقال لها في الآخرة، فإنه يقال لها عند الموت وعند البعث.

وهذه من البشرىٰ التي **قال الله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]. **وهذا التنزُّل يكون عند الموت، ويكون في القبر، ويكون عند البعث، وأول بشارة الآخرة عند الموت.**

وقد تقدَّم في حديث البراء بن عازب[1] أنَّ الملَك يقول لها عند قبضها: أبشري برَوْح ورَيحان. وهذا من ريحان الجنّة.

واحتجُّوا بما رواه مالك في الموطأ[2]، عن ابن شهاب، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، أنّه أخبره أنَّ أباه كعب بن مالك كان يحدِّث أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«إنما نَسَمةُ المؤمن طائرٌ يعلُق في شجر الجنة حتىٰ يَرجِعه الله إلىٰ جسده يوم يبعثه»**.

قال أبو عمر[3]: وأما قوله: «نسمة المؤمن»، فالنسمة هاهنا: الروح، يدلُّ علىٰ ذلك قوله ﷺ في الحديث نفسه: **«حتىٰ يَرْجِعَه الله إلىٰ جسده يوم يبعثه»**.

وإنما قيل للروح: نسمةٌ - والله أعلم - لأن حياة الإنسان بروحه، فإذا فارقته عُدم أو صار كالمعدوم.

وقوله: «**تعلق في شجر الجنَّة**»، يُروىٰ بفتح اللام، وهو الأكثر، ويروىٰ بضمِّ

---

(١) بل في حديث أبي هريرة، وقد أخرجه ابن ماجه (٤٢٦٢)، والإمام أحمد (٨٧٦٩)، وصححه ابن خزيمة في التوحيد (١٧٦: ١٥ - ١٨).

(٢) برقم (٥٦٩).

(٣) التمهيد (١١/ ٥٨).

اللام، والمعنىٰ واحد، وهو: الأكل والرعي، يقول: تأكل من ثمار الجنة، وترعىٰ وتسرحُ بين أشجارها.

قال[1]: واختلف العلماء في معنىٰ هذا الحديث، فقال قائلون منهم: أرواح المؤمنين عند الله في الجنة، شهداءَ كانوا أم غيرَ شهداء، إذ لم يحبِسْهم عن الجنَّة كبيرةٌ ولا دَين، وتلقَّاهم ربُّهم بالعفو عنهم والرحمة لهم.

قال: واحتجّوا بأنَّ هذا الحديث لم يخُصَّ فيه شهيدًا من غير شهيد.

قال أبو عمر: وهذا قول يعارضه من السنّة ما لا مَدْفعَ في صحة نقله، وهو قوله: **«إذا مات أحدُكم عُرِض عليه مقعدُه بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. يقال له: هذا مقعدك، حتىٰ يبعثك الله إليه يوم القيامة»**[2].

وقال آخرون: إنما معنىٰ هذا الحديث في الشهداء دون غيرِهم؛ لأن القرآن والسنةَ إنما يدُلان علىٰ ذلك، أما القرآن فقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

ثم ذكر حديث الأعمش عن عبد الله بن مُرَّة عن مسروق قال: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] فقال: أمَا إنَّا قد سألنا عن ذلك، فقال: **«أرواحُهم في جَوْف طير خُضْر تسرَح في الجنة في أيِّها شاءت، ثم تأوي إلىٰ تلك القناديل، فاطَّلع إليهم**

---

(١) التمهيد (١١/ ٥٩ - ٦١).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).

ربُّك اطِّلاعةً، فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: وأيَّ شيء نشتهي، ونحن نسرَحُ من الجنة حيث نشاء! ففعَل بهم ذلك ثلاثَ مرات، فلما رأَوْا أنهم لم يُترَكوا من أن يُسألوا قالوا: يا ربِّ نريدُ أن تَرُدَّ أرواحَنا في أجسادنا حتىٰ نُقتَل في سبيلك مرّةً أخرىٰ. فلما رأىٰ أن ليس لهم حاجةٌ تُرِكوا»، والحديث في صحيح مسلم[١].

قلتُ: لا تنافي بين قوله ﷺ: «**نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة**» وبين قوله: «**إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعدُه بالغداة والعَشِيِّ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار**»، وهذا الخطاب يتناول الميِّتَ علىٰ فراشه والشهيدَ، كما أنَّ قوله: «**نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة**» يتناول الشهيدَ وغيرَه، ومع كونه يُعرَض عليه مقعده بالغداة والعشيِّ تَرد روحُه أنهارَ الجنة، وتأكل من ثمارها، وأما المقعدُ الخاص به والبيتُ الذي أُعِدَّ له، فإنَّه إنما يدخله يوم القيامة.

ويدلُّ عليه أنَّ منازلَ الشهداء ودُورَهم وقصورَهم التي أَعدَّ الله لهم ليست هي تلك القناديل التي تأوي إليها أرواحُهم في البرزخ قطعًا. فهم يَرَوْن منازلهم ومقاعدهم من الجنّة، ويكون مستقرُّهم في تلك القناديل المعلَّقة بالعرش، فإنَّ الدخول التامّ الكامل إنما يكون يوم القيامة، ودخولُ الأرواح الجنة في البرزخ أمرٌ دون ذلك.

وأما قول من قال: إنَّ حديث كعب في الشهداء دون غيرهم، فتخصيصٌ ليس في اللفظ ما يدلُّ عليه، وهو حَمْلُ اللفظ العامِّ علىٰ أقلِّ مسمَّياته، فإنّ الشهداء بالنسبة إلىٰ عموم المؤمنين قليلٌ جدًّا، والنبي ﷺ علَّق هذا الجزاء بوصفِ الإيمان، فهو المقتضي له، لم يعلِّقه بوصف الشهادة.

---

(١) برقم (١٨٨٧).

وأما النصوصُ والآثار التي ذُكرت في رزق الشهداء وكَوْنِ أرواحهم في الجنّة، فكلُّها حقٌّ، وهي لا تدلُّ علىٰ انتفاءِ دخول أرواح المؤمنين الجنَّة، ولاسيَّما الصدِّيقين الذين هم أفضلُ من الشهداء بلا نزاع بين الناس.

فإن قيل: فإذا كان هذا حكم لا يختصُّ بالشهداء، فما الموجِبُ لتخصيصهم بالذكر في هذه النصوص؟

قيل: تخصيصهم بالذكر في هذه النصوص دلَّ علىٰ التنبيه علىٰ فضل الشهادة وعلوِّ درجتها، وأنَّ هذا مضمون لأهلها ولا بدَّ، وأنَّ لهم منها أوفرَ نصيب. فنصيبُهم من هذا النعيم في البرزخ أكملُ من نصيب غيرهم من الأموات علىٰ فُرُشِهم، وإن كان الميِّت علىٰ فراشه أعلىٰ درجةً من كثير منهم، فله نعيمٌ يختصُّ به، لا يشاركه فيه مَن هو دونه.

فصل

ص: ٢٩٨

دليل من قال بأنها ليست في الجنة، ولكن يأكلون من ثمارها ويجدون ريحها

وأما قول مجاهد: ليس هي في الجنة، ولكن يأكلون من ثمارها ويجدون ريحها. فقد يُحتَجُّ لهذا القول بما رواه الإمام أحمد في مسنده[1] من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**الشهداء علىٰ بارِقِ نهرٍ بباب الجنة، في قبةٍ خضراءَ، يخرج عليهم رزقُهم من الجنة بكرةً وعشيةً**».

وهذا لا ينافي كونَهم في الجنة، فإنَّ ذلك النهرَ من الجنّة، ورزقُهم يخرج عليهم من الجنة، فهم في الجنة، وإن لم يصيروا علىٰ مقاعدهم منها. فمجاهدٌ نفىٰ الدخول الكامل من كلِّ وجه، والتعبيرُ يقصُر عن الإحاطة بتمييز هذا من هذا.

---

(١) برقم (٢٣٩٠)، وصححه ابن حبان (٤٦٥٨).

فصل

ص: ٣٠٣

دليل من قال بأنها على أفنية قبورها

وأما قول من قال: الأرواحُ علىٰ أفنية قبورها، فإن أراد أنَّ هذا أمر لازمٌ لها لا تفارق أفنية القبور أبدًا، فهذا خطأ تردُّه نصوص الكتاب والسنة من وجوه كثيرة، قد ذكرنا بعضها، وسنذكر منها ما لم نذكره إن شاء الله.

وإن أراد أنها تكون علىٰ أفنية القبور وقتًا، أو لها إشرافٌ علىٰ قبورها وهي في مقرِّها، فهذا حقٌّ، ولكن لا يقال: مستقرُّها أفنية القبور.

وقد ذهب إلىٰ هذا المذهب جماعةٌ، منهم أبو عمر بن عبد البرِّ، قال في كتابه[1] في شرح حديث ابن عمر: «**إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعدُه بالغداة والعشي**»: وقد استدل به من ذهب إلىٰ أنَّ الأرواح علىٰ أفنية القبور، وهو أصح ما ذهب إليه في ذلك من طريق الأثر، ألا ترىٰ أنَّ الأحاديث الدَّالَّة علىٰ ذلك ثابتة متواترة، وكذلك أحاديث السلام علىٰ القبور.

قلت: يريد بالأحاديث المتواترة مثلَ حديث ابن عمر هذا، ومثل حديث البراء بن عازب الذي تقدَّم، وفيه: «**هذا مقعدُك حتىٰ يبعثك الله يوم القيامة**»، ومثلَ حديث أنس: «**إن العبد إذا وُضِع في قبره وتولّىٰ عنه أصحابُه إنه لَيسمع قرْعَ نعالهم**»، وفيه: أنه يرىٰ مقعدَه من الجنة والنار، وأنه يُفسَح للمؤمن في قبره سبعين ذراعًا، ويضيَّق علىٰ الكافر[2]؛ ومثلَ حديث جابر: «**إن هذه الأمة تُبتلَىٰ في قبورها، فإذا دخل المؤمن قبرَه وتولَّىٰ عنه أصحابه أتاه ملك...**» الحديث، وأنه يرىٰ مقعده من الجنة فيقول: «**دعوني أبشِّرْ أهلي، فيقال له: اسكن، فهذا مقعدك أبدًا**»[3]، ومثلَ

---

(١) التمهيد (١٤/ ١٠٩).

(٢) سبق تخريجه (ص: ١٢).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٦٧٤٤).

سائر أحاديث عذاب القبر ونعيمه التي تقدَّمتْ(١)، ومثلَ أحاديث السلام علىٰ أهل القبور، وخطابهم، ومعرفتِهم بزيارة الأحياء لهم. وقد تقدَّم ذكرُ ذلك كلِّه.

وهذا القول تردُّه السنة الصحيحة والآثار التي لا مَدْفَعَ لها، وقد تقدَّم ذكرها. وكلُّ ما ذكره من الأدلّة، فهو يتناول الأرواح التي هي في الجنة بالنصِّ وفي الرفيق الأعلىٰ، وقد بيَّنَّا أنَّ عرضَ مقعد الميِّت عليه من الجنة أو النار لا يدلُّ علىٰ أنّ الرُّوح في القبر ولا علىٰ فنائه دائمًا من جميع الوجوه، بل لها إشرافٌ واتصال بالقبر وفِنائه، وذلك القدرُ منها يُعرَض عليه مقعده، فإنَّ للروح شأنًا آخرَ: تكون في الرفيق الأعلىٰ في أعلىٰ علِّيين، ولها اتصال بالبدن، بحيث إذا سلَّم المسلِّم علىٰ الميِّت ردَّ الله عليه روحَه، فيردُّ عليه السلامَ، وهي في الملأ الأعلىٰ.

وإنما يغلط أكثرُ الناس في هذا الموضع حيث يعتقد أنَّ الروح من جنس ما يعهد من الأجسام التي إذا شغلتْ مكانًا لم يمكن أن تكون في غيره، وهذا غلط محضٌ، بل الروحُ تكون فوق السموات في أعلىٰ عليين، وتُرَدُّ إلىٰ القبر، فَتَرُدُّ السّلام، وتعلم بالمسلِّم، وهي في مكانها هناك.

وروح رسول الله ﷺ في الرفيق الأعلىٰ دائمًا، ويردُّها الله ﷻ إلىٰ القبر، فتردُّ السّلام علىٰ من سلّم عليه، وتسمعُ كلامه، وقد رأىٰ رسول الله ﷺ موسىٰ قائمًا يصلِّي في قبره، ورآه في السماء السادسة أو السابعة(٢)، فإما أن تكون سريعةَ الحركة والانتقال كلمح البصر، وإما أن يكون المتّصِلُ منها بالقبر وفِنائه بمنزلة شعاعِ الشمس، وجِرمُها في السماء.

---

(١) (ص: ٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٢).

ولهذا قال مالك وغيرُه من الأئمة: إنَّ الروحَ مرسَلةٌ تذهب حيث شاءت.

وأما السلامُ علىٰ أهل القبور وخطابُهم فلا يدلُّ علىٰ أن أرواحهم ليست في الجنة وأنها علىٰ أفنية القبور، فهذا سيِّدُ ولد آدم الذي روحه في أعلىٰ علِّيين مع الرفيق الأعلىٰ يُسلَّم عليه عند قبره، ويرُدُّ سلام المسلِّم عليه.

وقد وافق أبو عُمر رحمه الله علىٰ أنَّ أرواح الشهداء في الجنَّة، ويسلَّم عليهم عند قبورهم، كما يسلَّم علىٰ غيرهم، كما علَّمَنا النبيُّ ﷺ أن نسلِّم عليهم؛ وكما كان الصحابة يسلِّمون علىٰ شهداء أحد، وقد ثبت أنَّ أرواحهم في الجنة تسرح حيث شاءت كما تقدَّم(١).

ولا يضيق عَطَنُك عن كون الروح في الملأ الأعلىٰ تسرح في الجنة حيث شاءت، وتسمع سلام المسلِّم عليها عند قبرها، وتدنو حتىٰ ترُدَّ عليه السلام، فللروح شأن آخر غيرُ شأن البدن.

فصل

ص: ٣١١

شأن الروح يختلف بحسب حالها من القوة والضعف

ومما ينبغي أن يُعلَم أنَّ ما ذكرناه من شأن الروح يختلفُ بحسَب حال الأرواح، مِن القوة والضعف، والكِبَر والصغر، فللروح العظيمة الكبيرة من ذلك ما ليس لمن هو دونها، وأنت ترىٰ أحكام الأرواح في الدنيا كيف تتفاوتُ أعظمَ تفاوت بحسَب تفاوت الأرواح في كيفيَّاتها، وقواها، وبِطائها وإسراعها، والمعاونة لها.

فللروح المطلَقة من أَسْر البدن وعلائقه وعوائقه مِن التصرُّف والقوة والنَّفاذ

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٢٠)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٣٧٩).

والهمَّة وسرعة الصعود إلىٰ الله والتعلُّق بالله ما ليس للروح المَهينة المحبوسة في علائق البدن وعوائقه، فإذا كان هذا وهي محبوسة في بدنها، فكيف إذا تجرَّدت، وفارقته، واجتمعت فيها قواها، وكانت في أصل شأنها روحًا عليَّة زكيَّة كبيرة ذات همّة عالية، فهذه لها بعد مفارقة البدن شأنٌ آخر، وفعلٌ آخر.

فصل

ص: ٣١٦
دليل من قال بأنها عند الله تعالى

وأما قول من قال: أرواحُ المؤمنين عند الله تعالىٰ، ولم يزد علىٰ ذلك؛ فإنه تأدَّبَ مع لفظ القرآن، حيث يقول الله ﷻ: ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وقد احتجَّ أربابُ هذا القول بحُجج، منها: ما رواه محمد بن إسحاق الصَّغَاني، ثنا يحيىٰ بن أبي بُكير، ثنا محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ الميتَ إذا خرجت نفسُه يُعرَج بها إلىٰ السماء حتىٰ يُنتهىٰ بها إلىٰ السماء التي فيها الله ﷻ. وإذا كان الرجلُ السوءُ يُعرجَ بها إلىٰ السماء، فإنه لا يُفتَح لها أبواب السماء، فترسَل من السماء، فتصير إلىٰ القبر**».

وهذا إسنادٌ لا تَسأَلْ عن صحته، وهو في مسند أحمد وغيره[1].

وقال المكّي بن إبراهيم، عن داود بن يزيد الأودي، قال: أراه عن عامر الشعبي، عن حذيفة بن اليمان، أنه قال: الأرواح موقوفة عند الرحمن ﷻ تنتظر موعدها حتىٰ يُنفَخ فيها[2].

---

(١) سبق تخريجه (ص: ٨٢).

(٢) الأثر أخرجه ابن منده كما عزاه إليه ابن رجب في الأهوال (١١٥) وقال: هذا إسناد ضعيف.

وهذا القولُ لا ينافي قولَ من قال: هم في الجنة، فإنَّ الجنّة عند سدرة المنتهىٰ، والجنةُ عند الله، وكأنَّ قائلَه رأىٰ أنَّ هذه العبارة أسلمُ وأوفق، وقد أخبر الله سبحانه أنَّ أرواح الشهداء عنده، وأخبر النبي ﷺ أنها تسرح في الجنة حيث شاءت.

فصل

ص: ٣٢١

دليل من قال بأنها في بلدان معينة

وأما من قال: إنَّ أرواح المؤمنين بالجابية، وأرواح الكفار بحضرموت ببَرَهُوت؛ فقال أبو محمد بن حزم: هذا من قول الرافضة[١]. وليس كما قال، بل قد قاله جماعةٌ من أهل السنّة.

قال أبو عبد الله بن منده: ورُوي عن جماعة من الصحابة والتابعين أنَّ أرواح المؤمنين بالجابية، ثم قال: عن عبد الله بن عمرو، أنه قال: إنَّ أرواحَ المؤمنين تجتمع بالجابية، وإن أرواحَ الكُفَّار تجتمع في سَبَخة[٢] بحضرموت يقال لها: بَرَهُوت[٣].

فإن أراد عبد الله بن عمرو بالجابية التمثيل والتشبيه، وأنها تجتمع في مكان فسيح يُشبه الجابية لسعته وطيب هوائه، فهذا قريب، وإن أراد نفسَ الجابية دون سائر الأرض، فهذا لا يُعلم إلا بالتوقيف، ولعلَّه ممّا تلقّاه عن بعض أهل الكتاب.

---

(١) الفصل في الملل والنحل (٢/ ٣٢٠).

(٢) سبخة: هي الأرض التي تعلوها الملوحة ولا تكاد تنبت إلا بعض الشجر.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذكر الموت (٥٤٤).

فصل

ص: ٣٢٤

دليل من قال بأنها تجتمع في الأرض

وأما قول من قال: إنها تجتمع في الأرض التي قال الله فيها: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] **فهذا إن** كان قاله تفسيرًا للآية، فليس هو تفسيرًا لها.

وقد اختلفَ الناسُ في الأرض المذكورة هنا، فقال سعيد بن جبير عن ابن عبَّاس: هي أرض الجنة[١]، وهذا قول أكثر المفسرين.

وعن ابن عبَّاس قولٌ آخر: إنها الدنيا التي فتحها الله علىٰ أمة محمد ﷺ[٢].

وهذا القول هو الصحيح، ونظيره قوله تعالىٰ في سورة النور: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «**زُوِيتْ لي الأرضُ مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملكُ أمتي ما زُوي لي منها**»[٣].

وقالت طائفةٌ من المفسرين: المراد بذلك أرض بيت المقدس[٤]، وهي من الأرض التي أورثها الله عباده الصالحين، وليست الآية مختصةً بها.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ٤٣٥). (٢) أخرجه الطبري (١٦/ ٤٣٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٨٩). (٤) تفسير القرطبي (١٤/ ٣٠١).

ص: ٣٢٥

فصل

دليل من قال بأنها عليين أو في سجين

وأمَّا قولُ من قال: إنَّ أرواحَ المؤمنين في علِّيِّين في السماء السابعة، وأرواح الكفار في سجِّينٍ في الأرض السابعة؛ فهذا قولٌ قد قاله جماعةٌ من السَّلف والخلف. ويدلُّ عليه قول النبي ﷺ عند موته: «**اللهم الرفيقَ الأعلىٰ**»[1].

وقد تقدَّم[2] حديث أبي هريرة: «**إن الميت إذا خرجت روحُه عُرِجَ بها إلىٰ السماء حتىٰ يُنتهىٰ بها إلىٰ السماء السابعة التي فيها الله ﷻ**».

وتقدَّم[3] حديث البراء بن عازب: «**أنها تصعد من سماء إلىٰ سماء، ويشيِّعها مِن كلِّ سماء مقرّبوها حتىٰ يُنتهىٰ بها إلىٰ السماء السابعة**». وفي لفظ: «**إلىٰ السماء التي فيها الله ﷻ**».

ولكن هذا لا يدلُّ علىٰ استقرارها هناك دائمًا، بل يُصعدُ بها إلىٰ هناك للعرض علىٰ ربِّها ﷻ، فيقضي فيها أمره، ويَكتب كتابه: من أهل علِّيين، أو من أهل سجِّين، ثم تعود إلىٰ القبر للمسألة، ثم ترجع إلىٰ مقرِّها الذي أودِعَتْ فيه. فأرواحُ المؤمنين في علِّيين بحسب منازلهم، وأرواحُ الكفار في سجِّين بحسب منازلهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٦٣) ومسلم (٢٤٤٤). (٢) (ص: ٨٢).

(٣) (ص: ٣٦).

فصل

ص: ٣٢٦

دليل من قال بأنها تجتمع ببئر زمزم

وأما قول من قال: إنَّ أرواحَ المؤمنين تجتمع ببئر زمزم، فلا دليل علىٰ هذا القول من كتابٍ، ولا سنَّةٍ يجب التسليم لها، ولا قولِ صاحبٍ يُوثق به، وليس بصحيح، فإنَّ تلك البئر لا تسعُ أرواحَ المؤمنين جميعهم، وهو مخالفٌ لما ثبتت به السُّنَّة الصريحة من أنَّ نسَمةَ المؤمن طائرٌ يعلُق في شجر الجنة.

وبالجملة فهذا من أبطل الأقوال وأفسَدِها، وهو أفسدُ من قول من قال: إنها بالجابية، فإنَّ ذلك مكانٌ متَّسِعٌ فضيٌّ(١) بخلاف البئر الضيقة.

فصل

ص: ٣٢٧

دليل من قال بأنها في برزخ في الأرض

وأما قول من قال: إنَّ أرواحَ المؤمنين في برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت، فهذا مرويٌّ عن سلمان الفارسي(٢)، والبرزخ هو: الحاجزُ بين شيئين، وكأنَّ سلمان أرادَ بها: في أرضٍ بين الدُّنيا والآخرة، مُرسَلة هناك تذهب حيث شاءت.

وهذا قولٌ قويٌّ، فإنها قد فارقت الدنيا، ولم تلِج الآخرة، بل هي في برزخ بينهما، فأرواح المؤمنين في برزخٍ واسعٍ فيه الرَّوح والريحان والنعيم، وأرواحُ الكفار في برزخ ضيِّق فيه الغم والعذاب، قال تعالىٰ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، فالبرزخ هنا: ما بين الدنيا والآخرة، وأصله: الحاجز بين الشيئين.

---

(١) من فضا المكانُ يفضو فَضاءً وفُضُوًّا: اتسع. (٢) سبق تخريجه (ص: ٧٩).



ص: ٣٢٨

فصل

دليل من قال بأنها عن يمين الله تعالى أو عن يساره

وأما قول من قال: إنَّ أرواحَ المؤمنين عن يمين آدم، وأرواحَ الكفار عن يساره؛ فلَعمرُ الله، لقد قال قولاً يؤيِّده الحديث الصحيح، وهو حديث الإسراء، فإن النبي ﷺ رآهم كذلك[1]؛ ولكن لا يدلُّ ذلك علىٰ تعادلهم في اليمين والشمال، بل يكون هؤلاء عن يمينه في العلوِّ والسعة، وهؤلاء عن يساره في السُّفْل والسِّجن.

ص: ٣٣٠

فصل

دليل من قال بأنها في مستقرها قبل خلق الأجساد

وأما قول أبي محمد بن حزم: إنَّ مستقرَّها حيث كانت قبل خلق أجسادها، فهذا بناء منه علىٰ مذهبه الذي اختاره، وهو أنَّ الأرواح مخلوقة قبل الأجساد.

وهذا فيه قولان للناس، وجمهورُهم علىٰ أنَّ الأرواح خُلِقت بعد الأجساد.

والذين قالوا: إنها خُلقت قبل الأجساد، ليس معهم علىٰ ذلك دليل من كتاب ولا سنّة ولا إجماع، إلا ما فهموه من نصوص لا تدلُّ علىٰ ذلك، أو أحاديث لا تصحُّ؛ كما احتج به أبو محمد بن حزم من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢]، وبقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾ [الأعراف: ١١].

قال: فصحَّ أنَّ الله خلق الأرواح جملةً، وهي الأنفس، وكذلك أخبر ﵇ أنَّ «**الأرواح جنود مجنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (٢٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٣٦)، ومسلم (٢٦٣٨).

قال: وأخذ ﷻ عهدها وشهادتَها، وهي مخلوقة مصوَّرة عاقلة، قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم، وقبل أن يُدخِلها في الأجساد، والأجسادُ يومئذ تراب.

وقال: لأنَّ الله تعالىٰ ذكر ذلك بلفظة «ثمَّ» التي توجب التعقيب والمهلة. ثم أقرَّها سبحانه حيث شاء، وهو البرزخ الذي ترجع إليه عند الموت[1].

وسنذكر ما في هذا الاستدلال عند جواب سؤال السائل عن الأرواح: أهي مخلوقةٌ مع الأبدان أم قبلها؟ إذ الغرضُ هنا الكلام علىٰ مستقَرِّ الأرواح بعد الموت.

وقوله: «إنها تستقرُّ في البرزخ الذي كانت فيه قبل خلق الأجساد» مبنيٌّ علىٰ هذا الاعتقاد الذي اعتقده.

وقوله: «إن أرواح السعداء عن يمين آدم، وأرواحَ الأشقياء عن يساره» حقٌّ، كما أخبر به النبي ﷺ.

فصل

ص: ٣٣٤

دليل من قال بأن مستقرها العدم المحض

وأما قول من قال: إنَّ مستقرَّها العدمُ المحضُ، فهذا قول من قال: إنها عرَض من أعراض البدن، هو الحياة، وهذا قول ابن الباقِلَّاني ومَن تبعه[2].

وهذا قولٌ يردُّه الكتاب والسنَّة، وإجماع الصحابة، وأدلَّة العقول والفِطَر، وهو قول مَن لم يَعرِف روحَه، فضلاً عن روح غيره، وقد خاطب الله سبحانه النفس بالرجوع والدخول والخروج، ودلَّت النصوص الصحيحة الصريحة علىٰ أنها تصعد

---

(١) الفصل لابن حزم (٢/ ٣٢١).

(٢) انظر: الفصل لابن حزم (٣/ ٢١٤، ٢١٧).

وتنزل، وتُقبَض وتُمْسَك، وتُرسَل ويُستفتَح لها أبوابُ السماء، وتسجُد وتتكلَّم. وأنَّها تخرج تسيلُ كما تسيل القطرة، وتُكفَّن وتُحنَّط في أكفان الجنة أو النار. وأنَّ ملك الموت يأخذها بيده، ثم تتناولها الملائكة من يده، ويُشتَمُّ لها كأطيبِ نفحة مسكٍ، أو أنتنِ جيفةٍ، وتُشيَّع من سماء إلىٰ سماء، ثم تُعاد إلىٰ الأرض مع الملائكة. وأنَّها إذا خرجت تبعها البصر بحيث يراها وهي خارجةٌ. ودلَّ القرآن علىٰ أنها تنتقل من مكان إلىٰ مكان حتىٰ تبلغ الحلقوم في حركتها.

وسيأتي ذكرُ الوجوه الدالَّة علىٰ بُطلان هذا القول في موضعه من هذا الجواب إن شاء الله، وهو قول لم يقل به أحد من سلف الأمة من الصحابة والتابعين ولا أئمة الإسلام.

فصل

ص: ٣٣٧

دليل من قال بأن مستقرها أبدان أخر

وأمَّا قولُ من قال: إن مستقرَّها بعد الموت أبدانٌ أُخَرُ غيرُ هذه الأبدان، فهذا القول فيه حقٌّ وباطل.

فأما الحقُّ، فما أخبر به الصادق المصدوقُ عن أرواح الشهداء، أنَّها في حواصلِ طيرٍ خُضْرٍ تأوي إلىٰ قناديل معلَّقةٍ بالعرش، هي لها كالأوكار للطائر، وقد صرَّح بذلك في قوله: «**جعل الله أرواحَهم في أجواف طير خُضر**».

وأما قوله ﷺ: «**نسَمةُ المؤمن طائر يعلُق في شجر الجنة**»، يحتمل أن يكون هذا الطائرُ مَرْكبًا للروح كالبدن لها، ويكون ذلك لبعض المؤمنين والشهداء، ويَحتمل أن يكون الروحُ في صورة طائر، وهذا اختيار أبي محمد بن حزم وأبي عمر بن عبد البر.

فإن قيل: فهذا هو القولُ بالتناسخُ وحلولِ الأرواح في أبدانٍ غيرِ أبدانها التي كانت فيها.

قيل: هذا المعنىٰ الذي دلَّت عليه السنَّة الصريحة حقٌّ يجب اعتقاده، ولا يُبطِله تسميةُ المسمِّي له: تناسخًا، كما أنَّ إثبات ما دلَّ عليه العقل والنقل من صفات الله ﷻ وحقائق أسمائه الحسنىٰ حقٌّ لا يُبطِله تسميةُ المعطلين لها: تركيبًا وتجسيمًا، وكذلك ما دلَّ عليه العقل والنقل من إثبات أفعاله وكلامه بمشيئته، ونزوله كلَّ ليلة إلىٰ سماء الدنيا، ومجيئه يوم القيامة للفصل بين عباده= حقٌّ لا يُبطِله تسميةُ المعطِّلين له: حلولَ حوادثَ.

فليس الشأن في الألقاب، وإنما الشأن في الحقائق.

والمقصود: أنَّ تسمية ما دلَّت عليه السُّنَّة الصريحة من جَعْل أرواح الشهداء في أجواف طيرٍ خُضْرٍ تناسخًا لا يبطل هذا المعنىٰ، وإنما التناسخ الباطل ما يقوله أعداء الرسل من الملاحدة وغيرِهم الذين ينكرون المعاد: إنَّ الأرواح تصير بعد مفارقة الأبدان إلىٰ أجناس الحيوان والحشرات والطيور التي تناسبها وتشاكلها، فإذا فارقت هذه الأبدانَ انتقلت إلىٰ أبدان تلك الحيوانات فتنعَّم فيها وتعذَّب، ثم تفارقها وتحلُّ في أبدان أُخَر تناسب أعمالها وأخلاقها؛ وهكذا أبدًا، فهذا معادُها عندهم ونعيمُها وعذابها، لا معادَ لها عندهم غيرُ ذلك. فهذا هو التناسخ الباطل المخالف لما اتفقت عليه الرسل والأنبياء من أولهم إلىٰ آخرهم، وهو كفر بالله وباليوم الآخر.

وهذه الطائفة تقول: إنَّ مستقرَّ الأرواح بعد المفارقة أبدانُ الحيوانات التي تناسبها. وهو أبطلُ قولٍ وأخبثُه.

ويليه قول من قال: إنَّ الأرواح تُعدَم جملةً بالموت، ولا تبقىٰ هناك روح تنعَّم ولا تعذَّب، بل النعيم والعذاب يقع علىٰ أجزاء الجسد أو علىٰ جزء منه: إمَّا عَجْبِ الذنَب أو غيرِه؛ فيخلق الله فيه الألم واللذة، إما بواسطة ردِّ الحياة إليه كما قال بعض أرباب هذا القول، أو بدون ردِّ الحياة كما قاله آخرون منهم. فهؤلاء عندهم: لا عذابَ في البرزخ إلا علىٰ الجسد.

ومقابلُهم من يقول: إنَّ الروح لا تعاد إلىٰ الجسد بوجهٍ ولا تتصل به، والعذابُ والنعيم علىٰ الروح فقط.

والسُّنَّة الصريحة المتواترة تردُّ قول هؤلاء وهؤلاء، وتبيِّن أن العذاب علىٰ الروح والجسد مجتمعين ومنفردين.

فإن قيل: فقد ذكرتم أقوال الناس في مستقرِّ الأرواح ومآخذهم، فما هو الراجح من هذه الأقوال حتىٰ نعتقده؟

قيل: الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت:

فمنها أرواح في أعلىٰ علِّيين في الملأ الأعلىٰ. وهي أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وهم متفاوتون في منازلهم كما رآهم النبي ﷺ ليلة الإسراء.

ومنها أرواح في حواصل طيرٍ خُضْرٍ تسرح في الجنَّة حيث شاءت. وهي أرواح بعض الشهداء لا جميعهم، بل من الشهداء من تُحبَس روحه عن دخول الجنة لدَين عليه أو غيره، كما في المسند[1] عن محمد بن عبد الله بن جحش أنَّ رجلًا جاء إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما لي إن قُتلت في سبيل الله؟ قال: «**الجنة**»، فلما ولَّىٰ

---

(١) برقم (١٧٢٥٣) (٢٨/ ٤٩١)، ورقم (١٩٠٧٧) (٣١/ ٤٣٠).

قال: «**إلا الدَّين، سارَّني به جبريلُ آنفًا**»[١].

ومنهم من يكون محبوسًا علىٰ باب الجنَّة، كما في الحديث الآخر: «**رأيت صاحبكم محبوسًا علىٰ باب الجنَّة**»[٢].

ومنهم من يكون محبوسًا في قبره، كحديث صاحب الشَّملة التي غلَّها ثم استُشهِد، فقال الناس: هنيئًا له الجنة، فقال النبي ﷺ: «**كلّا، والذي نفسي بيده، إنَّ الشملة التي غلَّها لَتشتعل عليه نارًا في قبره**»[٣].

ومنهم من يكون مقرُّه بباب الجنة، كما في حديث ابن عباس: «**الشهداء علىٰ بارقِ نهرٍ بباب الجنة، في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقُهم من الجنة بكرةً وعشية**» رواه أحمد[٤]، وهذا بخلاف جعفر بن أبي طالب حيث أبدله الله مِن يديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء[٥].

ومنهم من يكون محبوسًا في الأرض، لم تَعْلُ روحُه إلىٰ الملأ الأعلىٰ، فإنها كانت روحًا سُفْلِيَّة أرضية؛ فإنَّ الأنفس الأرضية لا تُجامع الأنفسَ السماوية، كما لا تجامعها في الدنيا، والنفسُ التي لم تكتسب في الدنيا معرفة ربِّها ومحبتَه وذكرَه والأنسَ به والتقرُّب إليه، بل هي أرضية سفلية= لا تكون بعد المفارقة لبدنها إلّا هناك. كما أنَّ النفس العلوية التي كانت في الدنيا عاكفةً علىٰ محبةِ الله

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧٢٥٣)، وإسناده حسن.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢٠١٢٤، ٢٠١٥٧)، وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٣٤)، ومسلم (١١٥). (٤) سبق تـخريجه (ص: ٨٥).

(٥) أخرج الترمذي (٣٧٦٣)، ولكن الحديث صحيح بمجموع طرقه وشواهده، كما في الصحيحة رقم (١٢٢٦).

وذكرِه والتقربِ إليه والأنس به تكون بعد المفارقة مع الأرواح العلوية المناسبة لها. فالمرء مع من أحبَّ في البرزخ ويوم القيامة. والله تعالىٰ يزوِّج النفوسَ بعضَها ببعض في البرزخ ويوم المعاد، كما تقدَّم[١] في الحديث: «**ويجعل روحه** - يعني المؤمن - **مع النَّسَم الطيِّب**». أي: الأرواحِ الطيِّبةِ المشاكلةِ لروحه، فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وإخوانها وأصحاب عملها، فتكون معهم هناك.

ومنها أرواحٌ تكون في تنوُّر الزُّناة والزواني، وأرواحٌ في نهر الدم تَسْبح فيه، وتُلقَم الحجارة[٢].

فليس للأرواح - سعيدِها وشقيِّها - مستقرٌّ واحد، بل روح في أعلىٰ عليين، وروح أرضية سفلية لا تصعد عن الأرض، وأنت إذا تأملتَ السنن والآثار في هذا الباب، وكان لك بها فضلُ اعتناءٍ، عرفتَ صحة ذلك.

ولا تظنَّ أنَّ بين الآثار الصحيحة في هذا الباب تعارضًا، فإنَّها كلَّها حقٌّ يصدِّق بعضُها بعضًا، لكن الشأن في فهمهما ومعرفةِ النفس وأحكامها، وأنَّ لها شأنًا غيرَ شأن البدن، وأنَّها مع كونها في الجنَّة فهي في السماء، وتتصل بفناء القبر وبالبدن فيه، وهي أسرع شيء حركةً وانتقالاً وصعودًا وهبوطًا، وأنَّها تنقسم إلىٰ مرسَلة ومحبوسة، وعلويّة وسفليّة، ولها بعد المفارقة صحّة ومرض، ولذّة ونعيم، وألم أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير، فهنالك الحبس والألم والعذاب والمرض والحسرة، وهناك اللذة والراحة والنعيم والإطلاق، وما أشبهَ حالَها في هذا البدن بحال البدن في بطن أمه، وحالَها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن إلىٰ هذه الدار!

---

(١) سبق تخريجه (ص: ٣٦).

(٢) سبق تخريجه (ص: ٤٨).

فلهذه الأنفس أربع دُورٍ كلُّ دار أعظم من التي قبلها:

الدار الأولى: في بطن الأمِّ، وذلك الحصَر والضِّيق والغمِّ، والظلمات الثلاث.

الدار الثانية: هذه الدار التي نشأتْ فيها وأَلِفَتْها، واكتسبتْ فيها الخيرَ والشرَّ وأسبابَ السعادة والشقاوة.

والدار الثالثة: دار البرزخ، وهي أوسعُ من هذه الدار وأعظم، بل نسبتها إليها كنسبة هذه الدار إلىٰ الدار الأولىٰ.

الدار الرابعة: دار القرار، وهي الجنة أو النار، فلا دار بعدها.

والله تعالىٰ ينقلها في هذه الدور طَبَقًا بعد طَبَق، حتىٰ يبلِّغها الدار التي لا يصلح لها غيرُها، ولا يليق بها سواها، وهي التي خُلِقتْ لها وهُيِّئت للعمل الموصل لها إليها. ولها في كلِّ دار من هذه الدور حكمٌ وشأن غير شأن الدار الأخرىٰ، فتبارك الله فاطرُها ومنشيها، ومميتُها ومحييها، ومُسعدُها ومُشقيها، الذي فاوَت بينها في درجات سعادتها وشقاوتها، كما فاوت بينها في مراتب علوِّها وأعمالها وقواها وأخلاقها.

فمن عَرَفها كما ينبغي شهِدَ أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، الذي له الملكُ كلُّه، وله الحمدُ كلُّه، وبيده الخيرُ كلُّه، وإليه يرجع الأمرُ كلُّه، وله القوة كلُّها، والقدرةُ كلُّها، والعزُّ كلُّه، والحكمةُ كلُّها، والكمالُ المطلقُ من جميع الوجوه؛ وعَرَف بمعرفة نفسه صدقَ أنبيائه ورسله، وأنَّ الذي جاؤوا به هو الحقُّ الذي تشهد به العقول، وتُقِرُّ به الفِطر؛ وما خالفه فهو الباطل، وبالله التوفيق.

ص: ٣٥٢

فصل

المسألة السادسة عشرة
وهي: هل تنتفع أرواح الموتى بشيء من سعي الأحياء أم لا؟

فالجواب: أنها تنتفعُ من سعي الأحياء بأمرين مجمعٍ عليهما بين أهل السُّنَّة من الفقهاء وأهل الحديث والتفسير.

أحدهما: ما تسبَّب إليه الميت في حياته.

والثاني: دعاء المسلمين له واستغفارهم له والصدقة والحجُّ علىٰ نزاع: ما الذي يصل إليه من ثوابه: هل هو ثواب الإنفاق أو ثواب العمل؟ فعند الجمهور يصل ثواب العمل نفسِه، وعند بعض الحنفية إنما يصل ثوابُ الإنفاق[١].

واختُلِفَ في العبادات البدنية، كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر، فمذهب الإمام أحمد وجمهور السلف وصولُها، وهو قول بعض أصحاب أبي حنيفة.

والمشهور من مذهب الشافعي ومالكٍ أنَّ ذلك لا يصل[٢].

وذهب بعضُ أهل البدع من أهل الكلام: أنه لا يصل إلىٰ الميت شيء البتَّة، لا دعاء ولا غيره[٣].

---

(١) انظر: المبسوط للسرخسي (٤/ ٢٦٥، ٢٨٣)، وبدائع الصنائع (٢/ ٢١٢).

(٢) انظر: مواهب الجليل (٢/ ٦٢٥)، وشرح صحيح مسلم للنووي (١/ ٢٠٥).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي (١/ ٢٠٥).

فالدليل علىٰ انتفاعه بما تسبَّب إليه في حياته ما رواه مسلمٌ في صحيحه[١] من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: إلا من صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنتفَع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له**»، فاستثناء هذه الثلاثِ من عمله يدلُّ علىٰ أنها منه، فإنه هو الذي تسبَّب إليها.

وفي سنن ابن ماجه[٢] من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ ممَّا يلحقُ المؤمنَ من عمله وحسناته بعد موته علمًا علَّمه ونَشَره، أو ولدًا صالحًا ترَكه، أو مصحفًا ورَّثه، أو مسجدًا بناه، أو بيتًا لابن السبيل بناه، أو نهرًا أكْراه، أو صدقةً أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقُه من بعد موته**».

وفي صحيح مسلم[٣] أيضًا من حديث جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن سنَّ في الإسلام سُنَّة حسنةً فله أجرُها وأجرُ من عمل بها بعده، من غير أن ينقُصَ من أجورهم شيءٌ، ومن سنَّ في الإسلام سنَّةً سيئةً كان عليه وزرُها ووزرُ من عَمِل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**».

وهذا المعنىٰ رُوي عن النبي ﷺ من عدّة وجوهٍ صِحاح وحِسان.

---

(١) برقم (١٦٣١).

(٢) برقم (٢٤٢)، وصححه ابن خزيمة (٢٢٩٣).

(٣) برقم (١٠١٧).

ص: ٣٥٦

فصل

الدليل على انتفاع الميت بعمل غيره

والدليل على انتفاعه بغير ما تسبَّب فيه: القرآنُ، والسُّنَّة، والإجماعُ، وقواعد الشرع.

أما القرآن، فقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠]، فأثنى الله سبحانه عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلَهم، فدلَّ على انتفاعهم باستغفار الأحياء.

وفي «السنن»[(١)] من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا صلَّيتم على الميت فأخلِصُوا له الدعاء**».

وفي «صحيح مسلم»[(٢)] من حديث عوف بن مالك قال: صلَّى رسولُ الله ﷺ على جنازة، فحفظتُ من دعائه وهو يقول: «**اللهم اغفِرْ له وارحَمْه، وعافِه واعفُ عنه، وأكرِمْ نُزُلَه، ووَسِّع مُدْخَله، واغسِلْه بالماء والثلج والبرد، ونقِّه من الخطايا كما نَقَّيْتَ الثوب الأبيض من الدنس، وأبدِلْه دارًا خيرًا من داره، وأهلاً خيرًا من أهله، وزوجًا خيرًا من زوجه. وأدْخِلْه الجنّة، وأَعِذْه من عذاب القبر ومن عذاب النار**».

وهذا كثير في الأحاديث، بل هو المقصود بالصلاة على الميت، وكذلك الدعاء له بعد الدفن.

وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم، كما في صحيح مسلم[(٣)] من حديث بُرَيْدة بن الحُصَيْب قال: كان رسول الله ﷺ يعلِّمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن

---

(١) أخرجه أبو داود (٣١٩٩)، وابن ماجه (١٤٩٧)، وابن حبان (٣٠٧٧)، وإسناده حسن لأجل ابن إسحاق، وقد صرّح بالتحديث عند ابن حبان.

(٢) برقم (٩٦٣). (٣) برقم (٩٧٥).

يقولوا: «**السلام عليكم أهلَ الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية**».

ودعاءُ النبي ﷺ للأموات فعلًا وتعليمًا، ودعاءُ الصحابة والتابعين والمسلمين عصرًا بعد عصرٍ أكثرُ من أن يُذكَر، وأشهرُ من أن يُنْكر.

فصل

ص: ٣٥٩

وصول ثواب الصدقة

وأما وصولُ ثواب الصدقة، ففي «الصحيحين»[(١)] عن عائشة أنَّ رجلاً أتىٰ النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إنَّ أمِّي افْتُلِتَتْ نفسُها ولم تُوصِ، وأظنُّها لو تكلَّمتْ تصدَّقَتْ، أفَلَها أجرٌ إنْ تصدَّقْتُ عنها؟ قال: «**نعم**».

وفي «صحيح البخاري»[(٢)] عن عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ سعد بن عُبادة تُوفِّيت أمُّه وهو غائب عنها، فأتىٰ النبيَّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنَّ أمِّي تُوُفِّيتْ وأنا غائب عنها، فهل ينفعُها إن تصدَّقتُ عنها؟ قال: «**نعم**»، قال: فإنِّي أُشْهِدُك أنَّ حائطي «المِخْراف» صدقة عنها.

وفي «السنن» و«مسند أحمد»[(٣)]، عن سعد بن عبادة أنَّه قال: يا رسول الله، إنَّ أمَّ سعدٍ ماتت، فأيُّ الصدقة أفضل؟ قال: «**الماء**»، فحفَر بئرًا، وقال: هذه لأمِّ سعد.

---

(١) البخاري (١٣٨٨)، ومسلم (١٠٠٤). (٢) برقم (٢٧٥٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد برقم (٢٢٤٥٩)، والنسائي (٣٦٦٨)، وأبو داود (١٦٨٠)، وصححه ابن خزيمة (٢٤٩٦)، وابن حبان (٣٣٤٨).

ص: ٣٦١

فصل

وصول ثواب الصوم

وأمَّا وصولُ ثواب الصوم، ففي «الصحيحين»[١] عن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من مات وعليه صيام صام عنه وليُّه**».

وفي «الصحيحين»[٢] أيضًا عن ابن عبَّاس قال: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنَّ أمِّي ماتت، وعليها صومُ شهر، أفأقضيه عنها؟ قال: «**نعم، فدَيْن الله أحقُّ أن يُقْضَىٰ**».

وعن بُرَيدة قال: بينَا أنا جالس عند رسول الله ﷺ، إذ أتته امرأةٌ فقالت: إنِّي تصدَّقتُ علىٰ أمِّي بجارية، وإنَّها ماتت. فقال: «**وجَبَ أجرُكِ، ورَدَّها عليك الميراثُ**». قالت: يا رسول الله، إنه كان عليها صومُ شهرٍ، أفأصوم عنها؟ قال: «**صومي عنها**»، قالت: إنَّها لم تحُجَّ قطُّ، أفأحُجُّ عنها؟ قال: «**حُجِّي عنها**»، رواه مسلم[٣]، وفي لفظ: صوم شهرين[٤].

---

(١) البخاري (١٩٥٢)، ومسلم (١١٤٧).

(٢) البخاري (١٩٥٣)، ومسلم (١١٤٨ - ١٥٥).

(٣) برقم (١١٤٩ - ١٥٧).

(٤) صحيح مسلم (١١٤٩ - ١٥٨).

ص: ٣٦٣

فصل

وصول ثواب الحج

وأما وصول ثواب الحج، ففي «صحيح البخاري»[(١)] عن ابن عباس أنَّ امرأةً من جُهَينة جاءت إلىٰ النبي ﷺ، فقالت: إنَّ أمي نذرت أن تحُجَّ، فلم تحُجَّ حتىٰ ماتت. أفأحُجُّ عنها؟ قال: «**حُجِّي عنها. أرأيتِ لو كان علىٰ أمِّك دَين، أكنتِ قاضِيتَه؟ اقضوا الله فالله أحقُّ بالقضاء**».

وعن ابن عباس قال: إنَّ امرأةَ سِنان بن سلَمة الجُهَني سألتْ رسولَ الله ﷺ أنَّ أمَّها ماتت ولم تحجَّ، أفيجزئ أن أحجَّ عنها؟ قال: «**نعم لو كان علىٰ أمِّها دَين، فقضَتْه عنها، ألم يكن يُجزئ عنها؟**». رواه النسائي[(٢)].

وأجمع المسلمون علىٰ أنَّ قضاء الدَّين يُسقِطه من ذمته، ولو كان من أجنبي، أو من غير تَرِكته. وقد دلَّ عليه حديث أبي قتادة، حيث ضمن الدينارين عن الميت، فلمَّا قضاهما قال له النبي ﷺ: «**الآن بردتْ عليه جِلدتُه**»[(٣)].

وهذه النصوص متظاهرةٌ علىٰ وصول ثواب الأعمال إلىٰ الميِّت إذا فعلها الحيُّ عنه، وهذا محض القياس، فإنَّ الثواب حقٌّ للعامل، فإذا وهبه لأخيه المسلم لم يُمنَع من ذلك، كما لم يُمنْعَ من هبة ماله في حياته له وإبرائه له منه بعد موته.

وقد نبَّه النبي ﷺ بوصول ثواب الصوم الذي هو مجرَّد تركٍ ونية تقوم بالقلب، لا يطَّلع عليه إلا الله، وليس بعمل الجوارح= علىٰ وصولِ ثواب القراءة التي هي

---

(١) برقم (١٨٥٢).

(٢) برقم (٢٦٣٢). وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٤٥٣٦)، وأبو داود (٣٣٤٣)، والنسائي (١٩٦١)، وصححه ابن حبان (٣٠٦٤).

عملٌ باللسان تسمعه الأذن وتراه العين بطريق الأَوْلىٰ.

والعبادات قسمان: مالية، وبدنية، وقد نبَّهَ الشارعُ بوصول ثواب الصدقة علىٰ وصول ثواب سائر العبادات المالية، ونبَّه بوصول ثواب الصوم علىٰ وصول ثواب سائر العبادات البدنية، وأخبر بوصول ثواب الحجِّ المركَّبِ من المالية والبدنية، فالأنواع الثلاثة ثابتة بالنصِّ والاعتبار، وبالله التوفيق.

قال المانعون من الوصول: قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]، وقال: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤]، وقال: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقد ثبَتَ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية عليه، أو ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به من بعده**»، فأخبر أنه إنما ينتفع بما كان تسبب إليه في الحياة، وما لم يكن قد تسبَّب إليه فهو منقطع عنه.

وأيضًا فحديث أبي هريرة المتقدِّمُ، وهو قوله: «**إنَّ مما يلحقُ الميتَ من عمله وحسناته بعد موته علمًا نشرَه**» الحديث[1]، يدلُّ علىٰ أنه إنما ينتفع بما كان قد تسبَّب فيه.

وكذلك حديث أنسٍ يرفعُه: «**سبعٌ يجرىٰ علىٰ العبد أجرُهن، وهو في قبره بعد موته: من علَّم علمًا، أو أكْرىٰ نهرًا، أو حفَرَ بئرًا، أو غرس نخلًا، أو بنىٰ مسجدًا، أو ورَّث مصحفًا، أو ترك ولدًا صالحًا يستغفر له بعد موته**»[2].

وهذا يدلُّ علىٰ أن ما عدا ذلك لا يحصل له منه ثواب وإلَّا لم يكن للحصر معنىٰ.

---

(١) سبق تخريجه (ص: ١٠٣).

(٢) أخرجه البزار في مسنده (٧٢٨٩).

قالوا: وأيضًا فالإيثار بأسباب الثواب مكروهٌ، وهو الإيثار بالقُرَب، فكيف الإيثار بنفس الثواب الذي هو غاية! فإذا كُرِه الإيثار بالوسيلة، فالغايةُ أولىٰ وأحرىٰ.

قالوا: وأيضًا لو ساغ الإهداء إلىٰ الميِّت لساغ نقلُ الثواب والإهداءُ إلىٰ الحي، وأيضًا لو ساغ ذلك لساغ إهداءُ نصفِ الثواب ورُبعِه وقيراطٍ منه.

وأيضًا: لو ساغ ذلك لساغ إهداؤه بعد أن يعمله لنفسه، وقد قلتم: إنه لابدَّ أن ينويَ حالَ الفعل إهداءه إلىٰ الميت وإلّا لم يصلِ إليه، فإذا ساغ له نقلُ الثواب، فأيُّ فرق بين أن ينويَ قبل الفعل أو بعده؟

قال المقتَصِرون علىٰ وصول العبادات التي يدخلها النيابة كالصدقة والحج: العبادات نوعان: نوع لا يدخله النيابة بحال كالإسلام، والصلاة، وقراءة القرآن، والصيام، فهذا النوع يختص ثوابه بفاعله، لا يتعدَّاه، ولا يُنقل عنه؛ كما أنه في الحياة لا يفعله أحدٌ عن أحد، ولا ينوب فيه عن فاعله غيرُه.

ونوعٌ يدخله النيابة كردِّ الودائع، وأداء الديون، وإخراج الصدقة، والحجِّ، فهذا يصل ثوابه إلىٰ الميت؛ لأنه يقبل النيابة، ويفعلُه العبد عن غيره في حياته، فبعد موته بطريق الأولىٰ والأحرىٰ.

قال أصحاب الوصول: ليس في شيء مما ذكرتم ما يعارِض أدلَّة الكتابِ والسُّنَّة، واتفاقَ سلفِ الأمة، ومُقتضَىٰ قواعد الشرع. ونحن نجيب عن كلِّ ما ذكرتموه بالعدل والإنصاف.

أما قوله تعالىٰ: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]، فقد اختلفت طرق الناس في المراد بالآية، فقالت طائفة: الإنسان هاهنا: الكافر، وأما المؤمن، فله ما

سَعَىٰ وما سُعِي له، بالأدلَّة التي ذكرناها. قالوا: وغاية ما في هذا: التخصيص، وهو جائز إذا دلَّ عليه الدليل.

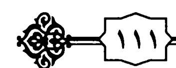
وهذا الجواب ضعيف جدًّا، ومثل هذا العامِّ لا يراد به الكافر وحده، بل هو للمسلم والكافر، وهو كالعامِّ الذي قبله وهو قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨].

والسياق كلُّه من أوله إلىٰ آخره كالصريح في إرادة العموم.

ولا تغترَّ بقول كثير من المفسرين في لفظ «الإنسان» في القرآن: الإنسان هاهنا أبو جهل، والإنسان هاهنا عُقبة بن أبي مُعَيط، والإنسان هاهنا الوليد بن المغيرة. فالقرآن أجلُّ من ذلك، بل الإنسان هو الإنسان من حيث هو، من غير اختصاصٍ بواحد بعينه، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، و﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] و﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]، و﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦- ٧]، و﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، و﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فهذا شأنُ الإنسان من حيث ذاتُه ونفسُه، وخروجُه عن هذه الصفات بفضلِ ربِّه، وتوفيقه له، ومنَّته عليه، لا من ذاته؛ فليس له من ذاته إلا هذه الصفات، وما به من نعمةٍ فمن الله وحده، فهو الذي حبَّب إلى عبده الإيمان، وزيَّنَه في قلبه، وكرَّه إليه الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ، وهو الذي كتب في قلبه الإيمان، وهو الذي ثبَّت أنبياءه ورسله وأولياءه على دينه، وهو الذي يصرِف عنهم السوءَ والفحشاء.

وكان يُحدىٰ بين يدي النبي ﷺ:



والله لولا اللّهُ ما اهتدَينا ولا تصَدَّقْنا ولا صَلَّيْنا(١)

وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠]. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٦].

وقالت طائفة أخرىٰ، وهو جوابُ أبي الوفاء بن عَقيل، قال: الجوابُ الجيِّد عندي أن يقال: الإنسانُ بسعيه وحسن عِشرته اكتسب الأصدقاء، وأولَدَ الأولاد، ونكح الأزواج، وأسدىٰ الخير، وتودَّد إلىٰ الناس، فترحَّموا عليه، وأهدَوا له العباداتِ؛ فكان ذلك أثرَ سعيه، كما قال النبي ﷺ: «**إنَّ أطيبَ ما أكل الرجلُ مِن كَسْبه، وإنَّ ولَدَه مِنْ كَسْبِه**»(٢).

ويدلُّ عليه قولُه في الحديث الآخر: «**إذا مات العبدُ انقطع عملُه إلا من ثلاث: علمٍ ينتفع به من بعده، وصدقةٍ جارية عليه، أو ولدٍ صالح يدعو له**»(٣).

وهذا جوابٌ متوسِّط يحتاج إلىٰ تمام، فإنَّ العبدَ بإيمانه وطاعته لله ورسوله قد سعىٰ في انتفاعه بعمل إخوانه المؤمنين مع عمله، كما ينتفع بعملهم في الحياة الدنيا مع عمله، فإن المؤمنين ينتفعُ بعضهم بعمل بعض في الأعمال التي يشتركون فيها، كالصلاة في جماعة، فإن كلَّ واحد منهم تُضاعَف صلاتُه إلىٰ سبع وعشرين(٤) ضِعفًا، لمشاركة غيره له في الصلاة، فعملُ غيره كان سببًا لزيادة أجره، كما أنَّ عملَه سببٌ لزيادة أجر الآخر، بل قد قيل: إنَّ الصلاةَ يُضاعَف ثوابُها بعدد المصلِّين،

---

(١) حدا بهذا الرجز عامر بن الأكوع في غزوة خيبر. أخرجه البخاري (٤١٩٦)، ومسلم (١٨٠٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٢٨)، والنسائي (٤٤٤٩)، والإمام أحمد (٢٤٠٣٢)، وصححه ابن حبان (٤٢٥٩).

(٣) سبق تخريجه (ص: ١٠٣).

(٤) أخرجه مسلم (٦٥٠).

وكذلك اشتراكهم في الجهاد والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون علىٰ البرِّ والتقوىٰ. وقد قال النبي ﷺ: «**المؤمنُ للمؤمن كالبُنيان يشُدُّ بعضُه بعضًا**»، وشبَّكَ بين أصابعه[١]، ومعلوم أنَّ هذا بأمورِ الدين أولىٰ منه بأمور الدنيا.

فدخولُ المسلم مع جملة المسلمين في عقد الإسلام من أعظم الأسباب في وصول نفع كلٍّ من المسلمين إلىٰ صاحبه في حياته وبعد مماته، ودعوة المسلمين تُحيط من ورائهم، وقد أخبر الله سبحانه عن حَمَلة العرش ومَن حولَه أنهم يستغفرون للمؤمنين ويَدْعون لهم، وأخبر عن دعاء رُسُله واستغفارهم للمؤمنين، كنوحٍ وإبراهيمَ ومحمدٍ ﷺ، فالعبدُ بإيمانه قد تسبَّب إلىٰ وصول هذا الدعاء إليه، فكأنه من سَعْيه.

يُوضِّحه أنَّ الله سبحانه جعل الإيمان سببًا لانتفاع صاحبه بدعاء إخوانه من المؤمنين وسَعْيهم، فإذا أتىٰ به فقد سعىٰ في السَّببِ الذي يُوصل إليه ذلك. وقد دلَّ علىٰ ذلك قول النبي ﷺ لعمرو بن العاص: «**إن أباك لو كان أقرَّ بالتوحيد نفعَه ذلك**»[٢]، يعني العِتقَ الذي فعل عنه بعد موته، فلو أتىٰ بالسبب لكان قد سعىٰ في عملٍ يُوصِل إليه ثوابَ العتق. وهذه طريقة لطيفة حسنة جدًّا.

وقالت طائفةٌ أخرىٰ: **القرآن لم يَنْفِ انتفاعَ الرجل بسعي غيره، وإنما نفى مُلكَه لغير سعيه، وبين الأمرين من الفرق ما لا يَخفى، فأخبر تعالى أنَّه لا يملِك إلا سعيَه، وأما سعيُ غيره فهو مِلْكٌ لساعيه، فإن شاء أن يبذله لغيره، وإن شاء أن يُبقيَه لنفسه، وهو سبحانه لم يقُل: لا يَنتفع إلا بما سعى، وكان شيخنا يختار هذه الطريقة ويرجِّحها.**

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٨٨٣)، وإسناده حسن.

فصل

ص: ٣٨٤

المنفي في القرآن هو عقاب العبد بعمل غيره

وكذا قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤]، علىٰ أنَّ هذه الآيةَ أصرحُ في الدلالة علىٰ أنَّ سِياقَها إنما ينفي عقوبةَ العبد بعمل غيره وأخذَه بجَرِيرته، فإنَّه سبحانه قال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤] فنفىٰ أن يُظلَم بأن يُزادَ عليه في سيئاته، أو يُنقَص من حسناته، أو يُعاقَب بعمل غيره. ولم يَنْفِ أن ينتفعَ بعمل غيره، لا علىٰ وجه الجزاء، فإنَّ انتفاعَه بما يُهدَىٰ إليه ليس جزاءً علىٰ عمله، وإنما هو صدقةٌ تصدَّق الله بها عليه، وتفضَّل بها عليه من غير سَعْي منه؛ بل وهَبه ذلك علىٰ يدِ بعض عباده، لا علىٰ وجه الجزاء.

فصل

ص: ٣٨٥

انقطاع عمل الشخص نفسه لا يعني انقطاع الانتفاع بعمل غيره

وأمَّا استدلالكم بقوله ﷺ: «إذا مات العبدُ انقطعَ عملُه...»[1]، فاستدلالٌ ساقط، فإنَّه ﷺ لم يقل: انقطع انتفاعُه، وإنَّما أخبر عن انقطاع عمله. وأمَّا عملُ غيره فهو لِعامله، فإن وهَبه له فقد وصل إليه ثوابُ عمل العامل، لا ثوابُ عمله هو، فالمنقطعُ شيءٌ، والواصلُ إليه شيء آخرُ.

وكذلك الحديثُ الآخر، وهو قوله: «**إنَّ ممَّا يلحَقُ الميِّتَ من حسناته وعمله...**»[2]. فلا ينفي أن يلحقَه غيرُ ذلك من عمل غيرِه وحسناتِه.

---

(١) سبق تخريجه (ص: ١٠٣).

(٢) سبق تخريجه (ص: ١٠٣).

ص: ٣٨٦

الفرق بين الإيثار بالقرب وبين الإيثار بثوابها

فصل

وأمَّا قولكم: الإيثارُ بسبب الثواب مكروهٌ - وهو مسألة الإيثار بالقُرَب - فكيف الإيثار بنفس الثواب الذي هو الغاية! فقد أجيب عنه بأجوبة:

أحدُها: أنَّ الإيثارَ بالقُرَب يدلُّ علىٰ قِلَّة الرغبة فيها، والتأخير عن فعلها، فلو ساغ الإيثار بها لأفضىٰ إلىٰ التقاعد عنها والتكاسل والتأخُّر، بخلافِ إهداء ثوابها، فإنَّ العاملَ يحرِص عليها لأجل ثوابها، لينتفعَ به، أو ينفعَ به أخاه المسلم. فبينهما فرقٌ ظاهرٌ.

الجواب الثاني: أنَّ الله سبحانه يحبُّ المبادرة والمسارعة إلىٰ خدمته، والتنافس فيها، فإنَّ ذلك أبلغُ في العبودية، فإنَّ الملوك تحبُّ المسارعة والمنافسة في طاعتها وخدمتها؛ فالإيثار بذلك مُنافٍ لمقصود العبودية، فإنَّ الله سبحانه أمر عبدَه بهذه القربة إما إيجابًا وإما استحبابًا، فإذا آثرَ بها تركَ ما أُمِرَ به، وولَّاه غيرَه، بخلاف ما إذا فعل ما أُمِرَ به طاعةً وقُربةً، ثم أرسل ثوابَه إلىٰ أخيه المسلم. وقد قال تعالىٰ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [البقرة: ١٤٨]، ومعلومٌ أن الإيثارَ بها يُنافي الاستباقَ إليها والمسارعةَ.



فصل

ص: ٣٨٨

وأما قولكم: لو ساغ الإهداء إلىٰ الميِّت لساغ إلىٰ الحيِّ؛ فجوابه:

من قال بجواز إهداء الثواب للحي

أنّه قد ذهب إلىٰ ذلك بعض الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم، قال القاضي: وكلامُ أحمد لا يقتضي التخصيصَ بالميِّت، فإنه قال: «يفعل الخير ويجعل نِصفَه لأبيه وأمِّه»، ولم يفرِّق[1].

واعترض عليه أبو الوفاء بن عَقيل وقال: هذا فيه بُعْد، وهو تلاعبٌ بالشرع، وتصرُّفٌ في أمانة الله، وإسجالٌ علىٰ الله سبحانه بثوابٍ علىٰ عمل ينقله إلىٰ غيره. وبعد الموت قد جعل لنا طريقًا إلىٰ إيصال النفع كالاستغفار والصلاة علىٰ الميِّت.

قلت: الفرقَ بين الحي والميّت أنّ الحيَّ ليس بمحتاج كحاجة الميت، إذ يمكنه أن يباشر ذلك العمل أو نظيره، فعليه اكتسابُ الثواب بنفسه وسَعْيه، بخلاف الميت.

وأيضًا: فإنه يفضي إلىٰ اتِّكال بعض الأحياء علىٰ بعض، وهذه مفسدة كبيرة، فإنَّ أربابَ الأموال إذا فهموا ذلك واستشعروه استأجروا من يفعل ذلك عنهم، فتصير الطاعاتُ معاوضاتٍ، وذلك يفضي إلىٰ إسقاط العباداتِ والنوافل، ويصير ما يُتقرَّب به إلىٰ الله يُتقرَّب به إلىٰ الآدميين، فيخرج عن الإخلاص، فلا يحصل الثوابُ لواحد منهما، ونحن نمنع من أخذ الأجرة عن كل قربة، ونحبطها بأخذ الأجرة عليها، كالقضاء والفُتيا وتعليم العلم والصلاة وقراءة القرآن وغيرها، فلا يُثيب الله عليها إلا لمخلصٍ أخلصَ العملَ لوجهه فإذا فعله للأجرة لم يُثَب عليه

---

(١) انظر: الفروع (٣/ ٤٣٠).



الفاعلُ ولا المستأجِرُ، فلا يليق بمحاسن الشرع أن يجعلَ العباداتِ الخالصةَ له معاملاتٍ يُقصَد بها المعاوضات والأكساب الدنيوية، وفارَقَ قضاءَ الدُّيون وضمانَها، فإنَّها حقوقُ الآدميين ينوب بعضهم فيها عن بعض، فلذلك جازت في الحياة وبعد الموت.

فصل

ص: ٣٩١

جواز إهداء جزء من الثواب للميت

وأما قولكم: لو ساغ ذلك لساغ إهداءُ نصف الثواب ورُبعه إلىٰ الميت، فالجواب من وجهين:

أحدهما: منع الملازمة، فإنكم لم تذكروا عليها دليلاً إلا مجرَّد الدعوىٰ.

الثاني: التزام ذلك والقول به، نصَّ عليه الإمام أحمد في رواية محمد بن يحيىٰ الكحَّال.

ووجهُ هذا أنَّ **الثوابَ ملكٌ له، فله أن يهديَه جميعَه، وله أن يهديَ بعضَه، يوضِّحه: أنه لو أهداه إلى أربعةٍ مثلاً يحصل لكلٍّ منهم ربعُه، فإذا أهدى الربعَ وأبقى لنفسه الباقي جاز، كما لو أهداه إلى غيره.**



ص: ٣٩٢

فصل

شرط وجود نية الإهداء عند العمل

وأما قولكم: لو ساغ ذلك لساغ إهداؤه بعد أن يعملَه لنفسه، وقد قلتم: إنَّه لابد أن يُنوىٰ حالَ الفعل إهداؤه إلىٰ الميِّت، وإلا لم يصل.

فالجواب: أنّ هذه المسألة غير منصوصة عن أحمد، ولا هذا الشرط في كلام المتقدِّمين من أصحابه، وإنَّما ذكره المتأخِّرون، كالقاضي وأتباعه.

قال ابنُ عَقيل: إذا فعل طاعةً من صلاة وصيام وقراءة قرآن وأَهداها بأنْ جعل ثوابَها للميت المسلم، فإنه يصلُ إليه ذلك وينفعه، بشرط أن تتقدَّم نيةُ الهدية علىٰ الطاعة أو تقارنها.

وسِرُّ المسألة أنَّ شرط حصول الثواب أن يقع لمن أُهدي له أولاً، أو يجوز أن يقعَ للعامل، ثم ينتقلُ عنه إلىٰ غيره؟ فمن شرَطَ أن ينويَ قبل الفعل أو الفراغ منه وصولَه قال: لو لم ينوِه وقع الثوابُ للعامل، ولا يقبل انتقاله عنه إلىٰ غيره، فإن الثوابَ يترتَّب علىٰ العمل ترتُّبَ الأثر علىٰ مُؤثِّره.

ويُؤيِّد هذا أنَّ الذين سألوا النبيَّ ﷺ عن ذلك لم يسألوه عن إهداء ثواب العمل بعده، وإنما سألوه عما يفعلونه عن الميِّت، كما[1] قال سعد: أينفعها إن تصدَّقتُ عنها؟ ولم يقل: أن أُهديَ لها ثواب ما تصدَّقتُ به عن نفسي، وكذلك قول المرأة الأخرىٰ: أفأحجُّ عنها؟ وقول الرجل الآخر: أفأحجُّ عن أبي؟ فأجابهم بالإذن في الفعل عن الميت، لا بإهداء ثواب ما عملوه لأنفسهم إلىٰ موتاهم، فهذا لا يُعرف أنه ﷺ سُئل عنه قطُّ، ولا يُعرف عن أحد من الصحابة أنه فعله، وقال: اللهم اجعل

---

(١) سبق تخريج الأحاديث الآتية (ص: ١٠٧، ١٠٩).

لفلان ثوابَ عملي المتقدِّم، أو ثوابَ ما عملتُه لنفسي.

فهذا سِرُّ الاشتراط، وهو أفقهُ، ومن لم يشترط ذلك يقول: الثواب للعامل، فإذا تبرَّع به وأهداه إلىٰ غيره كان بمنزلة ما يُهديه إليه من ماله.

فصل

ص: ٣٩٩

الرد على من قسم العبادات من حيث جواز النيابة وعدمها

وأما قولكم: **العباداتُ نوعان**: نوعٌ تدخله النيابة، فيصل ثوابُ إهدائه إلىٰ الميت، ونوعٌ لا تدخله فلا يصل ثوابه.

فهذا هو نفس المذهب والدعوىٰ، فكيف تحتجُّون به؟ ومن أين لكم هذا الفرق؟ فأيُّ كتابٍ، أم أيُّ سُنَّة، أم أيُّ اعتبار دلَّ عليه حتىٰ يجب المصير إليه.

وقد شرع النبيُّ ﷺ الصومَ عن الميت مع أنَّ الصومَ لا تدخله النيابة، وشرع للأمَّة أن ينوب بعضهم عن بعض في أداء فرض الكفاية، فإذا فعله واحدٌ ناب عن الباقين في فعله، وسقطَ عنهم المأثم، وشرع لقيِّم الطفل الذي لا يعقل أن ينوب عنه في الإحرام وأفعال المناسك، وحكم له بالأجر بفعل نائبه[1]

فقد رأيت كيف عَدَّت هذه الشريعة الكاملة أفعالَ البِرِّ من فاعلها إلىٰ غيرهم،

والذي أوصل ثوابَ الحج والصدقة والعِتق هو بعينه الذي يُوصِل ثوابَ الصيام والصلاة والقراءة والاعتكاف، وهو: إسلامُ المُـهدَىٰ إليه، وتبرُّع المُـهدي وإحسانُه، وعدمُ حَجْر الشارع عليه في الإحسان، بل نَدْبُه إلىٰ الإحسان بكل طريق.

(١) أخرجه مسلم (١٣٣٦).

فصل

ص: ٤١٣

السنة لم تشترط التلفظ بالإهداء

فإن قيل: فهل تشترطون في وصولِ الثواب أن يُهدِيَه بلفظه، أم يكفي في وصوله مجرّدُ نية العامل أن يُهديه إلىٰ الغير؟

قيل: السُّنَّة لم تشترط التلفُّظَ بالإهداء في حديث واحد، بل أطلق ﷺ الفعلَ عن الغير، كالصوم والحجِّ والصدقة، ولم يَقُلْ لفاعِل ذلك: قل: اللهم هذا عن فلان بن فلان، والله سبحانه يعلمُ نيةَ العبد وقصدَه بعمله، فإن ذكره جاز، وإن ترك ذِكْرَه واكتفىٰ بالنية والقصد وصل إليه، ولا يحتاج أن يقول: اللهم إني صائمٌ غدًا عن فلان بن فلان، ولهذا - والله أعلم - اشترطَ مَن اشترط نيةَ الفعل عن الغير قبله، ليكونَ واقعًا بالقصدِ عن الميت، فأمَّا إذا فعله لنفسه، ثم نوىٰ أن يجعلَ ثوابَه للغير، لم يَصِرْ للغير بمجرد النية، كما لو نوىٰ أن يَهَب أو يُعتِقَ أو يتصدَّقَ لم يحصل ذلك بمجرد النية.

ومما يوضِّح ذلك أنه لو بنىٰ مكانًا بنية أن يجعلَه مسجدًا أو مدرسةً أو سِقايةً ونحو ذلك صار وَقْفًا بفعله مع النية، ولم يحتَجْ إلىٰ تلفظ، وكذلك لو أعطىٰ الفقير مالاً بنية الزكاة سقطَتْ عنه الزكاة، وإن لم يتلفَّظ بها.

وكذلك لو أدَّىٰ عن غيره دَيْنًا، حيًّا كان أو ميتًا، سقط من ذمَّته، وإن لم يقُلْ: هذا عن فلان.

فإن قيل: فما الأفضل أن يُهدَى إلى الميت؟

قيل: الأفضل ما كان أنفعَ في نفسه، فالعتْقُ عنه والصدقةُ أفضلُ من الصيام عنه، وأفضلُ الصدقة ما صادفتْ حاجةً من المتصدَّق عليه، وكانت دائمة مستمرَّة.

ومنه قول النبيِّ ﷺ: «أفضلُ الصدقة سَقْيُ الماء»[1]، وهذا في موضع يقلُّ فيه الماء، ويكثُر فيه العطش؛ وإلا فسَقْيُ الماء على الأنهار والقُنيِّ لا يكون أفضلَ من إطعام الطعام عند الحاجة.

وكذلك الدعاء والاستغفار له إذا كان بصدق من الداعي وإخلاص وتضرُّع، فهو في موضعه أفضل من الصدقة عنه، كالصلاة على جنازته، والوقوف للدعاء على قبره.

وبالجملة، فأفضلُ ما يُهدَى إلى الميت: العتْق، والصدقة، والاستغفار له، والدعاء له، والحجُّ عنه.

وأمَّا قراءةُ القرآن وإهداؤها له تطوعًا بغير أجرة، فهذا يصل إليه، كما يصل ثوابُ الصوم والحجِّ.

فإن قيل: فهذا لم يكن معروفًا في السلف، ولا يمكن نقلُه عن واحد منهم مع شدة حرصهم علىٰ الخير، ولا أرشَدهم النبيُّ ﷺ إليه، وقد أرشدهم إلىٰ الدعاء والاستغفار والصدقة والحجِّ والصيام، فلو كان ثوابُ القراءة يصل لأرشدَهم إليه، ولكانوا يفعلونه.

فالجواب: أنَّ مُوردَ هذا السؤال إن كان معترِفًا بوصول ثواب الحجِّ والصيام والدعاء والاستغفار، قيل له: ما هذه الخاصيَّة التي مَنعتْ وصولَ ثواب القرآن، واقتضَتْ وصول ثواب هذه الأعمال، وهل هذا إلا تفريق بين المتماثلات؟! وإن لم يعترِفْ بوصول تلك الأشياء إلىٰ الميت فهو محجوج بالكتاب والسنة والإجماع وقواعد الشرع.

---

(١) سبق تخريجه (ص: ١٠٥).

وأما السبب الذي لأجله لم يظهر ذلك في السلف، فهو أنهم لم يكن لهم أوقاف علىٰ من يقرأ ويُهدي إلىٰ الموتىٰ، ولا كانوا يعرفون ذلك البتة، ولا كانوا يقصدون القبر للقراءة عنده كما يفعله الناس اليوم، ولا كان أحدهم يُشهِد من حضرَه من الناس علىٰ أنَّ ثواب هذه القراءة لفلان الميت، بل ولا ثواب هذه الصدقة والصوم.

ثم يقال لهذا القائل: لو كُلِّفت أن تنقل عن واحد من السلف أنه قال: اللهم ثوابُ هذا الصوم لفلان لعجزتَ، فإنَّ القومَ كانوا أحرصَ شيء علىٰ كتمان أعمال البرِّ، فلم يكونوا لِيُشهِدوا علىٰ الله بإيصال ثوابها إلىٰ أمواتهم.

فإن قيل: فرسول الله ﷺ أرشدَهم إلىٰ الصوم والصدقة والحجِّ دون القراءة.

قيل: هو ﷺ لم يبتدئهم بذلك، بل خرج ذلك منه مخرجَ الجواب لهم، فهذا سأله عن الحجِّ عن ميته، فأذِنَ له، وهذا سأله عن الصيام، فأَذِنَ له، وهذا سأله عن الصدقة فأَذِنَ له، ولم يمنعهم مما سوىٰ ذلك. وأيُّ فَرْقٍ بين وصول ثواب الصوم الذي هو مجرَّدُ نية وإمساك، وبين وصول ثواب القراءة والذكر؟

والقائل إنَّ أحدًا من السلف لم يفعل ذلك قائلٌ ما لا علْمَ له به، فإن هذه شهادة علىٰ نفي ما لم يعلمه، فما يُدريه أنَّ السلف كانوا يفعلون ذلك، ولا يُشهِدون من حضَرَهم عليه، بل يكفي اطِّلاع علَّام الغيوب علىٰ نيَّاتهم ومقاصدهم، لا سيَّما والتلفظُ بنيَّة الإهداء لا يُشترَط، كما تقدم.

وسِرُّ المسألة: أنَّ الثوابَ مِلكٌ للعامل، فإذا تبرَّع به وأهداه إلىٰ أخيه المسلم أوصله الله إليه، فما الذي خَصَّ من هذا ثوابَ قراءة القرآن، وحجَرَ علىٰ العبد أن يُوصله إلىٰ أخيه؟ وهذا عملُ الناس حتىٰ المنكرين في سائر الأعصار والأمصار من غير نكيرٍ من العلماء.

فإن قيل: فما تقولون في الإهداء إلىٰ رسول الله ﷺ؟

قيل: من الفقهاء المتأخرين من استحبَّه، ومنهم من لم يستحِبَّه، ورآه بدعةً؛ لأنَّ الصحابة لم يكونوا يفعلونه، وأنَّ النبيَّ ﷺ له أجرُ كل من عمِل خيرًا من أمته، من غير أن يَنقُص من أجر العامل شيء؛ لأنه هو الذي دلَّ أمَّتَه علىٰ كلِّ خير، وأرشدهم، ودعاهم إليه، و «**من دعا إلىٰ هُدًىٰ، فله من الأجرِ مثلُ أجور من اتبعه، من غير أن يَنقُص من أجورهم شيء**»[1]، وكلُّ هدًىٰ وعلم فإنما ناله أمته علىٰ يده، فله مثلُ أجر من اتَّبعه، أهداه إليه أو لم يُهْدِه، والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

فصل

وأما المسألة السابعة عشرة

وهي: هل الروح قديمة أم محدثة مخلوقة؟

ص: ٤٢٠

وإذا كانت مُحدَثة مخلوقة، وهي من أمر الله، فكيف يكون أمرُ الله مُحدَثًا مخلوقًا؟ وقد أخبر سبحانه أنه نفخَ في آدم من روحه، فهذه الإضافةُ إليه هل تدلُّ علىٰ أنها قديمة أم لا؟ وما حقيقة هذه الإضافة؟ فقد أخبر عن آدم أنه خلَقه بيده، ونفخَ فيه من روحه، فأضاف اليد والروح إليه إضافة واحدة.

فهذه مسألةٌ زلَّ فيها عالَم، وضلَّ فيها طوائف من بني آدم، وهدىٰ الله أتباعَ رسوله فيها للحق المبين والصواب المستبين، فأجمعت الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - علىٰ أنها محدَثةٌ مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبَّرة. هذا معلومٌ بالاضطرار من دين الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - كما يُعلَم بالاضطرار من دينهم أنَّ العالَم حادث، وأنَّ معاد الأبدان واقع، وأنَّ الله وحده الخالق، وكلُّ ما سواه مخلوق له.

وقد انطوىٰ عصرُ الصحابة والتابعين وتابعيهم - وهم القرون المفضَّلة - علىٰ ذلك من غير اختلاف بينهم في حدوثها، وأنها مخلوقة حتىٰ نبغَت نابغةٌ ممن قَصَر فهمه في الكتاب والسُّنَّة، فزعم أنها قديمة غير مخلوقة. واحتجَّ علىٰ ذلك بأنها من أمر الله، وأمرُه غير مخلوق، وبأن الله تعالىٰ أضافها إليه كما أضاف إليه علمه وكتابه وقدرته وسمعه وبصره ويدَه. وتوقَّف آخرون، وقالوا: لا نقول: مخلوقة ولا غير مخلوقة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: روحُ الآدمي مخلوقةٌ مبتدَعةٌ باتِّفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة، وقد حَكىٰ إجماعَ العلماء علىٰ أنها مخلوقة غيرُ واحد من أئمة المسلمين، مثل محمد بن نصر المروزي الإمام المشهور الذي هو من أعلم أهل زمانه بالإجماع والاختلاف، وكذلك أبو محمد بن قُتيبة قال في كتاب «اللفظ»[٢].

وقد نصَّ علىٰ ذلك الأئمة الكبار، واشتدَّ نكيرُهم علىٰ من يقول ذلك في روح عيسىٰ ابن مريم، فكيف بروح غيره! كما ذكره الإمام أحمد فيما كتبه في محبِسه في «الرد علىٰ الزنادقة والجهمية»[٣].

فصل

ص: ٤٢٧

الأدلة على خلق الأرواح

والذي يدلُّ علىٰ خَلْقها وجوه:

أحدها: قول الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر: ٦٢]، فهذا لفظٌ عامٌّ لا تخصيصَ فيه بوجهٍ ما، ولا يدخل في ذلك صفاتُه، فإنها داخلةٌ في مُسمَّىٰ اسمه، فالله سبحانه هو الإله الموصوف بصفات الكمال، فعِلمُه وقدرتُه وحياتُه وإرادتُه وسمعُه وبصرُه وسائرُ صفاته داخلٌ في مسمَّىٰ اسمه، ليس داخلاً في الأشياء المخلوقة، كما لم تدخُل ذاته فيها، فهو سبحانه بذاته وصفاته الخالقُ، وما سواه مخلوقٌ، ومعلومٌ قطعًا أنَّ الروحَ ليست هي الله، ولا صفةً من صفاته، وإنما هي مصنوعٌ من مصنوعاته؛ فوقوعُ الخَلْق عليها كوقوعه علىٰ الملائكة والجنِّ والإنس.

(١) انظر: مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٢١٦ - ٢٢٠).

(٢) كتاب الاختلاف في اللفظ والرد علىٰ الجهمية (٦٦).

(٣) (ص٣١ - ٣٢).

الوجه الثاني: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦].

الوجه الثالث: قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، فلو كانت روحه قديمةً لكان الإنسانُ لم يزَل شيئًا مذكورًا، فإنه إنما هو إنسانٌ بروحه، لا ببدنه فقط، كما قيل:

يا خادمَ الجسـمِ كم تشقَى بخدمته   فأنت بالروح، لا بالجسم، إنسانُ

الوجه الرابع: النصوصُ الدالَّة علىٰ خلق الملائكة، وهم أرواحٌ مستغنية عن أجسادٍ تقوم بها، وهم مخلوقون قبلَ خلق الإنسان وروحِه، فإذا كان الملَك الذي يُحدِث الروحَ في جسد ابن آدم بنفخته مخلوقًا، فكيف تكون الروحُ الحادثةُ بنفخه قديمةً؟

الوجه الخامس: حديثُ أبي هريرة الذي في «صحيح البخاري» وغيره عن النبي ﷺ: «**الأرواح جنودٌ مُجنَّدةٌ، فما تعارفَ منها ائتلفَ، وما تَناكرَ منها اختلفَ**»[1]. والجنود المجنَّدة لا تكون إلا مخلوقة.

الوجه السادس: أن الروح تُوصف بالوفاة والقبض والإمساك والإرسال، وهذا شأنُ المخلوق المحدَث المربوب، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢]، والأنفس هاهنا هي الأرواح قطعًا.

وكان رسول الله ﷺ يقول عند نومه: «**اللهم أنت خلقتَ نفسي وأنت تَوَفَّاها،**

---

(١) سبق تخريجه في (ص: ٩٤).

لك مماتها ومحياها، فإن أمسكتَها فارحَمْها، وإن أرسلتَها فاحفَظْها بما تحفظُ به عبادَك الصالحين»(١).

وهو تعالىٰ بارئ النفوس كما هو بارئُ الأجساد، قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]، قيل: من قبل أن نبرأ المصيبة، وقيل: من قبل أن نبرأ الأرض، وقيل: من قبل أن نبرأ الأنفس، وهو أولىٰ؛ لأنه أقرب مذكور إلىٰ الضمير، ولو قيل: يرجع إلىٰ الثلاثة أي: من قبل أن نبرأ المصيبة والأرض والأنفس لكان أوجَه.

وكلُّ ما تقدَّم ذكرُه في هذا الجواب من أحكام الروح وشأنها ومستقرِّها بعد الموت، فهو دليلٌ علىٰ أنها محدَثة مخلوقة مربوبة مدبَّرة، ليست بقديمةٍ، وهذا الأمر أوضحُ من أن تُساقَ الأدلةُ عليه لولا ضُلَّالٌ من المتصوفة وأهل البدع، ومن قصَر فهمُه في كتاب الله وسنة رسوله، فأُتِيَ من سوء الفهم لا من النصِّ؛ تكلَّموا في أنفسهم وأرواحهم بما دلَّ علىٰ أنهم من أجهل الناس بها.

فصل

ص: ٤٣٧

شبهات من قال بأن الأرواح غير مخلوقة

وأمَّا ما احتجَّت به هذه الطائفة: فأمَّا ما أتَوا به من اتِّباع متشابه القرآن، والعدول عن محكمه - وهذا شأن كلِّ ضالٍّ مبتدع - فمحكمُ القرآن من أوله إلىٰ آخره يدلُّ علىٰ أن الله تعالىٰ خالق الأرواح ومبدعها.

---

(١) وهذا اللفظ مركب من حديثين: حديث ابن عمر الذي أخرجه مسلم (٢٧١٢)، وحديث أبي هريرة الذي أخرجه البخاري (٦٣٢٠، ٧٣٩٣)، ومسلم (٢٧١٤).

وأما قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، فمعلومٌ قطعًا أنه ليس المرادُ هاهنا بالأمر الطلبَ الذي هو أحد أنواع الكلام، فيكون المراد أنَّ الروح كلامه الذي يأمر به، وإنما المراد بالأمر هاهنا: المأمور، وهو عُرفٌ مستعمل في لغة العرب، وفي القرآن منه كثير، كقوله تعالىٰ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] أي: مأموره الذي قدَّره وقضاه، وقال له: كن، وكذلك قوله: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ [هود: ١٠١]، أي: مأموره الذي أمرَ به من إهلاكهم. وكذلك قوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧].

وكذلك لفظ الخَلْق يستعمل بمعنىٰ المخلوق كثيرًا، كقوله: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١١]، والرحمة تُستعمل بمعنىٰ المخلوق بالرحمة، كقوله للجنة: «**أنت رحمتي**»[1].

فليس في قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] ما يدل علىٰ أنها قديمة غير مخلوقة بوجهٍ ما، وقد قال بعض السلف في تفسيرها: جرىٰ بأمر الله في أجساد الخلق، وبقدرته استقرَّ.

وهذا بناء علىٰ أنَّ المراد بالروح في الآية روح الإنسان، وفي ذلك خلافٌ بين السلف والخلف، وأكثرُ السلف بل كلُّهم علىٰ أنَّ الروح المسؤول عنها في الآية ليست أرواحَ بني آدم، بل هو الروح الذي أخبر الله عنه في كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة، وهو ملَك عظيم.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٠) ومسلم (٢٨٤٦).

و«الروح» في القرآن على عدَّة أوجه:

أحدها: الوحي، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. وقوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]، وسُمِّي الوحيُ روحًا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح.

الثاني: القوة والثَّبات والنُّصرة التي يؤيد بها من يشاء من عباده المؤمنين، كما قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

الثالث: جبريل، كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، وهو روح القدس، قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢].

الرابع: الروح التي سأل عنها اليهود، فأجيبوا بأنها أمرٌ من أمر الله. وقد قيل: إنها الروح المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ [النبأ: ٣٨]، وإنها الروح المذكورة في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ [القدر: ٤].

الخامس: المسيح ابن مريم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

وأما أرواحُ بني آدم، فلم يقع تسميتها في القرآن إلا بالنفس، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]، وقال: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، وقال: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وأما في السُّنَّة فجاءت بلفظ النفس والروح.

والمقصود أنَّ كونها من أمر الله لا يدلُّ علىٰ قِدَمها وأنها غير مخلوقة.

فصل

ص: ٤٤٧

المضاف إلى الله تعالى نوعان

وأما استدلالُهم بإضافتها إليه سبحانه بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحِجر: ٢٩، ص: ٧٢]، **فينبغي أن يُعلمَ أنَّ المضاف إلىٰ الله سبحانه نوعان:**

صفاتٌ لا تقوم بأنفسها، كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر، فهذه إضافةُ صفةٍ إلىٰ الموصوف بها، فعلمُه وكلامُه وإرادتُه وقدرتُه وحياتُه صفاتٌ له غير مخلوقة. وكذلك وجهه ويده سبحانه.

والثاني: إضافةُ أعيانٍ منفصلةٍ عنه، كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح، فهذه إضافة مخلوقٍ إلىٰ خالقه ومصنوعٍ إلىٰ صانعه، لكنها إضافة تقتضي تخصيصًا وتشريفًا يتميَّز به المضاف إليه عن غيره، كـ «بيت الله»، وإن كانت البيوتُ كلها مِلْكًا له. وكذلك «ناقة الله»، والنوقُ كلُّها مِلْكه وخَلْقه، لكن هذه إضافةٌ إلىٰ إلهيته تقتضي محبتَه لها وتكريمه وتشريفَه، بخلاف الإضافة العامة إلىٰ ربوبيّته حيث تقتضي خلقَه وإيجاده.

فالإضافةُ العامَّةُ تقتضي الخلق والإيجاد، والخاصَّةُ تقتضي الاختيار. والله يخلق ما يشاء ويختار مما خلقه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، وإضافةُ الروح إليه من هذه الإضافة الخاصة، لا من العامة، ولا من باب إضافة الصِّفات، فتأمَّل هذا الموضع، فإنه يخلِّصك من ضلالات كثيرة وقع فيها من شاء الله من الناس.

فإن قيل: فما تقولون في قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ﴾ [الحجر: ٢٩]، فأضاف النَّفخ إلىٰ نفسه؟ وهذا يقتضي المباشرةَ منه تعالىٰ كما في قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

ولهذا قَرَنَ بينهما في الذكر في الحديث الصحيح في قوله ﷺ: «**فيأتون آدمَ، فيقولون: أنت آدم أبو البشر، خلقَكَ الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجَدَ لك ملائكتَه، وعلَّمك أسماءَ كلِّ شيء**»[1]، فذكروا لآدم أربعَ خصائص اختصَّ بها عن غيره، ولو كانت الروح التي فيه إنما هي من نفخة الملك لم يكن له خَصيصةٌ بذلك، وكان بمنزلة المسيح، بل وسائر أولاده، فإنَّ الروح حصلتْ فيهم من نفخة الملك. وقد قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] فهو الذي سوَّاه بيده، وهو الذي نفخ فيه من روحه؟

قيل: هذا الموضع هو الذي أوجَبَ لهذه الطائفة أن قالت بِقدَم الروح، وتوقَّف فيها آخرون، ولم يفهموا مرادَ القرآن، فأما الروح المضافة إلىٰ الربِّ، فهي روحٌ مخلوقة أضافها إلىٰ نفسه إضافةَ تخصيص وتشريف، كما بيَّناه، وأما النفخ فقد قال تعالىٰ في مريم: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، وقد أخبر في موضع آخر أنه أرسل إليها الملَك، فنفخ في فرجها، فكان النفخُ مضافًا إلىٰ الله أمرًا وإذنًا، وإلىٰ الرسول مباشرة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).

ص: ٤٥٣

فصل
وأمَّا المسألة الثامنة عشرة
وهي: هل تقدَّم خلقُ الأرواح على الأجساد أو تأخَّر خلقُها عنها؟

فهذه المسألة، للناس فيها قولان معروفان، حكاهما شيخُ الإسلام وغيره.

وممن ذهب إلىٰ تقدُّم خَلْقها محمد بن نصر المروزي وأبو محمد بن حزم، وحكاه ابن حزم إجماعًا[1].

ونحن نذكر حججَ الفريقين، وما هو الأولىٰ منها بالصواب.

قال مَن ذهبَ إلىٰ تقدمُّ خلقها علىٰ خَلْق البدن: قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾ [الأعراف: ١١]، قالوا: «ثُمَّ» للترتيب والمُهلة، فقد تضمَّنت الآية أنَّ خَلْقَنا مقدَّمٌ علىٰ أمر الله للملائكة بالسجود لآدم، ومن المعلوم قطعًا أنَّ أبدانَنا حادثةٌ بعد ذلك، فعُلِم أنها الأرواح.

قالوا: ويدلُّ عليه قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّٰتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، قالوا: وهذا الاستنطاق والإشهاد إنما كان لأرواحنا، إذ لم تكن الأبدان حينئذ موجودة.

ففي «الموطأ»[2]: عن مسلم بن يسار الجُهني، أنَّ عمر بن الخطاب سُئل عن

(١) الفصل لابن حزم (٢/ ٣٢٢).

(٢) برقم (١٥٩٣)، ومن طريقه أبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥)، والإمام أحمد (٣١١)، وصححه ابن حبان (٦١٦٦).

هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾، فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يُسأل عنها فقال: «**خلقَ الله آدمَ، ثم مسحَ ظهرَه بيمينه، فاستخرجَ منه ذريةً، فقال: خلقتُ هؤلاء للنار وبعمل أهلِ النار يعملون، وخلقتُ هؤلاء للجنةِ وبعمل أهل الجنة يعملون**»، فقال رجلٌ يا رسولَ الله، ففيم العمل؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله إذا خلق الرجلَ للجنة استعمَلَه بعمل أهل الجنةِ، حتىٰ يموتَ علىٰ عملٍ من أعمال أهل الجنة، فيُدخِلُه به الجنة. وإذا خلق العبدَ للنار استعمَلَه بعمل أهل النار، حتىٰ يموتَ علىٰ عملٍ من أعمال أهل النار، فيُدخِله به النار**»، قال الحاكم[1]: هذا حديث علىٰ شرط مسلم.

ورویٰ الحاكم[2] أيضًا عن أبي هريرة مرفوعًا: «**لما خلق الله آدم مَسَح ظهره، فسقط من ظهره كلُّ نَسَمة هو خالقها إلىٰ يوم القيامة أمثالَ الذرِّ، ثم جعل بين عينَي كلِّ إنسان منهم وَبيصًا من نور، ثم عرضهم علىٰ آدم، فقال: من هؤلاء يا رب؟ قال: هؤلاء ذريتُك. فرأىٰ رجلًا منهم أعجبه وَبيصُ ما بين عينيه، فقال: يا ربِّ مَن هذا؟ فقال: هذا ابنُك داود، يكون في آخر الأمم، قال: كم جعلتَ له من العُمْر؟ قال: ستِّين سنة، قال: يا رب زِدْه من عُمْرِي أربعين سنةً، فقال الله تعالىٰ: إذًا يُكتَبُ ويُختَم فلا يبدَّل.**

فلما انقضىٰ عمرُ آدم جاءه ملك الموت، قال: أو لم يبقَ من عمري أربعون سنةً؟ فقال: أوَلم تجعلها لابنك داود؟ قال: فجحَدَ، فجحدت ذريتُه، ونسيَ، فنسيت ذريته. وخَطِئ، فخطئت ذريته»، قال: هذا علىٰ شرط مسلم.

ورواه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

---

(١) في المستدرك (٣٢٥٦).

(٢) في المستدرك (٣٢٥٧)، وأخرجه الترمذي (٣٠٧٦)، وصححه ابن خزيمة في التوحيد (٤٥٥).

وقال محمد بن نصر: عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢]، قال: «مسح ربك ظهرَ آدم، فخرجت منه كلُّ نسمة هو خالقها إلىٰ يوم القيامة بنَعمانَ هذا الذي وراء عرفة[١]، فأخذ ميثاقهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾»[٢].

فصل

ص: ٤٦٦

من أدلة من قال بخلق الروح قبل البدن

واحتجُّوا أيضًا بما رواه أبو عبد الله بن منده، عن عمرو بن عَبَسَة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله خلق أرواح العباد قبل العباد بألفي عام، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**»[٣].

فهذا بعض ما احتج به هؤلاء.

قال الآخرون: الكلام معكم في مقامين:

أحدهما: ذكر الدليل علىٰ الأرواح إنما خلقت بعد خلق الأبدان.

الثاني: الجواب عما استدلَلْتم به.

فأما المقام الأول، فقد قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣]. وهذا خطاب للإنسان الذي هو روح وبدن، فدلَّ علىٰ أنَّ جملته مخلوقة بعد خلق الأبوين.

وأصرحُ منه قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا

---

(١) وهو الوادي الذي يسمىٰ: نعمان الأراك. (٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٢٢٤).

(٣) إسناده ضعيف جدًا.

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]، وهذا صريح في أنَّ خلْقَ جُملةِ النوعِ الإنساني بعد خلقِ أصله.

فإن قيل: هذا لا ينفي تقدُّمَ خلق الأرواح علىٰ أجسادها، وإن خُلِقت بعد خلق أبي البشر، كما دلَّت عليه الآثار المتقدمة.

قيل: سنبيِّن - إن شاء الله - أنَّ الآثار المذكورة لا تدلُّ علىٰ سَبْق الأرواحِ الأجسادَ سَبْقًا مستقرًّا ثابتًا. وغايتُها أن تدلَّ بعد صحتها وثبوتها علىٰ أنَّ بارئها وفاطرها سبحانه صوَّر النَّسَمَ، وقدَّر خلْقَها وآجالها وأعمالها، واستخرج تلك الصورَ من مادتها، ثم أعادها إليها، وقدَّر خروج كلِّ فرد من أفرادها في وقته المقدَّر له، ولا تدل علىٰ أنها خُلقت خلقًا مستقرًّا، ثم استمرَّت موجودةً حيَّةً عالمةً ناطقةً، كلُّها في موضع واحد، ثم تُرسَل منها إلىٰ الأبدان جملةً بعد جملة، كما قاله أبو محمد بن حزم، فهل تحتمل الآثارُ ما لا طاقة لها به؟ نعم الربُّ سبحانه يخلق منها جملةً بعدَ جملةٍ علىٰ الوجه الذي سبق به التقدير أولًا، فيجيءُ الخلق الخارجيُّ مطابقًا للتقدير السابق؛ كشأنه تعالىٰ في جميع مخلوقاته، فإنه قدَّر لها أقدارًا وآجالًا وصفاتٍ وهيئات، ثم أبرزها إلىٰ الوجود مطابقةً لذلك التقدير الذي قدَّره لها، لا تزيد عليه ولا تنقص منه.

فالآثار المذكورة إنما تدل علىٰ إثبات القدَر السابق، وبعضُها يدل علىٰ أنه سبحانه استخرج أمثالهم وصُورَهم، وميَّزَ أهل السعادة من أهل الشقاوة، وأمَّا مخاطبتهم واستنطاقهم، وإقرارهم له بالربوبية، وشهادتهم علىٰ أنفسهم بالعبودية؛ فمَن قاله من السلف فإنما هو بناءٌ منه علىٰ فهم الآية، والآيةُ لم تدلَّ علىٰ هذا، بل دلَّت علىٰ خلافه.

وأما حديث مالك، فقال أبو عمر[1]: هو حديث منقطع، مسلم بن يسار لم يلقَ عمر بن الخطاب، وبينهما في هذا الحديث نُعيم بن ربيعة، وهو أيضًا مع هذا الإسناد لا تقوم به حجة، ومسلم بن يسار هذا مجهول، قيل: إنه مدني، وليس بمسلم بن يسار البصري.

وجملة القول في هذا الحديث: أنه حديث ليس إسناده بالقائم، ولكنَّ معنىٰ هذا الحديث قد صحَّ عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة ثابتة يطول ذكرها، من حديث عمر بن الخطاب وغيره وجماعةٍ يطول ذكرهم.

ومرادُ أبي عمر الأحاديثُ الدالَّةُ علىٰ القدر السابق.

وأما حديث أبي هريرة، فإنما يدل علىٰ استخراج الذرية وتمثيلهم في صُوَر الذرّ، وكان منهم حينئذ المشرق والمظلم. وليس فيه أنه سبحانه خلق أرواحهم قبل الأجساد وأقرَّها بموضع واحد ثم إنه يرسل كلَّ روح من تلك الأرواح عند حدوث بدنها إليه، نعم هو سبحانه يخُصُّ كلَّ بدن بالروح التي قَدَّر أن تكون له في ذلك الوقت، وأمَّا أنه خلق نفسَ ذلك البدن في ذلك الوقت، وفرغ من خلقها، وأودعها في مكانٍ معطَّلةً عن بدنها، حتىٰ إذا أحْدَث بدنَها أرسلها إليه من ذلك المكان؛ فلا يدلُّ شيء من الأحاديث علىٰ ذلك البتةَ لمن تأمَّلَها.

وهاهنا أربع مقامات:

أحدها: أنَّ الله سبحانه استخرج صورهم وأمثالهم، فميَّز شقيَّهم وسعيدَهم، ومعافاهم من مبتلاهم.

---

(١) في التمهيد (٦/ ٣ - ٥).

والثاني: أنَّه سبحانه أقام عليهم الحجةَ حينئذ، وأشهدهم بربوبيته، واستشهد عليهم ملائكتَه.

الثالث: أن هذا تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

الرابع: أنه أقرَّ تلك الأرواح كلَّها بعد إخراجها بمكان، وفرغ من خلقها. وإنما يتجدَّد كلَّ وقت إرسالُ جملة منها بعد جملة إلىٰ أبدانها.

فأما المقام الأول: فالآثارُ متظاهرةٌ به مرفوعةً وموقوفةً.

وأما المقام الثاني: فإنما أخذه مَن أخَذه من المفسرين من الآية، وظنوا أنه تفسيرها، وهذا قول جمهور المفسرين من أهل الأثر.

قال أبو إسحاق(١): جائز أن يكون الله سبحانه جعل لأمثال الذرّ التي أخرجها فهمًا تعقِل به كما قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨]، وقد سخَّر مع داود الجبال تسبِّح معه والطيرَ.

وقال ابن الأنباري(٢): مذهب أصحاب الحديث وكُبَراء العلم في هذه الآية: أنَّ الله أخرج ذرية آدم من صُلبه وأصلابِ أولاده، وهم في صوَر الذر، فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم مصنوعون. فاعترفوا بذلك، وقبلوا، وذلك بعد أن ركَّب فيهم عقولًا عرفوا بها ما عُرِض عليهم، كما جعل للجبل عقلًا حتىٰ خُوطب(٣)،

(١) وهو الزجّاج في معاني القرآن له (٢/ ٣٩٠).

(٢) انظر: البسيط للواحدي (٩/ ٤٤٨).

(٣) يشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠] وما رواه البخاري (٣٦٧٥) عن أنس أن النبي ﷺ صعد أحدًا وأبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فقال: «اثبُتْ أحدُ، فإنما

وكما فعل ذلك بالبعير لما سجد[١]، والنخلة[٢] حتىٰ سمعتْ، وانقادت حين دُعِيتْ.

قال: وزعم بعض أهل العلم أن الميثاقَ إنما أُخِذ علىٰ الأرواح دون الأجساد، لأنَّ الأرواح هي التي تعقل وتفهم، ولها الثواب وعليها العقاب، والأجساد مَواتٌ لا تعقل ولا تفهم.

قال: وكان إسحاق بن راهويه يذهب إلىٰ هذا المعنىٰ، وذكر أنه قول أبي هريرة. قال إسحاق: وأجمعَ أهل العلم أنها الأرواح قبل الأجساد، استنطقهم، وأشهدهم.

فصل

ص: ٤٧٩

الاستدلال بإخراج الذرية من ظهر آدم على أسبقية خلق الأرواح

ونازع هؤلاء غيرُهم في كون هذا معنىٰ الآية، وقالوا: معنىٰ قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهم﴾ [الأعراف: ١٧٢]، أي: أخرجهم وأنشأهم بعد أن كانوا نُطَفًا في أصلاب الآباء إلىٰ الدنيا علىٰ ترتيبهم في الوجود، وأشهدَهم علىٰ أنفسهم أنه ربُّهم، بما أظهرَ لهم من آياته وبراهينه التي تضطرُّهم إلىٰ أن يعلَموا أنه خالقُهم؛

عليك نبي وصدِّيق وشهيدان».

(١) يشير إلىٰ حديث أنس بن مالك قال: كان أهلُ بيت من الأنصار لهم جملٌ يَسنُون عليه، وإن الجمل استصعب عليهم، فمنعهم ظهرَه... الحديث، وفيه: «فلما نظر الجمل إلىٰ رسول الله ﷺ أقبل نحوَه، حتىٰ خرَّ ساجدًا بين يديه» أخرجه الإمام أحمد (١٢٦١٤)، وجوّد إسناده ابنُ كثير في البداية والنهاية (٦/ ١٣٥).

(٢) يشير إلىٰ ما أخرجه الترمذي (٣٦٢٨) من حديث ابن عباس قال: جاء أعرابي إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال: بما أعرف أنك نبيٌّ؟ قال: إن دعوت هذا العِذق من هذه النخلة، أتشهد أني رسول الله؟ فدعاه رسول الله ﷺ، فجعل ينزل من النخلة حتىٰ سقط إلىٰ النبي ﷺ. ثم قال: ارجع، فعاد، فأسلم الأعرابي، قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب صحيح».

فليس من أحد إلا وفيه من صنعة ربِّه ما يَشهدُ علىٰ أنه بارئُه ونافذُ الحكم فيه. فلمَّا عرفوا ذلك ودعاهم كلُّ ما يرون ويشاهدون إلىٰ التصديق به كانوا بمنزلة الشاهدين والمشهَدين علىٰ أنفسهم بصحته، كما قال في غير هذا الموضع: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾ [التوبة: ١٧] يريد: هم بمنزلة الشاهدين، وإن لم يقولوا: نحن كفَرة، وكما تقول: شهدَتْ جوارحي بقولك، تريد: قد عرفتُه، فكأنَّ جوارحي لو استُشْهدتْ وفي وُسعها أن تنطِق لشهدتْ، ومن هذا الباب أيضًا ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨] يريد: أعلَمَ وبيَّن، فأشبه إعلامُه وتبيينُه ذلك شهادةَ من شَهِد عند الحكام وغيرهم. هذا كلام ابن الأنباري(١).

وزاد الجرجانيُّ(٢) بيانًا لهذا القول فقال: فيكون تأويل قوله ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]: وإذ يأخذ ربك، وكذلك قولُه: ﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، أي: ويُشهِدهم بما ركَّبه فيهم من العقل الذي يكون به الفهم، ويجب به الثواب والعقاب. وكلُّ من وُلد وبلغ الحِنْثَ، ولم يقدَح فيه مانع من فهم إذا حَزَبه أمرٌ يفزع إلىٰ الله ﷻ، حتىٰ يرفع رأسه إلىٰ السماء، ويشير إليها بإصبَعه، علمًا منه بأنَّ خالقه تعالىٰ فوقه. وإذا كان العقل الذي منه الفهم والإفهام مؤدِّيًا إلىٰ معرفة ما ذكرنا ودالًّا عليه، فكلُّ من بلغ هذا المبلغ فقد أخَذ عليه العهد والميثاق، إذ جعل فيه السببَ والآلة اللذَين بهما يؤخذ العهد والميثاق. وجائز أن يقال له: قد أقرَّ، وأذعَنَ، وأسلَمَ؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [الرعد: ١٥].

---

(١) نقله الواحدي في البسيط (٩/ ٤٥٦).

(٢) يعني: صاحب النظم، وكلامه في البسيط (٩/ ٤٥٧).

وليس هذا بمخالف لما رُوي عن النبي ﷺ: «**أن الله مسح ظهرَ آدم، وأخرج منه ذرِّيته، فأخذ عليهم العهد**»(١)؛ لأنه ﷺ اقتصَّ قول الله ﷻ، فجاء مثلَ نظمِه، فوضع الماضي من اللفظ موضعَ المستقبل.

قال: وهذا شبيهُ القصَّة بقصَّة قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١]، فجعل سبحانه ما أَنزلَ على الأنبياء من الكتاب والحكم ميثاقًا أَخذَه من أممهم بعدَهم.

قلت: وشبيهٌ به أيضًا قوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧]، فهذا ميثاقُه الذي أخذه عليهم بعد إرسال رسله إليهم بالإيمان به وتصديقِه.

ونظيرُه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ [الرعد: ٢٠]، وقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١]، فهذا عهدُه إليهم على ألسنة رسله.

ومثله: قوله لبني إسرائيل: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

ومثله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

فهذا ميثاقٌ أَخذه منهم بعدَ بعثهم كما أخذ من أممهم بعدَ إنذارهم.

---

(١) سبق تخريجه (ص: ١٣٢).

ونظمُ الآية إنما يدلُّ علىٰ هذا من وجوه متعددة:

أحدها: أنه قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ ولم يقل: آدم، وبنو آدم غيرُ آدم.

الثاني: أنه قال: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾، ولم يقل: من ظهره، وهذا بَدَلُ بعضٍ من كلٍّ، أو بدلُ اشتمالٍ، وهو أحسن.

الثالث: أنه قال: ﴿ذُرِّيَّاتِهِم﴾، ولم يقل: ذرِّيته.

الرابع: أنه قال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: جعلهم شاهِدِين علىٰ أنفسهم؛ فلابدَّ أن يكون الشاهدُ ذاكرًا لما شهِد به، وهو إنما يذكر شهادته بعد خروجه إلىٰ هذه الدار، لا يذكر شهادةً قبلها.

الخامس: أنه سبحانه أخبر أنَّ حكمةَ هذا الإشهاد إقامةُ الحجَّةِ عليهم، لئلا يقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين. والحجة إنما قامت عليهم بالرسل والفطرة التي فُطِروا عليها، كما قال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥].

السادس: تذكيرُهم بذلك لئلا يقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. ومعلوم أنهم غافلون بالإخراج لهم من صلب آدم كلِّهم، وإشهادِهم جميعًا ذلك الوقت، فهذا لا يذكره أحد منهم.

وهذه الآية وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِم﴾ [الأعراف: ١٧٢]. مطابقةٌ لقول النبي ﷺ: «**كلُّ مولود يولد علىٰ الفطرة**»[١]، ولقوله تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٠- ٣١].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٥) ومسلم (٢٦٥٨).

ومن المفسرين من لم يذكر إلا هذا القول فقط كالزمخشري[١]، ومنهم من لم يذكر إلا القول الأول فقط، ومنهم من حَكَىٰ القولين كابن الجوزيِّ[٢]، والواحديِّ[٣]، والماوردي[٤]، وغيرهم.

فصل

ص: ٤٩٩

إخراج الصور والأمثال لا يدل على أسبقية خلق الأرواح

فهذا بعضُ كلام السلف والخلف في هذه الآية، وعلىٰ كلِّ تقدير، فلا تدلُّ علىٰ خلق الأرواح قبل الأجساد خلقًا مستقرًّا، وإنما غايتُها أن تدلَّ علىٰ إخراج صورهم وأمثالهم في صور الذرِّ، واستنطاقهم، ثم ردِّهم إلىٰ أصلهم، إن صحَّ الخبر بذلك. والذي صحَّ إنما هو إثباتُ القدر السابق، وتقسيمُهم إلىٰ شقي وسعيد.

وأما استدلالُ أبي محمد بن حزم بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١]، فما أليَقَ هذا الاستدلالَ بظاهريَّته، لترتيب الأمر بالسجود لآدم علىٰ خَلْقنا وتصويرنا؛ والخطابُ للجملة المركَّبة من البدن والروح، وذلك متأخِّر عن خلق آدم.

ولهذا قال ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ آدم ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ لذريته[٥]، وبيان هذا ما قاله مجاهد ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعني آدم، و﴿صَوَّرْنَاكُمْ﴾ في ظهر آدم[٦]، وإنما قال: ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ بلفظ الجمع، وهو يريد آدم؛ كما تقول: ضربناكم، وإنما ضربتَ سيدَهم.

---

(١) الكشاف (٢/ ١٧٦).
(٢) زاد المسير (٣/ ٢٨٣ - ٢٨٦).
(٣) البسيط (٩/ ٤٤٣ - ٤٥٨).
(٤) النكت والعيون (٢/ ٢٧٧ - ٢٧٩).
(٥) أخرجه الطبري في التفسير (١٢/ ٣١٨).
(٦) أخرجه الطبري في التفسير (١٢/ ٣٢٠).

قال أبو عبيد: وقد بيَّنه مجاهدٌ حين قال: إن الله خلق آدم، وصوَّرهم في ظهره، ثم أمر بعد ذلك بالسجود، قال: وهذا بيِّنٌ في الحديث وهو: «**أنه أخرجهم من ظهر آدم في صُوَر الذرِّ**»[1].

قلت: والقرآن يفسِّر بعضُه بعضًا، ونظيرُ هذه الآية قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ [الحج: ٥]، فأوقع الخلقَ من ترابٍ عليهم، وهو لأبيهم آدم، إذ هو أصلهم.

والله سبحانه يخاطب الموجودين، والمرادُ آباؤهم، كقوله: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥]، وقوله: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ﴾ الآية [البقرة: ٦١]، وقوله: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ﴾ [البقرة: ٧٢]، وقوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: ٦٣]، وهو كثير في القرآن، يخاطبهم، والمراد آباؤهم، فهكذا قوله: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ [الأعراف: ١١].

وقد يستطرد سبحانه من ذكر الشَّخص إلىٰ ذكر النوعِ كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ۝ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٣]. فالمخلوقُ من سلالة من طين: آدمُ، والمجعول نطفةً في قرار مكين: ذريتُه.

وأما حديثُ خلقِ الأرواح قبل الأجساد بألفي عام، فلا يصحُّ إسناده.

---

(١) سبق تخريجه (ص: ١٣٢).

فصل

ص: ٥٠٢

الأدلة على أن خلق الأرواح متأخر عن خلق الأبدان

وأمَّا الدليل علىٰ أنَّ خلقَ الأرواح متأخرٌ عن خلق أبدانها، فمن وجوه:

أحدها: أنَّ خلقَ أبي البشر وأصلِهم كان هكذا. فإنَّ الله سبحانه أرسل جبريل، فقبضَ قبضةً من الأرض، ثم خمَّرها حتىٰ صارت طينًا، ثم صوَّره، ثم نفخ فيه الروح بعد أن صوَّره، فلما دخلت الروح فيه صار لحمًا ودمًا، حيًّا ناطقًا.

فالقرآن والحديث والآثار تدلُّ علىٰ أنَّ الله سبحانه نفخ فيه من روحه بعد خَلْقِ جسده، فمِن تلك النفخةِ حدثت فيه الروح.

ولو كان للروح وجودٌ قبل البدن، وهي حية عالمة ناطقة، لكانت ذاكرةً لذلك في هذا العالم شاعرةً به، ولو بوجه ما، ومن الممتنِع أن تكونَ حيةً عالمةً ناطقةً عارفةً بربِّها، وهي بين ملأ من الأرواح، ثم تنتقلَ إلىٰ هذا البدن ولا تشعرَ بحالها قبل ذلك بوجه ما.

وأيضًا: فإنها لو كانت موجودةً قبل البدن لكانت عالمة حية ناطقة عاقلة، فلمَّا تعلَّقتْ بالبدن سُلِبتْ ذلك كلَّه، ثم حدث لها الشعور والعلم والعقل شيئًا فشيئًا. وهذا لو كان لكان من أعجَب الأمور أن تكون الروحُ كاملةً عاقلةً ثم تعود ناقصةً ضعيفةً جاهلةً، ثم تعود بعد ذلك إلىٰ عقلها وقوتها، فأين في العقل والنقل والفطرة ما يدلُّ علىٰ هذا؟ وقد قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

فهذه الحال التي أُخْرِجنا عليها هي حالنا الأصلية، والعلم والعقل والمعرفة والقوة طارئ علينا حادث فينا بعد أن لم يكنْ، ولم نكن نعلمُ قبل ذلك شيئًا البتَّة،

إذ لم يكن لنا وجودٌ نعلم ونعقل به.

ولو دلَّ دليلٌ علىٰ أنها خُلِقت جملةً، ثم أودعت في مكان حيةً عالمةً ناطقةً، ثم كلَّ وقت تبرزُ إلىٰ أبدانها شيئًا فشيئًا، لكُنَّا أولَ قائل به؛ فالله سبحانه علىٰ كل شيء قدير، ولكن لا نخبرُ عنه خلقًا وأمرًا إلا بما أخبر به عن نفسه علىٰ لسان رسوله ﷺ. ومعلوم أنَّ الرسول ﷺ لم يخبر عنه بذلك، وإنما أخبر بما في الحديث الصحيح: «**إنَّ خلقَ ابن آدم يُـجمَع في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقةً مثلَ ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يُرسَل إليه الملكُ، فينفخُ فيه الروح**»[1].

فالملَكُ وحده يُرسَل إليه، فينفُخ فيه، فإذا نفَخَ فيه كان ذلك سببَ حدوث الروح فيه، ولم يقل: يرسَل الملكُ إليه بالروح، فيُدْخِلُها في بدنه، وإنما أُرسل إليه الملكُ وحده، فأحدثَ فيه الروح بنفخته فيه، لا أنَّ الله سبحانه أرسل إليه الروح التي كانت موجودة قبل ذلك بالزمن الطويل مع الملَك، ففرقٌ بين أن يُرسَل إليه ملكٌ ينفخ فيه الروحَ، وبين أن يُرسَل إليه روحٌ مخلوقةٌ قائمة بنفسها مع الملَك. وتأمَّلْ ما دلَّ عليه النصُّ من هذين المعنيين، وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

فصل

وأما المسألة التاسعة عشرة

ص: ٥١١

وهي: ما حقيقة النفس؟ هل هي جزء من أجزاء البدن، أو عرض من أعراضه، أو جسمٌ مساكِن له مودَع فيه، أو جوهر مجرد؟ وهل هي الروح أو غيرها؟ وهل الأمَّارةُ واللوَّامة والمطمئِنَّة نفسٌ واحدة لها هذه الصفات، أم هي ثلاثة أنفس[1]؟

فالجواب: أنَّ هذه مسائل قد تكلَّم الناس فيها من سائر الطوائف، واضطربت فيها أقوالهم، وكثر فيها خطؤهم. وهدىٰ الله أتباعَ الرسول وأهلَ سنته لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم، **فنذكر أقوال الناس وما لهم وعليهم في تلك الأقوال، ونذكر الصوابَ بحمد الله وعونه.**

قال أبو الحسن الأشعريُّ في مقالاته[2]: اختلف الناس في الروح والنفس والحياة، وهل الروح هي الحياة أو غيرها، وهل الروح جسم أم لا؟

فقال النظَّام: الروح جسم، وهي النفس.

وقال آخرون: الروح عَرَض.

---

(١) كذا في جميع النسخ بتأنيث العدد، وكذا جمع المؤلف ثلاث مسائل في عنوان هذه المسألة، وكأنه أراد أن يتكلم عليها جميعًا في هذا الفصل، ولكنه لما استطال الكلام علىٰ حقيقة النفس أفرد كلًّا من المسألتين الأخريين بفصل مستقل، ورقَّمهما بالعشرين والحادية والعشرين كما سيأتي. ثم فاته أن يحذف المسألتين من عنوان هذا الفصل.

(٢) مقالات الإسلاميين (٣٣٣ - ٣٣٧).

وقال قائلون: لا ندري: الروح جوهر أو عرض؟ واعتلُّوا في ذلك بقول الله تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]، ولم يخبر عنها ما هي، لا أنها جوهر، ولا أنها عرض.

وقال آخرون: النفسُ معنًىٰ غيرُ الروح، والروحُ غير الحياة، والحياة عنده عرضٌ، وهو أبو الهذيل، يزعم أنه قد يجوز أن يكون الإنسان في حال نومه مسلوبَ النفس والروحِ دون الحياة، واستَشْهد علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

هذا ما حكاه الأشعري.

وقال طائفة: النفس هي النسيم الداخل والخارج بالتنفُّس، قالوا: والروح عرَضٌ، وهي الحياة فقط، وهو غيرُ النَّفْس، وهذا قول القاضي أبي بكر بن الباقلاني ومن اتَّبعه من الأشعرية[١].

وقالت طائفة: ليست النفس جسمًا ولا عرضًا وليست في مكان، ولا لها طول ولا عرض ولا عمق ولا لون ولا بعض، ولا هي في العالم ولا خارجَه، ولا محايثة له ولا مباينة، وهذا قول المشَّائين، وهو قول ابن سينا وأتباعه، وهو أردأ المذاهب وأبطلُها، وأبعدُها من الصواب.

قال أبو محمد بن حزم[٢]: وذهب سائر أهل الإسلام والملل المقِرَّة بالمعاد إلىٰ أن النفس جسمٌ طويل عريض عميق، ذات مكان، حيَّة مميِّزة مصرِّفة للجسد، قال: وبهذا نقول، قال: والنفس والروح اسمان مترادفان بمعنىً واحد، ومعناهما واحد.

---

(١) الفصل لابن حزم (٣/ ٢١٤).

(٢) في الفصل (٣/ ٢١٤).

وقد ضبط أبو عبد الله بن الخطيب[١] مذاهب الناس في النفس، فقال[٢]: «ما يشير إليه كلُّ إنسان بقوله: (أنا) إما أن يكون جسمًا، أو عرَضًا ساريًا في الجسم، أو لا جسمًا ولا عرَضًا ساريًا فيه.

أما **القسم الأول**، وهو أنه جسم، فذلك الجسم إما أن يكون هو هذا البدنَ، وإما أن يكون جسمًا مشاركًا لهذا البدن، وإما أن يكون خارجًا عنه.

وأما **القسم الثالث**، وهو أن نفس الإنسان عبارة عن جسم خارجَ هذا البدن، فهذا لم يقُلْه أحد.

وأما **القسم الأول**، وهو أن الإنسان عبارةٌ عن هذا البدنِ والهيكلِ المخصوص، فهو قول جمهور الخلق، وهو المختار عند أكثر المتكلمين».

قلت: هو قول جمهور الخلق الذين عرفَ الرازي أقوالَهم من أهل البدع وغيرهم من المضلِّين، وهذا الذي نسبه إلىٰ جمهور الخلق، من أن الإنسان هو هذا البدنُ المخصوص فقط وليس وراءه شيء، هو من أبطل الأقوال في المسألة، بل هو أبطَلُ من قول ابن سينا وأتباعه، بل الذي عليه جمهور العقلاء أن الإنسان هو البدن والروح معًا، وقد يُطلق اسمه علىٰ أحدهما دون الآخر بقرينة.

فالناس لهم أربعة أقوال في مسمىٰ الإنسان: هل هو الروح فقط، أو البدن فقط، أو مجموعهما، أو كل واحد منهما؟

قال الرازي: «وأما القسم الثاني وهو أن الإنسان عبارةٌ عن جسم مخصوص

---

(١) زاد في نسخة: «الفخر الرازي».

(٢) انظر نحوه في تفسير الرازي (٢١/ ٤٠) تحت قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾.

موجود في داخل هذا البدن، **فالقائلون بهذا القول اختلفوا في تعيين ذلك الجسم علىٰ وجوه:**

الأول: أنه عبارة عن الأخلاط الأربعة التي منها يتولد هذا البدن.

والثاني: أنه الدم.

والثالث: أنه الروح اللطيفُ الذي يتولَّد في الجانب الأيسر من القلب، وينفذ في الشَّرْيانات إلىٰ سائر الأعضاء.

والقول الرابع: أنه الروح الذي يصعد في القلب إلىٰ الدماغ ويتكيف بالكيفية الصالحة لقبول قوة الحفظ والفكر والذكر.

والخامس: أنه جزء لا يتجزأ في القلب.

والسادس: أنه جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس، وهو جسم نُوراني عُلْوِيٌّ خفيف حيٌّ متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء، ويسري فيها سَرَيان الماء في الورد، وسريان الدُّهْن في الزيتون، والنارِ في الفحم، فما دامت هذه الأعضاء صالحةً لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف، بقي ذلك الجسم اللطيف مشابكًا لهذه الأعضاء، وأفادَها هذه الآثارَ من الحسِّ والحركة الإرادية، وإذا فسدتْ هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها، وخرجت عن قبول تلك الآثار، فارق الروحُ البدنَ، وانفصل إلىٰ عالم الأرواح».

وهذا القول هو الصواب في المسألة، وهو الذي لا يصحُّ غيره، وكلُّ الأقوال سواه باطلةٌ، وعليه دلَّ الكتاب والسُّنَّة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة، **ونحن نسوق الأدلة عليه علىٰ نسَق واحد:**

الدليل الأول: قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

ففي الآية ثلاثة أدلة: الإخبارُ بتوفِّيها، وإمساكها، وإرسالها.

الرابع: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٣ - ٩٤].

وفيها أربعة أدلَّة:

أحدها: بسطُ الملائكة أيديَهم لتناولها.

الثاني: وصفُها بالإخراج والخروج.

الثالث: الإخبار عن عذابها ذلك اليوم.

الرابع: الإخبار عن مجيئها إلىٰ ربها.

فهذه سبعة أدلة.

الثامن: قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠ - ٦١].

وفيها ثلاثة أدلة:

أحدها: الإخبار بتوفِّي الأنفس بالليل.

الثاني: بعثها إلىٰ أجسادها بالنهار.

الثالث: تَوفِّي الملائكة له عند الموت.

فهذه عشرة أدلَّة.

الحادي عشر: قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠]، **وفيها ثلاثة أدلة:**

أحدها: وصفها بالرجوع.

والثاني: وصفها بالدخول.

والثالث: وصفها بالرِّضا.

الرابع عشر: قوله ﷺ: «**إنَّ الروح إذا قُبِضَ تبعه البصَرُ**»(١)، ففيه **دليلان**: **أحدهما**: وصفه بأنه يُقبض، **الثاني**: أن البصر يراه.

السادس عشر: قوله ﷺ في حديث بلال: «**إنَّ الله قبض أرواحكم وردَّها إليكم حين شاء**»(٢)، ففيه **دليلان**: وصفُها بالقبض، والرَّدِّ.

الثامن عشر: قوله: «**أرواحُ الشهداء في حواصل طير خُضْرٍ تسرَح في الجنة حيث شاءت، وتأوي إلىٰ قناديلَ معلَّقةٍ بالعرش، فاطَّلع إليهم ربُّك اطِّلاعةً فقال: أيَّ شيء تريدون؟..**» الحديث، وقد تقدم(٣)، **وفيه ستة أدلة:**

أحدها: كونُها مودَعةً في جوف طير.

الثاني: أنها تسرح في الجنة.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٥)، ومسلم (٦٨١).

(٣) سبق تخريجه (ص: ٣٤).

الثالث: أنها تأكل من ثمارها، وتشرب من أنهارها.

الرابع: أنها تأوي إلىٰ تلك القناديل أي: تسكن إليها.

الخامس: أنَّ الربَّ تعالىٰ خاطبها واستنطقها، فأجابته وخاطبته.

السادس: أنها طلبت الرجوعَ إلىٰ الدنيا، فعُلِم أنها مما يقبلُ الرجوع.

الرابع والعشرون: حديث البراء بن عازب، وقد تقدَّم سياقُه[1]، وفيه **عشرون دليلًا**:

أحدها: قول ملَك الموت لنفسه: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]، وهذا خطاب لمن يعقل ويفهم.

الثاني: قوله: «**اخرجي إلىٰ مغفرة من الله ورضوان**».

الثالث: قوله: «**فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِي السِّقاء**».

الرابع: قوله: «**فلا يدَعونها في يده طَرْفَة عين حتىٰ يأخذوها منه**».

الخامس: قوله: «**حتىٰ يكفنوها في ذلك الكفن ويحنطوها بذلك الحنوط**». فأخبر أنَّها تُكفَّن وتحنَّط.

السادس: قوله: «**ثم يُصعَد بروحه إلىٰ السماء**».

السابع: قوله: «**ويوجد منها كأطيب نفحةِ مسكٍ وجدت**».

الثامن: قوله: «**فتُفتَح له أبوابُ السماء**».

التاسع: قوله: «**ويشيِّعه من كلِّ سماء مقرَّبوها حتىٰ ينتهي إلىٰ الرب تعالىٰ**».

---

(١) سبق تخريجه (ص: ٣٦).

العاشر: قوله: «**فيقول تعالىٰ: رُدُّوا عبدي إلىٰ الأرض**».

الحادي عشر: قوله: «**فتُرَدُّ روحُه في جسده**».

الثاني عشر: قوله في روح الكافر: «**فتَفَرَّقُ في جسده، فيجذِبها، فتنقطع منها العروق والعصب**».

الثالث عشر: قوله: «**ويوجد لروحه كأنتنِ ريحٍ وُجدت علىٰ وجه الأرض**».

الرابع عشر: قوله: «**فيُقذَف بروحه من السماء، وتُطْرَح طرحًا فتهوي إلىٰ الأرض**».

الخامس عشر: قوله: «**فلا يمرُّون بها علىٰ ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ وما هذا الروح الخبيث؟**».

السادس عشر: قوله: «**فيُجلِسانه ويقولان له: ما كنتَ تقول في هذا الرجل؟**» فإن كان هذا للروح فظاهرٌ، وإن كان للبدن فهو بعد رجوع الروح إليه من السماء.

السابع عشر: قوله: «**فإذا صعد بروحه، قيل: أَيْ ربِّ، عبدُك فلان**».

الثامن عشر: قوله: «**أرجِعوه، فأرُوه ماذا أعددتُ له من الكرامة، فيرىٰ مقعده من الجنة أو النار**».

التاسع عشر: قوله في الحديث: «**إذا خرجت روح المؤمن صلَّىٰ عليها كلُّ ملَكٍ لله بين السماء والأرض**»، فالملائكةُ تصلِّي علىٰ روحه، وبنو آدم يصلُّون علىٰ جسده.

العشرون: قوله: «**فينظرُ إلىٰ مقعده من النار حتىٰ تقومَ الساعة**»، والبدنُ قد تمزَّق وتلاشىٰ، وإنما الذي يرىٰ المقعدَين الروحُ.

فصل

ص: ٥٣١

حديث أبي هريرة في وصف خروج روح المؤمن

الرابع والأربعون: حديث أبي هريرة[١]: «إذا خرجت روحُ المؤمن تلقَّاه ملكان، فيُصعِدانه إلىٰ السماء، فيقول أهل السماء: روحٌ طيبة جاءت من قِبَل الأرض، صلىٰ الله عليكِ وعلىٰ جسدٍ كنت تعمُرينه - وذكر المسكَ - ثم يصعَدُ به إلىٰ ربِّه ﷻ، فيقول: رُدُّوه إلىٰ آخر الأجلين»، ففيه **ستة أدلة**:

أحدها: قوله: تلقَّاه ملكان.

الثاني: قوله: «فيُصعدانه إلىٰ السماء».

الثالث: قول الملائكة: «روح طيبة جاءت من قِبَل الأرض».

الرابع: صلاتهم عليها.

الخامس: طيبُ ريحها.

السادس: الصعودُ بها إلىٰ الله ﷻ.

فصل

ص: ٥٣٤

حديث تعارف الأرواح وتناكرها

الخمسون: قوله ﷺ: «**الأرواح جنود مجنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**»[٢]، فوصَفَها بأنها جنود مجنَّدة، والجنود ذواتٌ قائمة بنفسها، ووصَفَها بالتعارف والتناكر، ومُحالٌ أن تكون هذه الجنود أعراضًا، أو تكون لا داخل العالم ولا خارجه، ولا بعضَ لها ولا كلّ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٢).

(٢) سبق تخريجه (ص: ٩٤).

الحادي والخمسون: رؤية النبي ﷺ لأرواح الناس عن يمين آدم ويسارِه ليلةَ الإسراء[١]. فرآها متحيِّزةً بمكان معين.

الثاني والخمسون: رؤيته أرواحَ الأنبياء في السماوات، وسلامهم عليه، وترحيبهم به؛ كما أخبر به[٢]، وأما أبدانهم، ففي الأرض.

الثالث والخمسون: رؤيته أرواحَ الأطفال حول إبراهيم الخليل[٣].

الرابع والخمسون: رؤيتُه أرواحَ المعذَّبين في البرزخ بأنواع العذاب في حديث سمرة الذي رواه البخاري في صحيحه، وقد تلاشَتْ أجسادهم واضمحلَّت، وإنما كان الذي رآه أرواحَهم ونَسمَهم يُفعَل بها ذلك.

الخامس والخمسون: إخباره سبحانه عن الذين قُتلوا في سبيله أنهم أحياءٌ عنده يرزقون، وأنهم فرحون مستبشرون بإخوانهم، وهذا للأرواح قطعًا، إذ الأبدانُ في التراب تنظر عَوْدَ أرواحها إليها يوم البعث.

فصل

ص: ٥٤٤

لقاء الأرواح وسؤالها

السادس والخمسون: ما قد اشترك في العلم به عامَّةُ أهل الأرض من لقاء أرواح الموتىٰ، وسؤالهم لهم، وإخبارهم إياهم بأمور خفِيتْ عليهم، فرأوها عيانًا، وهذا أكثرُ من أن يُتكلَّف إيراده.

وأعجب من هذا:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (٢٦٣). (٢) في حديث الإسراء السابق.

(٣) في حديث الإسراء السابق.

الوجه السابع والخمسون: أنَّ روح النائم يحصل لها في المنام آثار، فيصبحُ يراها علىٰ البدن عيانًا وهي من تأثير الروح في الروح.

فصل

ص: ٥٥٦

تفتيح أبواب السماء لروح المؤمن

الوجه الثامن والخمسون: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وهذا دليل علىٰ أن المؤمنين تُفتَّح لهم أبواب السماء، وهذا التفتيح هو تفتيحها لأرواحهم عند الموت، كما تقدَّم في الأحاديث المستفيضة أنَّ السماء تُفتَح لروح المؤمن حتىٰ يُنتهَىٰ بها إلىٰ بين يدي الرب تعالىٰ، وأما الكافر، فلا تفتح لروحه أبوابُ السماء، ولا تفتح لجسده أبواب الجنة.

الوجه التاسع والخمسون: أن النفس لو كانت كما يقوله من يقول: إنها عَرَض، لكان الإنسان كلَّ وقت قد تبدَّل مائة ألف نفسٍ أو أكثر - والإنسان إنما هو إنسان بروحه ونفسه، لا ببدنه - وكان الإنسان الذي هو الآن غيرَ الذي هو قبله بلحظة، وبعده بلحظة، وهذا من نوع الهوَس. ولو كانت الروح مجرَّدةً، تعلُّقُها بالبدن بالتدبير فقط، لا بالمساكنة والمداخلة، لم يمتنع أن ينقطع تعلُّقُها بهذا البدن، وتتعلقَ بغيره، كما يجوز انقطاع تدبير المدبِّر لبيت أو مدينة عنها ويتعلقُ بتدبير غيرها. وعلىٰ هذا التقدير فنصير شاكِّين في أن هذه النفس التي لزيد هي النفس الأولىٰ أو غيرها؟ وهل زيدٌ هو ذلك الرجل أم غيره؟ وعاقلٌ لا يجوِّز ذلك! فلو كانت الروح عَرَضًا أو أمرًا مجرَّدًا لحصل الشكّ المذكور.

الوجه الستون: أن العقلاءَ كلَّهم متفقون علىٰ أن الإنسان هو هذا الحيُّ الناطق المتغذِّي النامي الحساس المتحرك بالإرادة. وهذه الصفاتُ نوعان: صفاتٌ لِبدنه، وصفاتٌ لِروحه ونفسه الناطقة، فلو كانت الروح جوهرًا مجردًا، لا داخلَ العالم ولا خارجَه، ولا متصلةً به ولا منفصلة عنه= لكان الإنسان لا داخل العالم ولا خارجه، ولا متَّصلًا به ولا منفصلًا عنه، أو كان بعضُه في العالم، وبعضُه لا خارج العالم ولا داخله، وكلُّ عاقلٍ يعلم بالضرورة بُطلان ذلك، وأن الإنسان بجملته داخل العالم، بدنَه وروحَه، وهذا في البطلان يضاهي قول من قال: إن نفسه قديمةٌ غيرُ مخلوقة، فجعلوا نصفَ الإنسان مخلوقًا، ونصفَه غيرَ مخلوق.

وكلُّ ما شهدت بدائهُ العقولِ وصرائحُها ببطلانه، كان الاستدلالُ علىٰ ثبوته استدلالاً علىٰ صحة وجود المحال. وبالله التوفيق.

فصل

ص: ٥٧٥

معنى الجسم عند الفلاسفة والمتكلمين

مسمَّىٰ الجسم في اصطلاح المتفلسفةِ والمتكلِّمين أعمُّ من مسمَّاه في لغة العرب وعُرْف أهل العرف، فإن الفلاسفة يطلقون الجسمَ علىٰ قابلِ الأبعاد الثلاثة، خفيفًا كان أو ثقيلًا، مرئيًا كان أو غير مرئي؛ فيسمُّون الهواءَ جسمًا، والنار جسمًا، والماء جسمًا. وكذلك الدخان، والبخار، والكواكب، ولا يُعرف في لغة العرب تسميةُ شيء من ذلك جسمًا البتَّة، فهذه لغتهم وأشعارهم، وهذه النقول عنهم في كتب اللغة.

قال الجوهري[1]: «قال أبو زيد: الجسم: الجسد. وكذلك الجُسْمان، والجُثْمان.

---

(١) في الصحاح (٥/ ١٨٨٧).

قال الأصمعي: الجسم والجُسمان: الجسد، والجُثْمان: الشخص، وقد جَسُم الشيءُ أي: عظُمَ، فهو عظيم جَسيم، وجُسام بالضم».

ونحن إذا سمَّينا النفس جسمًا، فإنما هو باصطلاحهم وعُرْفِ خطابهم، وإلا فليست جسمًا باعتبار وَضْع اللغة، ومقصودُنا بكونها جسمًا: إثباتُ الصفات والأفعال والأحكام التي دلَّ عليها الشرع والعقل والحسُّ، من الحركة والانتقال، والصعود والنزول؛ ومباشرةِ النعيم والعذاب، واللذة والألم؛ وكونِها تُحبَس وتُرسَل وتُقبَض، وتَدخُل وتَخرُج، فلذلك أطلقنا عليها اسم الجسم تحقيقًا لهذه المعاني، وإن لم يطلق عليها أهلُ اللغة اسمَ الجسم؛ فالكلام مع هذه الفرقة المبطِلة في المعنىٰ لا في اللفظ، فقولُ أهل التخاطب: الروح والجسم، هو بهذا المعنىٰ.

فصل

وأمَّا المسألة العشرون

ص: ٦١٣

وهي: هل النفس والروح شيءٌ واحد أو شيئان متغايران؟

فاختلف الناس في ذلك، فمن قائل: إن مسمَّاهما واحدٌ، وهم الجمهور، ومن قائل: إنهما متغايران، ونحن نكشف سرَّ المسألة بحول الله وقوته، فنقول:

النفس تطلَق علىٰ أمور:

أحدها: الروحُ. قال الجوهري[1]: «النفس: الروح. يقال: خرجت نفسه.

والنفس: الدم، يقال: سالت نفسه، وفي الحديث[2]: «ما لا نفس له سائلةً لا ينجِّس الماءَ إذا مات فيه».

والنفسُ: الجسد.

والنفس: العين، يقال: أصابت فلانًا نفسٌ، أي: عين».

قلت: والنفس في القرآن تطلَق علىٰ الذات بجملتها، كقوله تعالىٰ: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النور: ٦١]، وقوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ [النساء: ٢٩]، وقوله: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ [النحل: ١١١]، وقوله: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

---

(١) في الصحاح (٩٨٤).

(٢) يعني حديث النخعي. انظر: غريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٣٥٥).

وتطلق على الروح وحدها، كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]، وقوله: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

وأما الروح فلا تطلق علىٰ البدن، لا بانفراده، ولا مع النفس.

وتطلق الروح علىٰ القرآن الذي أوحاه الله تعالىٰ إلىٰ رسوله. قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، وعلىٰ الوحي الذي يوحيه إلىٰ أنبيائه ورسله، قال تعالىٰ: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥]، وقال: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

وسمَّىٰ ذلك روحًا لما يحصل به من الحياة النافعة، فإن الحياة بدونه لا تنفع صاحبَها البتة، بل حياةُ الحيوان البهيم خيرٌ منها وأسلَمُ عاقبة.

وسُمِّيت الروح روحًا؛ لأنَّ بها حياة البدن، وكذلك سُمِّيت الريح لِما يحصل بها من الحياة.

وسمِّيت النفْسُ رُوحًا لحصول الحياة بها.

وسُمِّيت نفْسًا إما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها، وإما مِن تنفَّسَ الشيءُ إذا خرج. فلكثرة خروجها ودخولها في البدن سمِّيتْ نفْسًا. ومنه النَّفَس - بالتحريك - فإنَّ العبد كلَّما نام خرجَتْ منه، فإذا استيقظ رجعت إليه، فإذا مات خرجت خروجًا كلِّيًا، فإذا دُفنَ عادت إليه، فإذا سُئل خرجتْ، فإذا بُعِث رجعت إليه.

فالفرق بين النفس والروح فرقٌ بالصفات، لا فرق بالذات.

وإنما سُمِّي الدم نفسًا؛ لأن خروجَه الذي يكون معه الموتُ يلازم خروجَ النفس، وأن الحياة لا تتم إلا به، كما لا تتم إلا بالنفس.

فصل

ص: ٦١٧
من قال بأن الروح غير النفس

وقالت فرقة أخرىٰ من أهل الحديث والفقه والتصوُّف: الروح غيرُ النفس. قال مقاتل بن سليمان: للإنسان حياة، وروح، ونفس. فإذا نام خرجت نفسه التي يعقِل بها الأشياء، ولم تفارق الجسد، بل تخرج كحبلٍ ممتدٍّ له شعاع، فيرىٰ الرؤيا بالنفس التي خرجت منه. وتبقىٰ الحياة والروح في الجسد، فبه يتقلب ويتنفَّس. فإذا حُرِّك رجعَتْ إليه أسرعَ من طرفة عين، فإذا أراد الله ﷻ أن يميته في المنام أمسك تلك النفس التي خرجَتْ.

وقالت طائفة، وهم أهل الأثر: إنَّ الروحَ غيرُ النفس، والنفسَ غيرُ الروح، وقوامُ النفس بالروح، والنفسُ صورةُ العبد، والهوىٰ والشهوةُ والبلاءُ معجونٌ فيها. ولا عدوَّ أعدىٰ لابن آدم من نفسه، فالنفس لا تريد إلا الدنيا، ولا تحب إلا إياها. والروح تدعو إلىٰ الآخرة، وتؤثِرُها. وجُعِل الهوىٰ تَبَعًا للنفس، والشيطانُ مع النفس والهوىٰ، والملك مع العقل والروح، واللّٰهُ تعالىٰ يُمِدُّهما بإلهامه وتوفيقه.

وقال بعضهم: الأرواح من أمر الله أخفَىٰ حقيقتها وعِلمها عن الخلق.

ثم اختلفوا في الأرواح: هل تموت بموت الأبدان والأنفس أو لا تموت؟

فقالت طائفة: الأرواح لا تموت ولا تَبلىٰ.

وقالت جماعة: الأرواح علىٰ صور الخلق، لها أيدٍ وأرجل وأعين وسمع وبصر ولسان.

وقال بعضهم: الأرواح روحانيةٌ خُلِقت من الملَكوت، فإذا صَفَتْ رجعت إلىٰ الملكوت.

قلت: **أما الروح التي تُتَوَفَّىٰ وتُقبض، فهي روح واحدة، وهي النفس، وأما ما يؤيد اللهُ به أولياءه من الروح فهي روح أخرى غير هذه الروح، كما قال تعالى:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة: ٢٢]، **وكذلك الروح الذي أيد بها روحَه المسيحَ ابن مريم كما قال تعالى:** ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠]، **وكذلك الروحُ التي يلقيها على من يشاء من عباده هي غيرُ الروح التي في البدن.**

وأما القوىٰ التي في البدن فإنها أيضًا تسمَّىٰ أرواحًا فيقال: الروح الباصر، والروح السامع، والروح الشامُّ. فهذه الأرواح قُوىً مودَعةٌ في الأبدان تموت بموت الأبدان. وهي غيرُ الروح التي لا تموت بموت البدن، ولا تبلىٰ كما يبلىٰ.

وتُطلَق الروح على أخصَّ من هذا كلّه، وهو قوة المعرفة بالله، والإنابة إليه، ومحبته، وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته. ونسبةُ هذه الروح إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن، فإذا فقدَتْها الروح كانت بمنزلة البدن إذا فقد روحَه، وهي الروح التي يؤيِّد بها أهلَ ولايته وطاعته، ولهذا يقول الناس: فلان فيه روح، وفلان ما فيه روح، وهو بَوٌّ[1]، وهو قصَبة فارغة، ونحو ذلك.

---

(١) البَوُّ: جلد الحُوار يُحشىٰ تبنًا ويقرَّب إلىٰ أم الفصيل، فتعطف عليه، وتدرُّ.

فللعلم روحٌ، وللإحسان روح، وللإخلاص روح، وللمحبة والإنابة روح، وللتوكل والصدق روح. والناس متفاوتون في هذه الأرواح أعظم تفاوت، فمنهم مَن تغلبُ عليه هذه الأرواح، فيصير روحانيًّا. ومنهم من يفقدها أو أكثرَها، فيصير أرضيًّا بهيميًّا. والله المستعان.

ص: ٦٢٢

فصل

وأما المسألة الحادية والعشرون

وهي: هل النفس واحدة أم ثلاثة؟

فقد وقع في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاثة أنفس؛ نفس مطمئنة، ونفس لوَّامة، ونفس أمارة، وأن منهم من تغلب عليه هذه، ومنهم من تغلب عليه الأخرىٰ. ويحتجُّون علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]، وبقوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١، ٢]، وبقوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

والتحقيق: أنها نفس واحدة، ولكن لها صفات، فتسمَّىٰ باعتبار كل صفة باسم. فتسمىٰ «مطمئنة» باعتبار طمأنينتها إلىٰ ربها بعبوديته، ومحبته، والإنابة إليه، والتوكُّل عليه، والرضا به، والسكون إليه.

وإن سمةَ محبته وخوفه ورجائه فناؤها [عن] محبةِ غيره وخوفه ورجائه. فتفنىٰ بمحبته عن حبِّ ما سواه، وبذكره عن ذكر ما سواه، وبالشوق إليه وإلىٰ لقائه عن الشوق إلىٰ ما سواه.

فالطمأنينةُ إلى الله سبحانه كيفيةٌ تَرِدُ منه سبحانه على قلب عبده، تجمعُه عليه، وترُدُّ قلبَه الشاردَ إليه، حتى كأنه جالسٌ بين يديه، يسمع به، ويبصر به، ويتحرك به، ويبطش به. فتسري تلك الطمأنينةُ في نفسه وقلبه ومفاصله وقواه الظاهرة والباطنة، فتنجذب روحُه إلى الله، ويلين جلدُه وقلبُه ومفاصلُه إلى خدمته والتقرُّب إليه.



ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وبذكره، وهو كلامه الذي أنزله على رسوله، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. فإنَّ طمأنينةَ القلب سكونُه واستقرارُه بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه، وهذا لا يتأتَّىٰ بشيء سوىٰ الله وذكرِه البتَّة. وأما ما عداه، فالطمأنينةُ إليه وبه غرورٌ، والثقةُ به عَجْزٌ.

قضى الله ﷻ قضاءً لا مردَّ له: أنَّ من اطمأن إلى شيءٍ سواه أتاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهته، كائنًا ما كان؛ بل لو اطمأنَّ العبد إلى علمه وحاله وعمله سُلِبَه وزايَلَه.

وقد جعل الله سبحانه نفوسَ المطمئنين إلىٰ سواه أغراضًا لسهام البلاء، ليعلّم عباده وأولياءه أنَّ المتعلِّق بغيره مقطوعٌ، والمطمئنَّ إلىٰ سواه عن مصالحه ومقاصده مصدودٌ وممنوع.

وحقيقة الطمأنينة التي تصير بها النفس مطمئنةً: أن تطمئن في باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت كماله إلىٰ خبره الذي أخبر به عن نفسه، وأخبرَتْ به عنه رسلُه؛ فتتلقاه بالقبول والتسليم والإذعان، وانشراح الصدر له، وفرحِ القلب به؛

فهذا أول درجات الطمأنينة، ثم لا يزال يقوَىٰ كلما سمع بآية متضمنة لصفة من صفات ربه. وهذا أمر لا نهاية له.

فهذه الطمأنينةُ أصلُ أصولِ الإيمان التي عليها قام بناؤه. ثم يطمئنُّ إلىٰ خبره عما بعدَ الموتِ من أمور البرزخ وما بعدها من أحوال القيامة، حتىٰ كأنه يشاهدُ ذلك كلَّه عِيانًا. وهذا حقيقةُ اليقين الذي وصف به سبحانه أهلَ الإيمان حيث قال: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

فصل

ص: ٦٢٧

الطمأنينة إلى أسماء الله تعالى نوعان

والطمأنينةُ إلىٰ أسماء الربِّ تعالىٰ وصفاته نوعان: طمأنينةٌ إلىٰ الإيمانِ بها وإثباتِها واعتقادِها، وطمأنينةٌ إلىٰ ما تقتضيه وتُوجِبه من آثار العبودية.

وأما طمأنينة الإحسان فهي: الطمأنينة إلىٰ أمره امتثالًا وإخلاصًا ونصحًا، فلا يُقَدِّم علىٰ أمره إرادةً ولا هوًىٰ ولا تقليدًا، فلا يساكن شبهةً تعارض خبرَه، ولا شهوةً تعارض أمرَه، بل إذا مرَّت به أنزلها منزلةَ الوساوس التي لَأنْ يَخِرَّ من السماء إلىٰ الأرض أحبُّ إليه من أن يجدها، فهذا - كما قال النبي ﷺ - «**صريحُ الإيمان**»[1].

وعلامة هذه الطمأنينة أن يطمئن من قلق المعصية وانزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها وفرحتها. ويسهِّل عليه ذلك أن يعلم أنَّ اللذة والحلاوة والفرحة التي في الظفر بالتوبة أضعافُ أضعاف اللذة والحلاوة والفرحة التي في الظفر بالمعصية. وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاق الأمرَيْن وباشر قلبُه آثارهما.

فللتوبة طمأنينةٌ تقابل ما في المعصية من الانزعاج والقلق، ولو فتَّش العاصي عن قلبه لوجَد حشوَه المخاوفَ والانزعاج والقلق والاضطراب. وإنما يواري عنه شهودَ ذلك سُكْرُ الغفلة والشهوة، فإن للشهوة سُكرًا يزيد علىٰ سكر الخمر، وكذلك الغضبُ له سكر أعظم من سكر الشراب. ولهذا ترىٰ العاشقَ والغضبان يفعل ما لا يفعله شارب الخمر.

وكذلك يطمئن من قلق الغفلة والإعراض إلى سكون الإقبال على الله وحلاوة ذكره وتعلُّق الروح بحبه ومعرفته، فلا طمأنينة للروح بدون هذا أبدًا.

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٢).

ولو أنصفَت نفسَها لرأتها إذا فقدت ذلك في غاية الانزعاج والقلق والاضطراب، ولكن تُواريها السَّكرة، فإذا كُشِفَ الغطاء تبيَّن له حقيقة ما كان فيه.

فصل

ص: ٦٢٩

لكل عضو من الإنسان كمال يجب أن يحصل له

وهاهنا سرٌّ لطيف يجب التنبيه عليه والتنبُّه له، والتوفيقُ له بيد مَن أزِمَّةُ التوفيق بيديه، وهو أنَّ الله سبحانه جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالًا إن لم يحصل له وإلا فهو في قلق واضطراب وانزعاج، بسبب فقد كماله الذي جُعل له. مثاله: كمال العين بالإبصار، وكمال الأذن بالسمع، وكمال اللسان بالنطق. فإذا عَدِمتْ هذه الأعضاء القوى التي بها كمالُها حصَل الألم والنقص بحسب فوات ذلك.

وجَعَل كمال القلب ونعيمَه وسروره ولذته وابتهاجه في معرفته سبحانه، وإرادته، ومحبته، والإنابة إليه، والإقبال عليه، والشوق إليه، والأنس به. فإذا عَدِمَ القلبُ ذلك كان أشدَّ عذابًا واضطرابًا من العين التي فقدت النور الباصر، ومن اللسان الذي فقدَ قوة الكلام والذوق. ولا سبيلَ له إلى الطمأنينة بوجه من الوجوه، ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال، إلا بأن يكون الله وحده هو محبوبَه وإلٰهه ومعبودَه وغايةَ مطلوبه، ويكون هو وحده مستعانَه على تحصيل ذلك. فحقيقة الأمر أنه لا طمأنينة له بدون التحقُّق بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وأقوالُ المفسرين في «المطمئنة» ترجع إلىٰ ذلك[1].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٣٩٣ - ٣٩٤).

فكلام السلف في «المطمئنة» يدور علىٰ هذين الأصلين: طمأنينة العلم والإيمان، وطمأنينة الإرادة والعمل.

فصل

ص: ٦٣١

روح الطمأنينة في اليقين والعلم

فإذا اطمأنت من الشكِّ إلى اليقين، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الخيانة إلى التوبة، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن العجز إلى الكَيْس، ومن صَولة العُجب إلى ذلَّة الإخبات، ومن التِّيه إلى التواضع، ومن الفتور إلى العمل= فقد باشرتْ روحَ الطمأنينة.

وأصل ذلك كلِّه ومنشؤه من اليقظة، فهي أولُ مفاتيح الخير، فإن الغافل عن الاستعداد للقاء ربه والتزود لمعاده بمنزلة النائم، بل أسوأُ حالًا منه؟ فإن الغافل يعلمُ وعد الله ووعيدَه وما تتقاضاه أوامر الرب تعالىٰ ونواهيه وأحكامُه من الحقوق، لكن يحجبُه عن حقيقة الإدراك ويُقعده عن الاستدراك سِنةُ القلب، وهي غفلته التي رقد فيها فطال رقوده، وركد وأخلد إلىٰ نوازع الشهوات، فاشتدَّ إخلاده وركوده. وانغمس في غمار الشهوات، واستولت عليه العادات ومخالطةُ أهل البطالات، ورضي بالتشبُّه بأهل إضاعة الأوقات. فهو في رقاده مع النائمين، وفي سَكْرته مع المخمورين. **فمتى انكشفت عن قلبه سنَةُ هذه الغفلة بزجرة من زواجر الحق في قلبه، استجاب فيها لواعظ الله في قلب عبده المؤمن، أو همَّة عليَّة أثارها مِعولُ الفكر في المحلِّ القابل، فضرب بمعول فكره، وكبَّر تكبيرةً أضاءت له منها قصورُ الجنة، فقال:**

ألا يا نفسُ ويحك ساعديني لعلَّك في القيامة أن تفوزي

بسعي منك في ظُلَم الليالي بطيبِ العيشِ في تلك العلالي

فأنارت له تلك الفكرةُ نورًا رأى في ضوئه ما خُلِق له وما سيلقاه بين يديه من حين الموت إلى دخول دار القرار. ورأى سرعةَ انقضاء الدنيا، وعَدَم وفائها لبنيها، وقتلَها لعُشَّاقها وفعلَها بهم أنواع المَثُلات. فنهض في ذلك الضوء على ساق عزمه قائلًا: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، فاستقبل بقيةَ عُمره التي لا قيمة لها مستدركًا بها ما فات، محييًا بها ما أمات، مستقيلًا بها ما تقدَّم له من العثَرات، منتهزًا فرصةَ الإمكان التي إن فاتت فاته جميعُ الخيرات.

ثم يلحظ في نور تلك اليقظة وفود نعمة ربِّه عليه من حين استقرَّ في الرحم إلى وقته، وهو يتقلب فيها ظاهرًا وباطنًا ليلًا ونهارًا، يقظةً ومنامًا، سرًّا وعلانيةً. فلو اجتهد على إحصاء أنواعها لما قَدَر، ويكفي أنَّ أدناها نعمةُ النفَس، ولله عليه في كلِّ يوم أربعة وعشرون ألفَ نعمة، فما ظنُّك بغيرها؟.

ثم يرى في ضوء ذلك النور أنه آيسٌ من حصرها وإحصائها، عاجزٌ عن أداء حقِّها، وأنَّ المنعم بها إن طالبه بحقوقها استوعب جميعَ أعماله حقُّ نعمةٍ واحدة منها، فيتيقَّن حينئذ أنه لا مطمعَ له في النجاة إلا بعفو الله ورحمته وفضله.

ثم يرى في ضوء تلك اليقظة أنه لو عمل أعمال الثَّقَلَين من البرِّ لاحتقَرَها إلى جنب عظمة الربِّ تعالى وما يستحقُّه بجلال وجهه وعظيم سلطانه. هذا لو كانت أعمالُه منه، فكيف وهي مجرَّدُ فضلِ الله ومنَّته وإحسانه؛ حيث يسَّرها له، وأعانه عليها، وهيَّأه لها، وشاءها منه، وكوَّنها، ولو لم يفعل ذلك لم يكن له سبيل إليها، فحينئذٍ لا يرىٰ أعمالَه منه.

وإن الله سبحانه لن يقبل عملًا يراه صاحبُه من نفسه حتى يراه عينَ توفيق الله له، وفضلِه عليه، ومنَّته عليه، وأنه من الله لا من نفسه، وأنه ليس له من نفسه إلا الشرُّ وأسبابُه، وما به من نعمة، فمن الله وحده، صدقةٌ تصدَّق بها عليه، وفضلٌ منه ساقه إليه، من غير أن يستحقَّه بسبب، أو يستأهلَه بوسيلة، فيرى ربَّه ووليَّه ومعبودَه أهلًا لكلِّ خير، ويرى نفسه أهلًا لكل شر، وهذا أساس جميع الأعمال الصالحة، الظاهرة والباطنة. وهو الذي يرفعها، ويجعلها في ديوان أصحاب اليمين.

ثم تبرقُ له في نور تلك اليقظة بارقةٌ أخرى، يرى في ضوئها عيوبَ نفسه وآفاتِ عمله، وما تقدَّم له من الجنايات والإساءات وهتك الحرمات، والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات. فإذا انضم ذلك إلى شهود نعَم الله عليه وأياديه لديه رأى أنَّ حقَّ المنعم عليه في نعمه وأوامره لم يُبق له حسنةً واحدةً يرفع بها رأسه، فتطامَنَ قلبه، وانكسرت نفسه، وخشعت جوارحه، وسار إلى الله ناكسَ الرأس بين مشاهدة نعمه، ومطالعة جناياته وعيوب نفسه وآفات عمله، قائلًا: «أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[1].

فلا يرىٰ لنفسه حسنةً، ولا يراها أهلًا لخير، فيُوجب له أمرين عظيمين: **أحدهما**: استكثارُ ما منَّ الله عليه، **والثاني**: استقلالُ ما مِنه من الطاعة، كائنةً ما كانت.

ثم تبرُق له بارقة أخرى، يرى في ضوئها عزَّةَ وقته وخطرَه وشرفَه، وأنه رأسُ مال سعادته، فيبخل به أن يضيِّعه فيما لا يقرِّبُه إلى ربِّه، فإنَّ في إضاعته الخسرانَ والحسرةَ والندامة، وفي حفظه وعمارته الربح والسعادة، فيشحُّ بأنفاسه أن يضيِّعها فيما لا ينفعه يوم معاده.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

ص: ٦٣٥

فصل

من آثار اليقظة

ثم يلحظ في ضوء تلك البارقةِ ما تقتضيه يقظته من سِنةِ غفلته: من التوبة والمحاسبة والمراقبة، والغَيرة لربه أن يؤثر عليه غيرَه، وعلىٰ حظِّه من رضاه وقربه وكرامته أن يبيعه بثمن بخس في دارٍ سريعةِ الزوال، وعلىٰ نفسه أن يُملِّك رِقَّها لمعشوق لو فكَّر في منتهىٰ حسنه ورأىٰ آخره بعين بصيرته لأنِفَ لها من محبته.

فهذا كله من آثار اليقظة وموجَباتها. وهي أول منازل النفس المطمئنة التي نشأ منها سفرُها إلىٰ الله والدار الآخرة.

ص: ٦٣٦

فصل

النفس اللوامة

وأما اللوَّامة، وهي التي أقسم بها سبحانه في قوله: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]، فاختُلف فيها. فقالت طائفة: هي التي لا تثبتُ علىٰ حال واحدة. أخذوا اللفظةَ من التلوُّم، وهو التردُّد، فهي كثيرة التقلُّب والتلوُّن، وهي من أعظم آيات الله، فإنها مخلوق من مخلوقاته تتقلَّب وتتلوَّن في الساعة الواحدة - فضلًا عن اليوم والشهر والعامِ والعمر - ألوانًا متلوِّنةً، فتذكُر وتغفُل، وتُقبِل وتُعرِض، وتلطُف وتكثُف، وتنيب وتجفو، وتحبُّ وتبغض، وتفرح وتحزن، وترضىٰ وتغضب، وتطيع وتعصي، وتتَّقي وتفجر، إلىٰ أضعاف أضعاف ذلك من حالاتها وتلوُّنها، فهي تتلون كلَّ وقت ألوانًا كثيرة. فهذا قول.

وقالت طائفة: اللفظة مأخوذة من اللوم، ثم اختلفوا، فقالت فرقة: هي نفس المؤمن، وهذا من صفاتها المحمودة. قال الحسن البصري: إن المؤمن لا تراه إلا

يلوم نفسَه دائمًا، يقول: ما أردتُ بهذا؟ لمَ فعلتُ هذا؟ كان غيرُ هذا أولىٰ، ونحوَ هذا من الكلام[١].

وقال غيره: هي نفس المؤمن توقِعُه في الذنب، ثم تلومه عليه، فهذا اللوم من الإيمان، بخلاف الشقيِّ فإنه لا يلوم نفسَه علىٰ ذنب، بل يلومها، وتلومه علىٰ فواته.

وقالت طائفة: بل هذا اللوم للنوعين، فإن كلَّ أحد يلوم نفسه، برًّا كان أو فاجرًا. فالسعيد يلومها علىٰ ارتكاب معصية الله وتركِ طاعته، والشقيُّ لا يلومها إلا علىٰ فوات حظِّها وهواها.

وقالت فرقة أخرىٰ: هذا اللومُ يومَ القيامة، فإنَّ كلَّ أحد يلوم نفسه: إن كان مسيئًا، علىٰ إساءته، وإن كان محسنًا علىٰ تقصيره.

وهذه الأقوال كلها حقٌّ، ولا تنافي بينها، فإن النفس موصوفة بهذا كلِّه، وباعتباره سميت لوَّامةً، ولكن **اللوَّامة نوعان:**

لوَّامةٌ مَلُومة: وهي النفس الجاهلة الظالمة التي يلومها الله وملائكته.

ولوَّامة غيرُ ملومة: وهي التي لا تزال تلومُ صاحبَها على تقصيره في طاعة الله مع بذله جهده، فهذه غيرُ ملومة.

وأشرف النفوس مَن لامت نفسَها في طاعة الله، واحتملت ملامَ اللائمين في مرضاته، فلا تأخذها فيه لومة لائم، فهذه قد تخلَّصت من لَومِ الله لها. وأما من رضيت بأعمالها، ولم تلم نفسها عليها، ولم تحتمِل في الله ملام اللُّوَّام، فهي التي يلومها الله عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) انظر: محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (٤).

ص: ٦٣٩

فصل

النفس الأمارة

وأما النفس الأمارة، فهي المذمومة، فإنها التي تأمر بكلِّ سوء. وهذا من طبيعتها إلا ما وفَّقها الله، وثبَّتها، وأعانها، فما تخلَّص أحد من شرِّ نفسه إلا بتوفيق الله له، كما قال تعالىٰ حاكيًا عن امرأة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾ [النور:٢١]، وقال تعالىٰ لأكرم خلقه عليه وأحبِّهم إليه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

وكان النبي ﷺ يعلِّمهم خطبة الحاجة: «**إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مضِلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له**»[1]، فالشرُّ كامنٌ في النفس، وهو موجِب سيئات الأعمال، فإن خلَّىٰ الله بين العبد وبين نفسه هلك بين شرِّها وما تقتضيه من سيئات الأعمال، وإن وفَّقه وأعانه نجَّاه من ذلك كلِّه، فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

وقد امتحن الله سبحانه الإنسان بهاتين النفسين: الأمارة، واللوَّامة؛ كما أكرمه بالمطمئنة. فهي نفسٌ واحدة تكون أمَّارة، ثم لوامة، ثم مطمئنة. وهي غاية كمالها وصلاحها.

وأيَّد المطمئنة بجنود عديدة، فجعل الملَكَ قرينَها وصاحبَها الذي يليها ويسدِّدها، ويقذف فيها الحقَّ، ويُرغِّبها فيه، ويُريها حسن صورته، ويزجرها عن

(١) أخرجه أبو داود (٢١١٨)، والترمذي (١١٠٥)، وابن ماجه (١٨٩٢) والنسائي (١٤٠٤). وهذه الخطبة المباركة أفردها الألباني في رسالة وخلص إلىٰ تصحيح الحديث.

الباطل، ويُزهِّدها فيه، ويُريها قُبحَ صورته. وأمدَّها بما علَّمها من القرآن والأذكار وأعمال البر، وجعل وُفودَ الخيرات وأمدادَ التوفيق تنتابها وتصلُ إليها من كل ناحية. وكلَّما تلقَّتها بالقبول، والشكرِ، والحمدِ لله، ورؤيةِ أوَّلِيَّته في ذلك كله، ازدادَ مَدَدُها، فتقوىٰ علىٰ محاربة الأمَّارة. فمِن جندها - وهو سلطانُ عساكرها ومَلِكُها - الإيمان واليقين. فالجيوش الإسلامية كلُّها تحت لوائه ناظرةٌ إليه. إن ثبت ثبَتَتْ، وإن انهزم ولَّت علىٰ أدبارها.

ثم أمراءُ هذا الجيش ومقدَّمو عساكره: شُعَبُ الإيمانِ المتعلِّقةُ بالجوارح علىٰ اختلاف أنواعها، كالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونصيحةِ الخلق، والإحسان إليهم بأنواع الإحسان؛ وشُعَبُه الباطنةُ المتعلِّقةُ بالقلب، كالإخلاص والتوكُّل والإنابة والتوبة والمراقبة والصبر والحِلم والتواضع والمسكنة، وامتلاءِ القلب من محبة الله ورسوله، وتعظيمِ أوامر الله وحقوقه، والغيرةِ لله وفي الله، والشجاعة والعفَّة والصدق والشفقة والرحمة.

ومِلاكُ ذلك كلِّه الإخلاص والصدق، فلا يتعنَّىٰ الصادق المخلص، فقد أقيم علىٰ الصراط المستقيم، فيُسَارُ به وهو راقد، ولا يتهَنَّىٰ من حُرِم الصدق والإخلاص، فقد قُطِعت عليه الطريقُ، واستهوته الشياطين في الأرض حيرانَ، فإن شاء فليعمل، وإن شاء فليترك، فلا يزيده عمله من الله إلا بعدًا.

وبالجملة فما كان لله وبالله، فهو من جند النفس المطمئنة.

وأما النفسُ الأمَّارة فجعل الشيطان قرينَها وصاحبَها الذي يليها، فهو يعِدُها ويمنِّيها، ويقذف فيها الباطل، ويأمرها بالسوء ويزيِّنه لها، ويطيل لها في الأمل، ويُريها الباطلَ في صورة تقبلها وتستحسنها، ويُمِدُّها بأنواع الإمداد الباطل من

الأماني الكاذبة والشهوات المهلكة. ويستعينُ عليها بهواها وإرادتها، فمنه يَدخُل عليها، ويُدخِل عليها كلَّ مكروه. فما استعان على النفوس بشيء هو أبلغُ من هواها وإرادتها البتة، وقد علَّم ذلك إخوانَه من شياطين الإنس، فلا يستعينون على الصُّوَر الممنوعة منهم بشيء أبلغَ من هواهم وإرادتهم، فإذا أعيتهم صورة طلبوا بجهدهم ما تحبُّه وتهواه، ثم طلبوا بجدهم تحصيله، فاصطادوا به تلك الصور. فإذا فَتَحت لهم النفسُ باب الهوىٰ دخلوا منه، فجاسُوا خلال الديار، فعاثوا وأفسدوا، وفتكوا وسَبَوا، وفعلوا ما يفعله العدو ببلاد عدوه إذا تحكَّم فيها. فهدَموا معالمَ الإيمان والقرآن والذكر والصلاة، وخرَّبوا المساجد، وعمروا البِيَع والكنائس والحانات والمواخير. وقصدوا إلىٰ المَلِك، فأسروه، وسلبوه ملكه، ونقلوه من عبادة الرحمن إلىٰ عبادة البغايا والأوثان، ومن عزِّ الطاعة إلىٰ ذلِّ المعصية، ومن السماع الرَّحماني إلىٰ السماع الشيطاني، ومن الاستعداد للقاء ربِّ العالمين إلىٰ الاستعداد للقاء إخوان الشياطين، فبينا هو يراعىٰ حقوقَ الله وما أمَرَه به، إذ صار يرعىٰ الخنازير! وبينا هو منتصب لخدمة العزيز الرحيم، إذ صار منتصبًا لخدمة كلِّ شيطان رجيم!

والمقصود أن الملَك قرينُ النفس المطمئنة، والشيطان قرين الأمَّارة. وقد روىٰ أبو الأحوص، عن عطاء بن السائب، عن مُرَّة، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ للشيطان لَـمَّةً من ابن آدم، وللمِلَك لَـمَّة، فأمَّا لَـمَّةُ الشيطان، فإيعادٌ بالشر، وتكذيبٌ بالحق، وأما لَـمَّةُ الملَك، فإيعاد بالخير، وتصديقٌ بالحق، فمن وجد ذلك فلْيَعلم أنه من الله، ولْـيحمد الله، ومن وجد الآخر فليتعوَّذ بالله من الشيطان الرجيم**». ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨][1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٨٨)، وصححه ابن حبان (٩٩٧).

فصل

ص: ٦٤٥

من مقتضيات النفس المطمئنة

فالملَكُ وجندُه من الإيمان يقتضيان من النفس المطمئنة التوحيدَ، والإحسانَ والبرَّ، والتقوىٰ والصبر والتوكل، والتوبة والإنابة والإقبال علىٰ الله، وقصر الأمل والاستعداد للموت وما بعده. والشيطانُ وجندُه من الكفر يقتضيان من النفس الأمَّارة ضدَّ ذلك.

وقد سلَّط الله سبحانه الشيطانَ علىٰ كلِّ ما ليس له، ولم يُرَدْ به وجهُه، ولا هو طاعةٌ له، وجَعَل ذلك إقطاعَه، فهو يستنيب النفسَ الأمَّارةَ علىٰ هذا العمل والإقطاع، ويتقاضاها أن تأخذَ الأعمال من النفس المطمئنة، فتجعلَها قوةً لها، فهي أحرَصُ شيءٍ علىٰ تخليص الأعمال كلِّها لها، وأن تصير من حظوظها، فأصعَبُ شيءٍ علىٰ النفس المطمئنة تخليصُ الأعمال من الشيطان ومن الأمَّارة لله، فلو وصل منها عملٌ واحدٌ كما ينبغي لنجا به العبد، ولكن أبت الأمَّارةُ والشيطانُ أن يدَعا لها عملًا واحدًا يصل إلىٰ الله. كما قال بعض العارفين بالله وبنفسه: والله لو أعلم أنَّ لي عملًا واحدًا وصلَ إلىٰ الله لكنتُ أفرحَ بالموت من الغائبِ يقدَمُ علىٰ أهله.

وقال عبد الله بن عمر: لو أعلم أن الله تقبَّلَ مني سجدة واحدة لم يكن غائبٌ أحبَّ إليَّ من الموت، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧][1].



(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣١/ ١٤٦).

ص: ٦٤٦

فصل

من مقتضيات النفس الأمارة

وقد انتصبت الأمَّارة في مقابلة المطمئنة، فكلُّ ما جاءت به تلك من خيرٍ ضاهتها هذه وجاءت من الشرِّ بما يقابله حتىٰ تفسدَه عليها.

ومن أعجبِ أمرها أن تسحر العقلَ والقلبَ، فتأتي إلىٰ أشرف الأشياء وأفضلها وأجلِّها، فتخرجُه في صورة مذمومة فتُريه صورةَ تجريد التوحيد، التي هي أبهىٰ من صورة الشمس والقمر، في صورة التنقُّص المذموم.

وتُريهم تجريدَ المتابعة للرسول وما جاء به وتقديمَه علىٰ آراء الرجال في صورة تنقُّصِ العلماء والرغبةِ عن أقوالهم وما فهموه عن الله ورسوله، وأنَّ هذا إساءةُ أدب عليهم.

ص: ٦٤٨

فصل

تنفير النفس الأمارة من الإخلاص

وتُريه صورةَ الإخلاص في صورةٍ ينفرُ منها، وهي الخروجُ عن حكمِ العقلِ المعيشي والمداراةِ والمداهنةِ التي بها اندراجُ حال صاحبها ومشيُه بين الناس، فمَنْ أخلصَ أعماله ولم يعمل لأحد شيئًا تجنبهم وتجنَّبوه، فينفِر من ذلك أشدَّ النِّفار، وغايته أن يُخلِصَ في القدر اليسير من أعماله التي لا تتعلَّق بهم، وسائرُ أعماله لغير الله.



فصل

ص: ٦٤٩

تنفير النفس الأمارة من الصدق

وتُريه صورةَ الصدقِ مع الله وجهادِ مَن خرج عن دينِه وأمرِه في قالَب الانتصاب لعداوة الخلق وأذاهم وحربهم، وأنه يُعرِّض نفسَه من البلاء لما لا يطيق، وأنه يصير غرضًا لسهام الطاعنين، وأمثال ذلك من الشُّبَه التي تُقيمها النفس السحَّارة والخيالات التي تُخيِّلها. وتُريه حقيقةَ الجهاد في صورةٍ تُقتَل فيها النفسُ وتُنكَح المرأة، ويصير الأولادُ يتامىٰ، ويُقسَم المال.

وتُريه حقيقةَ الزكاة والصدقة في صورةِ مُفارقة المال ونقصه وخُلوِّ اليد منه، واحتياجه إلىٰ الناس، ومساواته للفقير وعَودِه بمنزلته.

وتُريه حقيقةَ إثباتِ صفاتِ الكمال لله في صورة التشبيه والتمثيل، فينفِرُ من التصديق بها ويُنفِّرُ غيرَه. وتُريه حقيقةَ التعطيل والإلحاد فيها في صورة التنزيه والتعظيم.

وأعجبُ من ذلك أنها تُضاهي ما يحبِّه الله ورسوله من الصفات والأخلاق والأفعال بما يبغضه منها، وتَلبِسُ علىٰ العبد أحدَ الأمرين بالآخر. ولا يُخلِّص هذا من هذا إلا أربابُ البصائر، فإنَّ الأفعال تصدر عن الإرادات وتظهر علىٰ الأركان من النَّفسين: الأمَّارة والمطمئنة، فيتباين الفعلان في الباطن، ويشتبهان في الظاهر.

ولذلك أمثلة كثيرة. منها: المداراة والمداهنة. **فالأول** من المطمئنة، **والثاني** من الأمَّارة. وخشوعُ الإيمان وخشوع النِّفاق، وشرف النفس والتِّيه، والحميَّة والجفاء، والتواضع والمهانة، والقوة في أمر الله والعلو في الأرض، والحميَّة لله والغضب له والحميَّة للنفس والغضب لها، والجودُ والسَّرَف، والمهابة والكبر،

والصيانةُ والتكبر، والشجاعة والجراءة، والحزمُ والجبن، والاقتصادُ والشُّح، والاحتراز وسوءُ الظنِّ، والفِراسة والظن، والنصيحة والغيبة، والهدية والرِّشوة، والصبرُ والقسوة، والعفو والذُّل، وسلامة القلب والبَلَه والغفلة، والثقة والغِرَّة، والرجاءُ والتمني، والتحدُّث بنعم الله والفخر بها، وفرحُ القلب وفرحُ النفس، ورِقَّة القلب والجزع، والمَوْجِدةُ والحقد، والمنافسةُ والحسد، وحبُّ الرِّياسة وحب الإمامة والدعوة إلىٰ الله، والحبُّ لله والحب مع الله، والتوكلُ والعجز، والاحتياط والوَسْوسة، وإلهامُ الملك وإلهام الشيطان، والأَناةُ والتسويف، والاقتصاد والتقصيرُ، والاجتهاد والغُلوُّ، والنصيحة والتأنيب، والمبادرة والعَجَلة، والإخبار بالحال عند الحاجةِ والشكوىٰ.

فالشيء الواحد تكون صورته واحدةً، وهو منقسم إلىٰ محمود ومذموم، كالفرح والحزن والأسف والغضب والغيرة والخُيَلاء والطمع والتجمُّل والخشوع والحسد والغِبطة والجَراءة والتجسسُّ والحرص والتنافس وإظهار النعمة والحَلِف والمسكنة والصَّمت والزهد والورع والتخلِّي والعُزلة والأنفة والحميَّة والغيبة.

وفي الحديث: «**إن من الغَيرة ما يحبُّها الله، ومنها ما يكرهه، فالغيرةُ التي يحبها: الغيرةُ في ريبة، والتي يكرهها: الغيرةُ في غير ريبة. وإن من الخُيَلاء ما يحبُّه الله، ومنها ما يكرهه، فالتي يحبُّ: الخيلاء في الحرب**»(١).

وفي الصحيح أيضًا: «**لا حسَدَ إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله مالًا فسلَّطه علىٰ هَلَكته في الحقِّ، ورجلٌ آتاه الحكمةَ، فهو يقضي بها ويعلِّمها**»(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٥٩)، والنسائي (٢٥٥٨)، وصححه ابن حبان (٢٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣) ومسلم (٨١٦).

وفي الصحيح أيضًا: «**إن الله رفيقٌ يحبُّ الرِّفقَ، ويُعطي علىٰ الرفق ما لا يُعطي علىٰ العنف**»(١).

وفيه أيضًا: «**من أُعطي حظَّه من الرفق فقد أُعطِيَ حظَّه من الخير**»(٢).

فالرفقُ شيء، والتواني والكسلُ شيء. فإن المتوانيَ يتثاقل عن مصلحته بعد إمكانها، فيتقاعد عنها؛ والرفيقُ يتلطَّف في تحصيلها بحسب الإمكان مع المطاولة.

وكذلك المداراة صفة مدح، والمداهنة صفة ذمٍّ. والفرقُ بينهما: أنَّ المداريِ يتلطَّف بصاحبه حتىٰ يستخرج منه الحقَّ أو يردَّه عن الباطل، والمداهن يتلطَّف به لِيُقِرَّه علىٰ باطله ويتركَه علىٰ هواه، فالمداراة لأهل الإيمان، والمداهنة لأهل النِّفاق.

فصل

ص: ٦٥٥

الفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق

والفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النِّفاق أنَّ خشوع الإيمان هو خشوعُ القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء، فينكسر القلبُ لله كَسْرةً ملتئمةً من الوجل والخجل والحبِّ والحياء، وشهود نعَم الله، وجناياته هو، فيخشع القلب لا محالة، فيتبعه خشوعُ الجوارح.

وأما خشوعُ النِّفاق، فيبدو علىٰ الجوارح تصنُّعًا وتكلُّفًا، والقلب غير خاشع. وكان بعض الصحابة يقول: أعوذ بالله من خشوع النِّفاق. قيل له: وما خشوع النِّفاق؟ قال: أن يُرىٰ الجسد خاشعًا، والقلب غير خاشع(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠١٣)، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه الإمام أحمد في الزهد (٧٥٧) وابن أبي شيبة في المصنف (٣٦٨٦١).



فالخاشعُ لله عبد قد خمدَتْ نيرانُ شهوته، وسكَنَ دخانُها عن صدره، فانجلىٰ الصدر، وأشرق فيه نورُ العظمة، فماتتْ شهواتُ النفس، للخوف والوقار الذي حُشي به، وخمدت الجوارحُ، وتوقَّر القلب، واطمأنَّ إلىٰ الله وذكره، بالسكينة التي تنزَّلتْ عليه من ربِّه، فصار مخبتًا له.

فهذا خشوع الإيمان.

وأما التماوت وخشوع النِّفاق، فهو حال عبد تكلَّف إسكانَ الجوارح تصنُّعًا ومراياةً، ونفسُه في الباطن شابّةٌ طريَّةٌ ذاتُ شهوات وإرادات.

فصل

ص: ٦٥٦

شرف النفس وصيانتها عن الرذائل

وأما شرفُ النفس، فهو صيانتها عن الدَّنايا والرذائل والمطامع التي تقطِّعُ أعناق الرجال، فربأ بنفسه عن أن يُلقيها في ذلك، بخلاف **التِّيه**، فإنه خلُق متولِّد بين أمرين: إعجابهِ بنفسه وإزرائه بغيره، فيتولَّد من بين هذين التِّيهُ.

فصل

ص: ٦٥٧

الفرق بين الحمية والجفاء

وكذلك الفرقُ بين الحميَّة والجفاء، فإنَّ الحميَّةَ فِطامُ النفس عن رضاع اللؤم من ثديٍ هو مَصَبُّ الخبائث والرذائل والدَّنايا، بخلاف الجفاء فإنه غِلظةٌ في النفس، وقَساوة في القلب، وكثافة في الطبع، يتولَّد عنها خلُقٌ يُسمَّىٰ الجفاء.



فصل

ص: ٦٥٧

الفرق بين التواضع والمهانة

والفرقُ بين التواضعِ والمَهانة أن التواضعَ يتولَّد من بين العلمِ بالله سبحانه، ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله، وتعظيمه ومحبَّته وإجلاله؛ ومن معرفته بنفسهِ ونقائصها وعيوبِ عمله وآفاتها، فيتولَّد من بين ذلك كلِّه خُلقٌ هو التواضع، وهو انكسارُ القلب لله، وخفضُ جناح الذلِّ والرحمة لعباده، فلا يرىٰ له علىٰ أحد فضلًا، ولا يرىٰ له عند أحد حقًّا، بل يرىٰ الفضلَ للناس عليه والحقوقَ لهم قِبله. وهذا خُلقٌ إنما يُعطيه الله ﷻ مَن يُحبه ويُكرمه ويُقرِّبه.

وأما المهانة، فهي الدَّناءة والخِسَّة، وبذل النفس وابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها، كتواضعِ السُفَّل في نيل شهواتهم، وتواضعِ المفعول به للفاعل، وتواضعِ طالب كلِّ حظٍّ لمن يرجو نيلَ حظِّه منه، فهذا كلُّه ضَعةٌ، لا تواضع، والله سبحانه يحبُّ التواضع، ويبغضُ الضَّعة والمهانة.

وفي الصحيح عنه ﷺ: «**وأوحي إليَّ أن تَواضَعوا حتىٰ لا يفخرَ أحدٌ علىٰ أحد، ولا يَبغيَ أحدٌ علىٰ أحد**»[1].



(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

ص: ٦٥٩

فصل

القوة في العبادات من صور تعظيم الله تعالى

وكذلك **القوة في أمر الله** هي من تعظيمه وتعظيم أوامره وحقوقه حتىٰ يقيمها لله. **والعلوُّ في الأرض** هو من تعظيمِ نفسه وطلبِ تفرُّدها بالرِّياسة ونَفاذِ الكلمة سواءً عزَّ أمر الله أو هان، بل إذا عارضه أمرُ الله وحقوقُه ومرضاتُه في طلب عُلوه لم يلتفت إلىٰ ذلك، وأهدره، وأماتَه في تحصيل علوِّه.

وكذلك **الحميَّة لله، والحميَّة للنفس. فالأولى** يثيرها تعظيمُ الأمر والآمرِ، **والثانية** يُثيرها تعظيمُ النفس، والغضبُ لفوات حظوظها. فالحميَّة لله أن يحمَىٰ قلبه له من تعظيم حقوقه، وهي حالُ عبد قد أشرق علىٰ قلبه نورُ سلطان الله، فامتلأ قلبه بذلك النور، فإذا غضب فإنما يغضب من أجل نورِ ذلك السلطان الذي أُلقي علىٰ قلبه.

والفرقُ بين الجُود والسَّرَف: أنَّ الجوادَ حكيمٌ يضع العطاءَ مواضعَه، والمسرفُ مبذِّر، قد يُصادف عطاؤه موضعَه، وكثيرًا لا يصادفه.

وإيضاحُ ذلك أن الله سبحانه بحكمته جعل في المال حقوقًا، وهي نوعان: حقوق موظفة وحقوق ثابتة، فالحقوق الموظفة كالزكاة والنفقات الواجبة علىٰ من تلزمه نفقتُه، والثابتة: كحقِّ الضَّيف، ومكافأة المُهدي، وما وقىٰ به عِرْضَه ونحو ذلك. فالجوادُ يتوخَّىٰ بماله أداء هذه الحقوق علىٰ وجه الكمال، طَيِّبةً بذلك نفسُه، راضيةً مؤمِّلةً للخُلف في الدنيا والثواب في العُقبىٰ، فهو يُخرِج ذلك بسماحة قلب، وسخاوة نفس، وانشراح صدرٍ، بخلاف المبذِّر، فإنه يبسط يده في ماله بحكم هواه وشهوته جزافًا، لا علىٰ تقدير ولا مراعاة مصلحة، وإن اتَّفقتْ له.

فصل

ص: ٦٦٢

الفرق بين المهابة والكبر

والفرقُ بين المهابةِ والكِبْر: أن المهابة أثرٌ من آثار امتلاء القلب بعظمة الله ومحبته وإجلالِهِ، فإذا امتلأ القلبُ بذلك حلَّ فيه النورُ، ونزلت عليه السكينة، وأُلبِسَ رداءَ الهيبة، فاكتسىٰ وجهُه الحلاوة والمهابة، فأخذ بمجامع القلوب محبةً ومهابةً، فحنَّت إليه الأفئدة، وقرَّت به العيون، وأنِست به القلوب.

وأما الكبر، فأثرٌ من آثار العُجب والبغي من قلبٍ قد امتلأ بالجهل والظلم، ترحَّلت منه العبودية، ونزل عليه المقتُ؛ فنظرُه إلىٰ الناس شَزْر، ومشيُه بينهم تبختُر، ومعاملتُه لهم معاملةُ الاستئثار، لا الإيثار ولا الإنصاف.

فصل

ص: ٦٦٣

الفرق بين الصيانة والتكبر

والفرقُ بين الصِّيانة والتكبر: أن الصائنَ لنفسه بمنزلة رجل قد لبس ثوبًا جديدًا نقيَّ البياض ذا ثمن، فهو يدخل به علىٰ الملوك فمن دونَهم، فهو يصونه عن الوسَخ والغبار والطبوع[1] وأنواع الآثار إبقاءً علىٰ بياضه ونقائه.

بخلاف صاحب العُلوِّ، فإنه وإن شابَهَ هذا في تحرُّزه وتجنُّبه، فهو يقصِد أن يعلو رقابَهم، ويجعلهم تحت قدمه، فهذا لون، وذاك لون.

(١) جمع طبع، وهو اللطخة من المداد والوسخ ونحوه. انظر: تكملة المعاجم العربية (٧/ ١٧).

ص: ٦٦٤

فصل

الفرق بين الشجاعة والجراءة

والفرق بين الشجاعة والجَراءة: أنَّ الشجاعةَ من القلب، وهي ثباتُه واستقرارُه عند المخاوف، وهو خُلقٌ يتولَّد من الصبر وحُسن الظن، فإنه متىٰ ظنَّ الظَّفَر، وساعده الصبر، ثبَتَ؛ كما أنَّ الجبن يتولَّد من سوء الظن وعدمِ الصبر، فلا يظن الظَّفَر، ولا يساعده الصبر.

وأصلُ الجبن من سوء الظن ووسوسة النفس بالسوء.

فإذا ساء الظن، ووسوست النفس بالسوء، زاحمت القلبَ في مكانه، وضيَّقت عليه حتىٰ أزعجته عن مستقره، فأصابه الزلازل والاضطراب، ولهذا في حديث عمرو بن العاص الذي رواه أحمد وغيره عن النبي ﷺ: «**شَرُّ ما في المرء جبنٌ خالعٌ وشحٌّ هالعٌ**»[1].

فإذا زال القلبُ عن مكانه ضاع تدبيرُ العقل، فظهر الفساد علىٰ الجوارح، فوضعت الأمورَ علىٰ غير مواضعها، فالشجاعة حرارةُ القلب، وغضبه، وقيامه، وانتصابه، وثباته.

وأما الجراءة، فهي إقدامٌ سببه قلةُ المبالاة وعدم النظر في العاقبة، بل تقدُّم النفس في غير موضع الإقدام مُعرِضةً عن ملاحظة المعارض فإما عليها وإما لها. والله أعلم.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٨٠١٠)، وأبو داود (٢٥١١)، وصححه ابن حبان (٣٢٥٠).

فصل

ص: ٦٦٦

الفرق بين الحزم والجبن

وأما الفرقُ بين الحزم والجبن: فالحازم هو الذي قد جمع عليه همَّه وإرادته وعقله، ووزن الأمورَ بعضها ببعض، وعرَف منها خيرَ الخيرين وشرَّ الشرين، فأحجمَ في موضع الإحجام رأيًا وعقلًا، لا جُبنًا ولا ضَعفًا.

والفرق بين الاقتصاد والشُّحِّ: أنَّ الاقتصاد خُلقٌ محمود يتولَّد من خلقين: عدل وحكمة، فبالعدل يعتدل في المنع والبذل، وبالحكمة يضعُ كل واحد منهما موضعَه الذي يليق به، فيتولَّد من بينهما الاقتصاد، وهو وسطٌ بين طرفين مذمومين كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقال: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١].

وأما الشحُّ، فهو خُلقٌ ذميم يتولَّد من سوء الظن وضعف النفس، ويُمِدُّه وعدُ الشيطان حتىٰ يصير هالعًا، والهلَعُ: شدَّة الحرص علىٰ الشيء والشَّره به، فيتولَّد عنه المنعُ لبذله، والجزَعُ لفقده، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ - ٢١].

ص: ٦٦٧

فصل

الفرق بين الاحتراز وسوء الظن

والفرق بين الاحتراز وسوء الظنِّ: أنَّ المحترز بمنزلة رجل قد خرج بماله ومركوبه مسافرًا، فهو يحترز بجهده من كل قاطعٍ للطريق، وكلِّ مكانٍ يتوقع منه الشر.

وأما سوء الظن فهو امتلاء قلبه بالظُّنون السيئة بالناس حتىٰ يطفحَ علىٰ لسانه وجوارحه، فهم معه أبدًا في الهمز واللَّمز والطعن والعيب والبُغض.

فالأول يُخالطهم ويحترز منهم، **والثاني** يتجنَّبهم ويَلحقه أذاهم.

ص: ٦٦٨

فصل

الفرق بين الفراسة والظن

والفرق بين الفراسة والظنِّ: أن الظن يخطئ ويصيب، وهو يكون مع ظلمة القلب ونوره وطهارته ونجاسته، ولهذا أمرَ تعالىٰ باجتناب كثيرٍ منه، وأخبر أن بعضه إثمٌ.

وأما الفراسة فأثنىٰ علىٰ أهلها ومدَحهم في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥] قال ابن عباس وغيره: أي: المتفرِّسين[1]. وقال تعالىٰ: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ﴾ [محمد: ٣٠].

فالفراسةُ الصادقةُ لقلبٍ قد تطهَّر وتصفَّىٰ، وتنزَّه من الأدناس، وقرُب من الله، فهو ينظر بنور الله الذي جعله في قلبه. وفي الترمذي وغيره من حديث أبي سعيد قال:

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٩٤، ٩٥)، (١٧/ ١٢٠، ١٢١).

قال رسول الله ﷺ: «**اتقُوا فِراسةَ المؤمن، فإنه ينظرُ بنور الله**»[١].

وليس هذا من علمِ الغيب، بل علَّامُ الغيوب قذَفَ الحقَّ في قلبٍ قريبٍ منه، مُستنيرٍ بنوره، غيرِ مشغولٍ بنفوس الأباطيل والخيالات والوساوس التي تمنعه من حصولِ صور الحقائق فيه.

وقد كان رسول الله ﷺ يرىٰ أصحابَه في الصلاة وهم خلفه كما يراهم أمامه[٢].

ورأىٰ بيتَ المقدس عِيانًا وهو بمكة[٣].

ورأىٰ قصورَ الشام، وأبوابَ صنعاء، ومدائنَ كسرىٰ؛ وهو بالمدينة يحفِرُ الخندق[٤].

ورأىٰ أمراءه بمؤتة وقد أُصيبوا وهو بالمدينة[٥].

ورأىٰ النجاشيَّ بالحبشة لما مات، وهو بالمدينة، فخرج إلىٰ المصلَّىٰ، فصلَّىٰ عليه[٦].

ورأىٰ عمرُ ساريةَ بنهاوند من أرض فارس هو وعساكر المسلمين، وهم يقاتلون عدوَّهم، فناداه: يا ساريةُ، الجبل[٧].

وقيل: إن الشافعيَّ ومحمد بن الحسن جلسا في المسجد الحرام، فدخل

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٢٧) وضعَّفه بقوله: «حديث غريب».

(٢) أخرجه البخاري (٤١٨، ٤١٩)، ومسلم (٤٢٣ - ٤٢٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٨٦) ومسلم (١٧٠).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (١٨٦٩٤)، وحسنه ابن حجر في الفتح (٧/ ٣٩٧).

(٥) أخرج البخاري (٣٧٥٧).

(٦) أخرج البخاري (١٢٤٥) ومسلم (٩٥١).

(٧) الرياض النضرة (٢/ ١١ - ١٢).

رجلٌ، فقال محمد: أتفرَّس أنه نجار، وقال الشافعي: أتفرَّس أنه حداد. فسألاه، فقال: كنتُ حدَّادًا، وأنا اليوم أنجُر[١].

وكان شاه الكِرماني جيِّدَ الفِراسة لا تُخطئ فراسته، وكان يقول: من غضَّ بصره عن المحارم، وأمسكَ نفسَه عن الشهوات، وعمَرَ باطنَه بدوام المراقبة، وظاهِرَه باتباع السنة، وتعوَّد أكل الحلال= لم تُخطئ فراسته[٢].

وهذا عثمانُ بن عفان، دخل عليه رجل من الصحابة، وقد رأىٰ امرأةً في الطريق، فتأمَّل محاسنها، فقال له عثمان: يدخل عليَّ أحدُكم، وأثر الزنا ظاهر علىٰ عينيه! فقلت: أوحيٌ بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: لا، ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة[٣].

فهذا شأن الفراسة، وهي نور يقذفه الله في القلب، فيخطر له الشيء، فيكون كما خطَر له؛ وينفُذ إلىٰ العين، فترىٰ ما لا يراه غيرها.

فصل

ص: ٦٧٥

الفرق بين النصيحة والغيبة

والفرق بين النصيحة والغيبة: أنَّ النصيحة يكون القصدُ فيها تحذيرَ المسلم من مبتدع أو فتَّان أو غاشٍّ أو مفسد، فتذكُر ما فيه إذا استشارك في صحبته ومعاملته والتعلُّق به، كما قال النبيُّ ﷺ لفاطمة بنت قيس، وقد استشارته في نِكاح معاوية وأبي جَهْم، فقال: «**أما معاوية فصُعلوك، وأما أبو جَهم فلا يضع عصاه عن عاتقه**»[٤].

---

(١) الرسالة القشيرية (٣/ ٣٨٧).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٣٨٨ - ٣٨٩).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٣٩٣).
(٤) أخرجه مسلم (١٤٨٠).

فإذا وقعت الغيبة علىٰ وجه النصيحة لله ورسوله وعباده المسلمين، فهي قُربة إلىٰ الله، من جملة الحسنات، وإذا وقعت علىٰ وجه ذمِّ أخيك، وتمزيق عِرضه، والتفكُّهِ بلحمه، والغضِّ منه؛ لتضع منزلته من قلوب الناس= فهي الداءُ العُضال، ونارُ الحسنات التي تأكلها كما تأكل النارُ الحطب.

فصل

ص: ٦٧٦

الفرق بين الهدية والرشوة

والفرق بين الهدية والرِّشوة وإن اشتبها في الصورة: القصد، فإنَّ الراشي قصدُه بالرشوة التوصُّلُ إلىٰ إبطال حقٍّ أو تحقيق باطل، فهذا الراشي الملعونُ علىٰ لسان رسول الله ﷺ[1]، فإن رشا لدفعِ الظلم عن نفسه اختصَّ المرتشي وحدَه باللعنة.

وأما المُـهدي، فقصدُه استجلابُ المودَّة والمعرفة والإحسان، فإن قصَد المكافأة فهو مُعاوِض، وإن قصد الربحَ فهو مُستكثِر.

فصل

ص: ٦٧٦

الفرق بين الصبر والقسوة

والفرق بين الصبر والقسوة: أنَّ الصبرَ خلقٌ كَسبي يتخلَّق به العبد، وهو حبسُ النفس عن الجزَع والهلَع والتشكِّي، فيحبس النفسَ عن التسخُّط، واللسانَ عن الشكوىٰ، والجوارحَ عما لا ينبغي له فعله، وهو ثبات القلب علىٰ الأحكام القدرية والشرعية.

وأما القسوةُ، فيُبْسٌ في القلب يمنعه من الانفعال، وغِلظةٌ تمنعه من التأثر بالنوازل، فلا يتأثَّر بها لغلظته وقساوته لا لصبره واحتماله.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٨٠)، والترمذي (١٣٣٧) وابن ماجه (٢٣١٣). وصححه الترمذي.

وتحقيقُ هذا أن القلوب ثلاثة: قلب قاسٍ غليظ بمنزلة اليد اليابسة، وقلب مائع رقيق جدًّا، **فالأول** لا ينفعل لخيرٍ بمنزلة الحجر، **والثاني** بمنزلة الماء، وكلاهما ناقصٌ.

وأصحُّ القلوب: القلبُ الرقيق الصافي الصلب، فهو يرىٰ الحقَّ من الباطل بصفائه، ويقبله ويؤثره برِقَّته، ويحفظه ويحارب عدوَّه بصلابته.

وأبغضُ القلوب إلىٰ الله: القلب القاسي، قال تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]. وقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

فصل

ص: ٦٧٨

الفرق بين العفو والذل

والفرق بين العفو والذلِّ: أنَّ العفوَ إسقاطُ حقِّك جُودًا وكرمًا وإحسانًا، مع قُدرتك علىٰ الانتقام، فتؤثر التركَ رغبةً في الإحسان ومكارم الأخلاق، بخلاف الذُّلِّ، فإن صاحبَه يترك الانتقامَ عجزًا وخوفًا ومهانةَ نفس، فهذا مذموم غير محمود، ولعل المنتقمَ بالحق أحسنُ حالًا منه.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورىٰ: ٣٩]، فمدَحهم بقوتهم علىٰ الانتصار لنفوسهم وتقاضيهم منها ذلك، حتىٰ إذا قدروا علىٰ من بَغَىٰ عليهم، وتمكَّنوا من استيفاء ما لهم عليه، ندَبهم إلىٰ الخلُق الشريف من العفو والصَّفح، فقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورىٰ: ٤٠]، فذكر المقامات الثلاثة: العدل وأباحه، والفضل وندبَ إليه، والظلمَ وحرَّمه.

فإن قيل: فكيف مدَحهم علىٰ الانتصار والعفو، وهما متنافيان؟

قيل: لم يمدَحْهم علىٰ الاستيفاء والانتقام، وإنما مدحهم علىٰ الانتصار، وهو القدرة والقوة علىٰ استيفاء حقهم، فهذا هو الانتصار، فلما قدروا ندَبهم إلىٰ العفو.

ونكتة المسألة أن الانتقامَ شيء، والانتصارَ شيء، فالانتصار أن ينتصر لحقِّ الله ومن أجله، ولا يقوىٰ علىٰ ذلك إلا مَن تخلَّص من ذلِّ حظّه ورِقِّ هواه، فإنه حينئذٍ ينال حظًّا من العزِّ الذي قَسَم الله للمؤمنين، فإذا بُغِيَ عليه انتصر من الباغي، من أجل عزِّ الله الذي أعزَّه به، غيرةً علىٰ ذلك العزِّ أن يُستضامَ ويُقهَر، وحميَّةً للعبد المنسوب إلىٰ العزيز الحميد أن يُستذَلَّ، فهو يقول للباغي عليه: أنا مملوكُ مَن لا يُذِلُّ مملوكَه، ولا يحبُّ أن يُذِلَّه أحد.

فصل

ص: ٦٨٣

الفرق بين سلامة القلب والغفلة

والفرق بين سلامة القلب والبلَه والتغفُّل: أن سلامةَ القلب تكون من إرادة الشرِّ بعد معرفتِه، فيسلَم قلبُه من إرادته وقصدِه، لا من معرفته والعلمِ به، وهذا بخلاف البلَه والغفلة، فإنها جهلٌ وقلّة معرفة، وهذا لا يُحمَد إذ هو نقص، وإنما يحمد الناسُ من هو كذلك لسلامتهم منه.

والكمالُ أن يكون القلب عارفًا بتفاصيل الشرِّ، سليمًا من إرادته. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لستُ بخَبٍّ ولا يخدعني الخَبُّ»[1].

(١) انظر: العقد (٢/ ٢٤١) وأدب الدنيا والدين (١٤).

ص: ٦٨٤

فصل

الفرق بين الثقة والغرة

والفرق بين الثقة والغِرَّة: أنَّ الثقة سكونٌ يستند إلىٰ أدلَّة وأمارات يسكنُ القلب إليها، فكلما قويَت تلك الأمارات قويت الثقة واستحكمت، ولا سيَّما علىٰ كثرة التجارب وصدقِ الفراسة.

واللفظة كأنها - والله أعلم - من الوَثاق، وهو الرِّباط، فالقلب قد ارتبط بمَن وثق به توكُّلًا عليه وحسنَ ظنٍّ به، فصار في وثاق محبته ومعاملته والاستناد إليه والاعتماد عليه، فهو في وثاقه بقلبه وروحه وبدنه، فإذا سار القلبُ إلىٰ الله وانقطع إليه تقيَّد بحبه وصار في وثاق العبودية، فلم يبقَ له مَفزعٌ في النوائب ولا ملجأ غيره، ويصير عدَّته في شدَّته، وذخيرتَه في نوائبه، وملجأه في نوازله، ومستعانَه في حوائجه وضروراته.

وأما الغِرَّة، فهي حال المغترِّ الذي غرَّتْه نفسُه وشيطانُه وهواه وأملُه الخائب الكاذب بربِّه، حتىٰ أتبعَ نفسه هواها، وتمنَّىٰ علىٰ الله الأماني، والغرورُ ثقتُك بمَن لا يوثق به، وسكونُك إلىٰ مَن لا يُسكَن إليه، ورجاؤك النفعَ من المحلِّ الذي لا يأتي بخير كحالِ المغترِّ بالسراب، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

وقال تعالىٰ في وصف المغترِّين: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، فهؤلاء إذا انكشف الغطاء وثبتتْ حقائقُ الأمور علموا أنهم لم يكونوا علىٰ شيء، ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

وفي أثر معروف: «إذا رأيتَ الله سبحانه يزيدُك من نعَمه، وأنت مقيمٌ على معصيته، فاحذره؛ فإنما هو استدراج يستدرجك به»[١]. وشاهد هذا في القرآن في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]. **فهذا من أعظم الغرَّة أن تراه يتابع عليك نعمَه، وأنت مقيم على ما يكره.**

فصل

ص: ٦٨٦

الفرق بين الرجاء والتمني

والفرق بين الرجاء والتمني: أنَّ الرجاء يكون مع بذلِ الجهد واستفراغِ الطاقة في الإتيان بأسباب الظَّفر والفوز، والتمني: حديثُ النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨] فطوىٰ سبحانه بساطَ الرجاء إلا عن هؤلاء.

وقال المغترُّون: إنَّ الذين ضيَّعوا أوامره، وارتكبوا نواهيَه، فاتبعوا ما أسخطه، وتجنَّبوا ما يرضيه= أولئك يرجون رحمته؛ وليس هذا ببِدع من غرور النفس والشيطان لهم. فالرجاءُ لعبدٍ قد امتلأ قلبه من الإيمان بالله واليوم الآخر، فمَثَّل بين عينيه ما وعَده الله من كرامته وجنته، فامتدَّ القلبُ مائلًا إلىٰ ذلك شوقًا إليه وحِرصًا عليه، فهو شبيهٌ بالمادِّ عنقَه إلىٰ مطلوبٍ قد صار نُصْبَ عينيه.

وعلامة الرجاء الصحيح أنَّ الراجي - لخوف فَوت الجنة وذهابِ حظِّه منها - يترك ما يخاف أن يحول بينه وبين دخولها.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢٨/ ٥٤٧) والزهد (١٢)، وحسَّنه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء.



ومن هاهنا صار كلُّ خائف راجيًا، وكلُّ راجٍ خائفًا، فأُطلق اسم أحدهما على الآخر؛ فإنَّ الراجي قلبُه قريبُ الصفةِ من قلب الخائف: هذا الراجي قد نحَّىٰ قلبَه عن مجاورة النفس والشيطان مرتحلًا إلىٰ الله، قد رُفِع له من الجنة علَمٌ فشمَّر إليه وأمَّه مادًّا إليه قلبَه كلَّه، وهذا الخائف فارٌّ من جوارهما، ملتجئٌ إلىٰ الله من حبسهما له في سجنهما في الدنيا، فيُحبسَ معهما بعد الموت ويوم القيامة؛ فإنَّ المرءَ مع قرينه في الدنيا والآخرة. فلما سمع الوعيد ارتحل من مجاورة السوء في الدارين، فأُعطِيَ اسم الخائف، ولما سمع الوعدَ امتدَّ واستطال شوقًا إليه وفرحًا بالظفر به، فأُعطيَ اسم الراجي، وحالاه متلازمان لا ينفكُّ عنهما، **فكلُّ راجٍ خائفٌ من فوات ما يرجوه، كما أنَّ كلَّ خائفٍ راجٍ أمنه مما يخاف، فلذلك تداول الاسمان عليه، قال تعالىٰ:** ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]. **قالوا في تفسيرها: لا تخافون لله عظمة**[1].

فصل

ص: ٦٩٣

الفرق بين التحدث بالنعم والفخر بها

والفرقُ بين التحدُّث بنعم الله، والفخر بها: أن المتحدث بالنعمة مخبِرٌ عن صفات وليِّها ومحضِ جودهِ وإحسانه، فهو مُثْنٍ عليه بإظهارها والتحدُّث بها، شاكر له، ناشر لجميع ما أوْلاه، مقصودُه بذلك إظهارُ صفاتِ الله ومدحُه والثناءُ عليه، وبعثُ النفوسِ علىٰ الطلب منه دون غيره، وعلىٰ محبته ورجائه، فيكون داعيًا إلىٰ الله بإظهار نعمِه ونشرِها والتحدُّثِ بها.

وأما الفخر بالنعم، فهو أن يستطيل بها علىٰ الناس، ويُريهم أنه أعزُّ منهم وأكبر، فيركبُ أعناقهم، ويستعبدُ قلوبهم ويستميلُها إليه بالتعظيم والخدمة. قال النعمان بن

---

(١) زاد المسير (٢/ ٩٦).

بشير: إنَّ للشيطان مصاليَ[١] وفخوخًا، وإنَّ من مصاليه وفخوخهِ البطشَ بنعم الله، والكبرَ على عباد الله، والفخرَ بعطيَّةِ الله، والهونَ في غير ذات الله[٢].

فصل

ص: ٦٩٤

الفرق بين فرح القلب وفرح النفس

والفرق بين فرح القلب وفرح النفس ظاهر، فإنَّ الفرح بالله ومعرفته ومحبته وكلامه من القلب، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦]، فإذا كان أهل الكتاب يفرحون بالوحي، فأولياء الله وأتباعُ رسوله أحقُّ بالفرح به.

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

فهذا فرحُ القلب، وهو من الإيمان ويثابُ عليه العبد، فإن فرحَه به يدل علىٰ رضاه به، بل هو فوق الرِّضا، فالفرحُ بذلك علىٰ قدر محبته، فإنَّ الفرح إنما يكون بالظفر بالمحبوب، وعلىٰ قدر محبته يفرح بحصوله له، فالفرحُ بالله وأسمائه وصفاته ورسوله وسنَّته وكلامه: محضُ الإيمان وصَفوُه ولبُّه، وله عبودية عجيبة وأثر في القلب لا يعبَّر عنه.

---

(١) جمع مِصْلاة، وهي شبيه بالشرَك ينصب للطير وغيرها. غريب الحديث لأبي عبيد (٣/ ٣٩٦).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٥٣). وانظر: الضعيفة (٢٤٦٣).

وله فرحٌ آخر، وهو فرحُه بما منَّ الله به عليه من معاملته والإخلاص له والتوكُّل عليه والثقة به وخوفه ورجائه، وكلما تمكَّن في ذلك قوِيَ فرحُه وابتهاجُه.

وله فرحةٌ أخرىٰ عظيمةُ الوقع عجيبةُ الشأن، وهي الفرحة التي تحصل له بالتوبة، فإنَّ لها فرحةً عجيبة لا نسبةَ لفرحةِ المعصية إليها البتة. فلو علم العاصي أنَّ لذةَ التوبة وفرحتَها تزيد علىٰ لذةِ المعصية وفرحتِها أضعافًا مضاعفةً لَبادرَ إليها أعظم من مبادرته إلىٰ لذة المعصية.

وسرُّ هذا الفرح إنما يعلَمُه مَن عَلِمَ سرَّ فرح الربِّ تعالىٰ بتوبة عبده أشدَّ فرح يقدَّر، ولقد ضرَب له رسول الله ﷺ مثلًا ليس في أنواع الفرح في الدنيا أعظم منه، وهو فرحُ رجلٍ قد خرج براحلته التي عليها طعامه وشرابه في سفر، ففقدها في أرض دَوِّيَّة مَهْلَكة، فاجتهد في طلبها فلم يجدها، فيئس منها، فجلس ينتظر الموت، حتىٰ إذا طَلَع البدرُ رأىٰ في ضوئه راحلَته وقد تعلَّق زمامُها بشجرة، فقال من شدة فرحه: اللهم أنت عبدي وأنا ربُّك. أخطأ من شدَّة الفرح، فالله أفرَحُ بتوبة عبده من هذا براحلته[1].

فصل

ص: ٦٩٧

أعظم الفرح الفرح بمفارقة الدنيا ولقاء الله تعالى

وهاهنا فرحةٌ أعظمُ من هذا كلِّه، وهي فرحته عند مفارقته الدنيا إلىٰ الله، إذا أرسَلَ إليه الملائكةَ، فبشَّروه بلقائه، وقال له ملك الموت: اخرجي أيتها الروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، أبشِري برَوح وريحان وربٍّ غير غضبان، اخرجي راضية مرضيًّا عنك ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٨) ومسلم (٢٧٤٤).

وبعد ذلك فرحٌ آخر لا يُقدَّر ولا يُعبَّر عنه، تتلاشىٰ هذه الأفراح كلُّها عنده، وإنما يكون لأهل السنَّة المصدِّقين برؤية وجه ربهم ﷻ من فوقهم، وسلامه عليهم، وتكليمه إياهم ومحاضرته لهم[١].

فصل

ص: ٦٩٨

الفرق بين رقة القلب والجزع

والفرق بين رِقَّة القلب والجزَع: أنَّ الجزَع ضعفٌ في النفس وخوفٌ في القلب، يمدُّه شدة الطمع والحرص، ويتولَّد من ضعف الإيمان بالقدر؛ وإلا فمتىٰ عُلِم أن المقدَّر كائنٌ ولابدَّ كان الجزع عناءً محضًا ومصيبة ثانية. قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣]. فمتىٰ آمن العبدُ بالقدر، وعلم أنَّ المصيبة مقدَّرةٌ في الحاصل والغائب؛ لم يجزع، ولم يفرح.

ولا ينافي هذا رقَّةَ القلب، فإنها ناشئةٌ من صفة الرحمة التي هي كمال، والله إنما يرحم من عباده الرحماءَ[٢]، وقد كان رسول الله ﷺ أرقَّ الناس قلبًا، وأبعدَهم من الجزع؛ فرقَّةُ القلب رحمة ورأفة، وجزَعُه مرض وضعف.

والله سبحانه إذا أراد أن يرحم عبدًا أسكن في قلبه الرأفة والرحمة، وإذا أراد أن يعذِّبه نزع من قلبه الرحمة والرأفة، وأبدله بهما الغلظة والقسوة.

وفي الحديث الثابت: «**لا تُنزَع الرحمة إلا من شقي**»[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٤٩) وابن ماجه (٤٣٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٨٤).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٤٢)، والترمذي (١٩٢٤)، وصححه ابن حبان (٤٦٢، ٤٦٦).

وفيه: «**من لا يرحم لا يُرحم**»(١).

والربُّ سبحانه هو الرؤوف الرحيم، وأقربُ الخلق إليه أعظمُهم رأفة ورحمة، كما أن أبعدهم منه من اتَّصف بضدِّ صفاته، وهذا باب لا يلِجُه إلا أفرادٌ في العالم.

فصل

ص: ٧٠٢

الفرق بين الموجدة والحقد

والفرق بين الموجِدة والحقد: أنَّ الوَجْد الإحساسُ بالمؤلم، والعلمُ به، وتحرُّك النفس في دفعه؛ فهو كمال، وأما الحقد فهو إضمارُ الشرِّ، وتوقُّعه كلَّ وقت فيمن وجَدْتَ عليه، فلا يزايلُ القلبَ أثرُه.

وفرق آخر، وهو أنَّ الموجدةَ لما ينالك منه، والحقدَ لما يناله منك، فالموجدةُ وجودُ ما نالك من أذاه، والحقدُ توقُّعُ وجودِ ما يناله من المقابلة، فالموجدة سريعة الزوال، والحقد بطيء الزوال، والحقد يجيء مع ضيقِ القلب واستيلاءِ ظلمةِ النفس ودخانِها عليه، بخلاف الموجدة فإنها تكون مع قوته وصلابته وقوة نوره وإحساسه.

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٧، ٦٠١٣) ومسلم (٢٣١٨، ٢٣١٩).

فصل

ص: ٧٠٣

الفرق بين المنافسة والحسد

والفرق بين المنافسة والحسد: أنَّ المنافسةَ المبادرةُ إلىٰ الكمال الذي تشاهدُه من غيرك، فتنافسُه فيه، حتىٰ تلحقَه أو تجاوزَه، فهي من شرف النفس وعلوِّ الهمة وكبر القَدْر، قال تعالىٰ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وأصلها من الشيء النفيس الذي تتعلَّقُ به النفوس طلبًا ورغبةً، فتنافسُ فيه كلُّ من النَّفْسين الأخرىٰ، وربما فرحت إذا شاركتها فيه، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يتنافسون في الخير، ويفرحُ بعضُهم ببعض باشتراكهم فيه، بل يحضُّ بعضُهم بعضًا عليه مع تنافسهم فيه، وهي نوع من المسابقة، وقد قال تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، وقال تعالىٰ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١].

وكان عمر بن الخطاب يُسابق أبا بكر فلم يظفَرْ بسَبْقهِ أبدًا، فلما علم أنه قد استولىٰ علىٰ الأمَد قال: والله لا أسابقُك إلىٰ شيء أبدًا[١]! وقال: والله ما سابقتُه إلىٰ خيرٍ إلا وجدتُه قد سبقني إليه[٢].

والحسدُ خلُقُ نفسٍ ذميمةٍ وضيعةٍ ساقطةٍ، ليس فيها حرصٌ علىٰ الخير، فلعجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخيرَ والمحامدَ ويفوز بها دونها، وتتمنىٰ أن لو فاته كسبُها حتىٰ يساويها في العُدْم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩]. وقال تعالىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٨٠). (٢) أخرجه أحمد في المسند (١٧٥).

فالحَسودُ عدوُّ النعمة، متمَنٍّ زوالَها عن المحسود كما زالت عنه هو، والمنافسُ سابقُ النعمة، متمنٍّ تمامَها عليه وعلىٰ من ينافسه، فهو ينافس غيرَه أن يعلو عليه، ويحبُّ لحاقَه به أو مجاوزته له في الفضل، والحسود يحبُّ انحطاطَ غيره حتىٰ يساويَه في النقصان.

فصل

ص: ٧٠٥

الفرق بين حب الرياسة وحب الإمامة للدعوة

والفرق بين حبِّ الرياسة، وحبِّ الإمامة للدعوة إلى الله، هو الفرق بين تعظيم أمرِ الله والنصحِ له، وتعظيم النفس والسعي في حظها.

فإنَّ الناصحَ لله المعظِّمَ له المحبَّ له يحِبُّ أن يطاع ربُّه فلا يُعصَىٰ، وأن تكون كلمتُه العليا، وأن يكونَ الدين كلُّه لله، وأن يكون العبادُ ممتثلين أوامرَه مجتنبين نواهيَه، فقد ناصحَ اللهَ في عبوديته، وناصحَ خلقَه في الدعوة إلىٰ الله، فهو يحبُّ الإمامة في الدِّين، بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إمامًا يقتدي به المتقون، كما اقتدىٰ هو بالمتقين.

ولهذا ذكر سبحانه عبادَه الذين اختصَّهم لنفسه، وأثنىٰ عليهم في تنزيله، وأحسن جزاءهم يوم لقائه= فذكرهم بأحسنِ أعمالهم وأوصافهم، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

فسؤالهم أن يجعلهم أئمةً للمتقين هو سؤالُ أن يهديَهم ويوفِّقهم، ويمنَّ عليهم بالعلوم النافعة، والأعمالِ الصالحة ظاهرًا وباطنًا التي لا تتم الإمامة إلا بها.

وهذا بخلاف طلب الرياسة، فإنَّ طلَّابها يسعَون في تحصيلها لينالوا بها

أغراضهم من العلوِّ في الأرض، وتعبُّدِ القلوب لهم، وميلِها إليهم، ومساعدتِهم لهم علىٰ جميع أغراضهم؛ مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم، فترتَّب علىٰ هذا الطلب من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله، من البغي والحسد والطغيان والحقد والظلم والفتنة، والحميَّةِ للنفس دون حقِّ الله، وتعظيمِ مَن حقّره الله، واحتقارِ مَن أكرمه الله.

فصل

ص: ٧٠٧

الفرق بين الحب في الله والحب مع الله

والفرقُ بين الحبِّ في الله والحبِّ مع الله. وهذا من أهمِّ الفروق، وكلُّ أحد محتاج بل مضطرٌّ إلىٰ الفرق بين هذا وهذا، فالحبُّ في الله هو من كمالِ الإيمان، والحبُّ مع الله هو عين الشرك.

والفرقُ بينهما: أن الحبَّ في الله تابع لمحبة الله، فإذا تمكنت محبتُه من قلب العبد أوجبَت تلك المحبةُ أن يحبَّ ما يحبُّه الله، فإذا أحبَّ ما أحبَّه ربُّه ووليُّه كان ذلك الحبُّ له وفيه، كما يحبُّ رسلَه وأنبياءه وملائكته وأولياءه لكونه تعالىٰ يحبهم، ويُبغض من يُبغضه لكونه تعالىٰ يبغضه.

وهذا بخلاف الحبِّ مع الله، فهو نوعان: نوع يقدح في أصل التوحيد، وهو شرك، ونوع يقدح في كمال الإخلاص ومحبة الله، ولا يُخرِج من الإسلام.

فالأول كمحبة المشركين لأوثانهم وأندادهم، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فهؤلاء المشركون يحبون أوثانَهم وأصنامَهم وآلهتهم مع الله كما يحبون الله تعالىٰ، فهذه محبةُ تألُّهٍ وموالاةٍ، يتبعها الخوف والرجاء والعبادة والدعاء.

والنوع الثاني: محبةُ ما زيَّنه الله سبحانه للنفوس من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث، فيحبها محبةَ شهوة كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماء، فهذه المحبة ثلاثة أنواع:

فإن أحبَّها لله توصُّلًا بها إليه، واستعانةً علىٰ مرضاته وطاعته؛ أُثيب عليها وكانت من قِسْم الحبِّ لله، فيثاب عليها، ويلتذُّ بالتمتع بها، وهذا حال أكمل الخلق الذي حُبِّب إليه من الدنيا: النساءُ والطيب[1]، وكانت محبتُه لهما عونًا له علىٰ محبة الله وتبليغِ رسالاته والقيام بأمره.

وإن أحبَّها لموافقة طبعه وهواه وإرادته، ولم يؤثِرها علىٰ ما يحبه الله ويرضاه، بل نالها بحكم الميل الطبيعي، كانت من قسم المباحات، ولم يعاقَبْ علىٰ ذلك، ولكن ينقصُ من كمال محبته لله والمحبة فيه.

وإن كانت هي مقصودَه ومرادَه، وسعيُه في تحصيلها والظفر بها، وقدَّمها علىٰ ما يحبُّه الله ويرضاه منه= كان ظالمًا لنفسه، متَّبعًا لهواه.

فالأولى: محبة السابقين.

والثانية: محبة المقتصدين.

والثالثة: محبة الظالمين.

فتأمَّلْ هذا الموضع وما فيه من الجمع والفرق، فإنه معترَك النفس الأمَّارة والمطمئنة، والمهديُّ من هداه الله.

---

(١) أخرجه النسائي (٣٩٤٩، ٣٩٥٠). وحسنه ابن حجر في التلخيص (٣/ ١١٦).

فصل

ص: ٧١٠

الفرق بين التوكل والعجز

والفرق بين التوكُّل والعجز: أن التوكل عملُ القلب وعبوديتُه اعتمادًا علىٰ الله، وثقةً به، والتجاءً إليه، وتفويضًا إليه، ورضًا بما يقضيه له؛ لعلمه بكفايته سبحانه وحسنِ اختياره لعبده إذا فوَّض إليه مع قيامه بالأسباب المأمورِ بها واجتهادِه في تحصيلها، فقد كان رسول الله ﷺ أعظمَ المتوكلين علىٰ الله، وكان يلبس لأمتَه ودرعَه، بل ظاهَرَ يوم أُحُد بين درعين[1]، واختفىٰ في الغار ثلاثًا[2]، فكان متوكلًا في السبب، لا علىٰ السبب.

وأما العجز، فهو تعطيل الأمرين أو أحدِهما، فإما أن يعطِّل السبب عجزًا عنه، ويزعمَ أن ذلك توكُّلٌ، ولعمرُ الله، إنه لَعجز وتفريط. وإما أن يقوم بالسبب ناظرًا إليه معتمِدًا عليه، غافلًا عن المسبِّب معرِضًا عنه، وإن خطر بباله لم يثبُت معه ذلك الخاطر، ولم يعلَقْ قلبُه به تعلُّقًا تامًّا بحيث يكون قلبه مع الله، وبدنُه مع السبب، فهذا توكُّلُه عجز، وعجزُه توكُّل.

وهذا موضع انقسم الناس فيه طرفَين ووسَطًا: **فأحدُ** الطرفين عطَّل الأسباب محافظةً علىٰ التوكل، **والثاني** عطل التوكُّل محافظةً علىٰ السبب، والوسطُ عَلِم أن حقيقة التوكُّل لا تتم إلا بالقيام بالسبب، فتوكَّلَ علىٰ الله في نفس السبب.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٥٧٢٢)، وابن ماجه (٢٨٠٦). وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٠٥).

فصل

ص: ٧١٤

الفرق بين الاحتياط والوسوسة

والفرق بين الاحتياط والوسوسة: أن الاحتياطَ الاستقصاءُ والمبالغةُ في اتباع السنة وما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، من غير غلوٍّ ومجاوزة، ولا تقصير ولا تفريط، فهذا هو الاحتياط الذي يرضاه الله ورسوله.

وأما الوسوسة، فهي ابتداعُ ما لم تأتِ به السنة ولم يفعله رسول الله ﷺ ولا أحدٌ من أصحابه، زاعمًا أنه يصلُ بذلك إلىٰ تحصيل المشروعِ وضبطه.

فصل

ص: ٧١٤

الفرق بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان

والفرق بين إلهام الملَك وإلقاء الشيطان من وجوه:

منها: أن ما كان لله موافقًا لمرضاته وما جاء به رسولُه، فهو من الملَك، وما كان لغيره غيرَ موافق لمرضاته، فهو من إلقاء الشيطان.

ومنها: أنَّ ما أثمرَ إقبالًا على الله، وإنابةً إليه، وذكرًا له، وهمَّة صاعدةً إليه= فهو من إلقاء الملك، وما أثمر ضدَّ ذلك فهو من الشيطان.

ومنها: أنَّ ما أورث أنسًا ونورًا في القلب وانشراحًا في الصدر فهو من الملك، وما أورَث ضدَّ ذلك فهو من الشيطان.

ومنها: أنَّ ما أورث سكينةً وطمأنينةً فهو من الملك، وما أورث قلقًا وانزعاجًا واضطرابًا فهو من الشيطان.

فصل

ص: ٧١٥

الفرق بين الاقتصاد والتقصير

والفرق بين الاقتصاد والتقصير: أن الاقتصاد هو التوسُّط بين طرفي الإفراط والتفريط، وله طرفان هما ضِدَّان له: تقصير، ومجاوزة.

فالمقتصد قد أخذ بالوسط، وعدَلَ عن الطرفين، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: ٣١]، والدين كله بين هذين الطرفين، بل الإسلام قَصْدٌ بين المِلَل، والسُّنَّة قصدٌ بين البدع، ودينُ الله بين الغالي فيه والجافي عنه.

وكذلك **الاجتهادُ** هو بذلُ الجهد في موافقة الأمر، **والغلوُّ** مجاوزته وتعدِّيه، وما أمَرَ الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: فإما إلىٰ غلوٍّ ومجاوزةٍ، وإما إلىٰ تفريطٍ وتقصير.

فصل

ص: ٧١٦

الفرق بين النصيحة والتأنيب

والفرق بين النَّصيحة والتأنيب: أنَّ النصيحة إحسانٌ إلىٰ من تنصحه بصورة الرحمةِ له، والشفقةِ عليه، والغَيْرةِ له، وعليه فهو إحسانٌ محضٌ يصدر عن رحمةٍ ورقَّةٍ ومُرادُ الناصحِ بها وجهُ الله ورضاه، والإحسانُ إلىٰ خلقه، فيتلطَّفُ في بذلها غايةَ التلطُّف، ويحتمل أذىٰ المنصوح ولائمته، ويعامله معاملةَ الطبيبِ العالمِ المشفقِ للمريض المُشبَعِ مرضًا، فهو يحتمل سوء خلُقه وشراسته ونفرته، ويتلطَّف في وصول الدواء إليه بكلِّ ممكنٍ، فهذا شأن الناصح.

وأما المؤنِّبُ، فهو رجلٌ قصدُه التعييرُ والإهانةُ، وذمُّ مَن يؤنِّبه، وشتمُه في صورة النُّصح، فهو يقول له: يا فاعل كذا وكذا، يا مستحقًّا للذمِّ والإهانة، في صورة ناصحٍ مُشفقٍ، وعلامة هذا أنه لو رأىٰ مَن يحبُّه ويحسن إليه علىٰ مثل عمل هذا أو شرٍّ منه لم يعرض له، ولم يقل له شيئًا، ويطلبُ له وجوهَ المعاذير.

فصل

ص: ٧١٧

الفرق بين المبادرة والعجلة

والفرق بين المبادرة والعجلة: أنَّ المبادرةَ انتهازُ الفرصة في وقتها، ولا يتركها حتىٰ إذا فاتت طلَبَها، فهو لا يطلب الأمورَ في أدبارها ولا قبل وقتها، بل إذا حضر وقتُها بادر إليها، ووثب عليها وثوبَ الأسد علىٰ فريسته، فهو بمنزلة مَن يبادر إلىٰ أخذ الثمرة وقتَ كمال نُضجها وإدراكها. والعجلة: طلب أخذ الشيء قبل وقته، فهو لشدَّة حرصه عليه بمنزلة مَن أَخَذَ الثمرة قبل أوان إدراكها. فالمبادرةُ وسطٌ بين خلُقين مذمومين: **أحدهما** التفريط والإضاعة، **والثاني** الاستعجال قبل الوقت.

ولهذا كانت العجلة من الشيطان، فإنها خِفَّة وطيش وحدَّة في العبد تمنعه من التثبُّت والوقار والحلم، وتوجب له وضعَ الأشياء في غير مواضعها، وتجلب عليه أنواعًا من الشرور، وتمنعه أنواعًا من الخير، وهي قرينُ الندامة، فقلَّ مَن استعجل إلا ندم، كما أنَّ الكسل قرينُ الفوت والإضاعة.

فصل

ص: ٧١٨

الفرق بين الإخبار والشكوى

والفرق بين الإخبار بالحال وبين الشكوىٰ وإن اشتبهت صورتُهما: أنَّ الإخبار بالحال يقصد المخبِر به قصدًا صحيحًا من علمِ سببِ إزالته، أو الاعتذار لأخيه من أمرٍ طلبه منه، أو يحذِّره من الوقوع في مثل ما وقع فيه، فيكون ناصحًا بإخباره له، أو حمله علىٰ الصبر بالتأسِّي به.

ولعلَّ من هذا قولَ النبي ﷺ لمَّا قالت عائشةُ: وارأساه! فقال: «**بل أنا وارأساه!**»(١). أي: الوجعُ القويُّ بي أنا دونكِ، فتأسَّي بي، ولا تشتكي.

ويلوح لي فيه معنًىٰ آخر، وهو أنها كانت حبيبة رسول الله ﷺ، بل كانت أحبَّ النساء إليه علىٰ الإطلاق، فلما شكت إليه رأسَها أخبرها أنَّ بمُحِبِّها من الألم مثلَ الذي بها، وهذا غاية الموافقة بين المُحِبِّ ومحبوبِه، يتألَّم بتألُّمه، ويُسَرُّ بسروره، حتىٰ إذا آلمه عضوٌ من أعضائه آلم المُحِبَّ ذلك العضوُ بعينه. وهذا من صدق المحبة وصفاء المودة.

وأما الشكوىٰ، فالإخبار العاري عن القصد الصحيح، بل يكون مصدره السخط، وشِكايةُ المُبتلي إلىٰ غيره، فإن شكا إليه لم يكن ذلك شكوىٰ، بل استعطاف وتملُّق واسترحام له، كقول أيوب: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢]، وقول يعقوب: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

وقول موسىٰ: «**اللهم لك الحمد، وإليك المشتكىٰ، وأنت المستعانُ، وبكَ المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٦٦).

(٢) أخرجه البيهقي في الدعوات الكبير (٢٦٤). وجوّده المنذري في الترغيب والترهيب (٢٧٤٨).

وقول سيد ولد آدم ﷺ: «**اللهم إليك أشكو ضعفَ قوتي وقلةَ حيلتي وهَواني علىٰ الناس، أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربِّي. إلىٰ من تكِلُني؟ إلىٰ بعيدٍ يتجهَّمني، أو إلىٰ عدوٍّ ملَّكتَه أمري؟ إن لم يكن بكَ غضبٌ عليَّ فلا أبالي، غيرَ أن عافيتك أوسَعُ لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحِلَّ عليَّ غضبُك، أو ينزل بي سخطُك. لك العُتبىٰ حتىٰ ترضىٰ، ولا حول ولا قوة إلا بك**»(١).

فالشكوىٰ إلىٰ الله سبحانه لا تنافي الصبر بوجه، فإن الله تعالىٰ قال عن أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] مع إخباره عنه بالشكوىٰ إليه في قوله: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾.

فالله يبتلي عبدَه ليسمع تضرُّعه ودعاءه والشكوى إليه، ولا يحبُّ التجلُّدَ عليه. وأحَبُّ ما إليه انكسارُ قلبِ عبده بين يديه، وتذلُّلُه له، وإظهارُ ضعفه وفاقته وعجزه وقلة صبره. فاحذر كلَّ الحذر من إظهار التجلُّد عليه، وعليك بالتضرُّعِ والتمسكن، وإبداء العجز والفاقة والذُّلِّ والضعف؛ فرحمتُه أقرب إلى هذا القلب من اليد للفم.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٤٧٦٤)، وفي الدعاء (١٠٣٦).

فصل

ص: ٧٢٣

الدين كله فرق والقرآن فرقان

وهذا بابٌ من الفروق يطول، ولعلَّ إن ساعد القدَرُ أن نُفرِد فيه كتابًا كبيرًا، وإنما نبَّهنا بما ذكرنا علىٰ أصوله، واللبيبُ يكتفي ببعض ذلك.

والدِّينُ كله فَرقٌ، وكتابُ الله فُرقانٌ، «ومحمدٌ ﷺ فَرقٌ بين الناس»[1]، ومن اتقىٰ اللهَ جعل له فرقانًا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩]، وسمَّىٰ يومَ بدرٍ يومَ الفرقان[2] لأنه فرَق بين أولياء الله وأعدائه، فالهدىٰ كله فرقان.

والضلال أصله الجمع، كما جمع المشركون بين عبادة الله وعبادة الأوثان، ومحبته ومحبة الأوثان، وبين ما يحبه ويرضاه وبين ما قدَّره وقضاه، فجعلوا الأمر واحدًا، واستدلوا بقضائه وقدره علىٰ محبته ورضاه.

والمقصود أن أرباب البصائر هم أصحاب الفرقان، فأعظم الناس فرقانًا بين المشتبهات أعظم الناس بصيرةً، والتشابه يقع في الأقوال والأعمال والأحوال والأموال والرجال، وإنما أُتي أكثرُ أهل العلم من المتشابهات في ذلك كلِّه. ولا يحصل الفرقان إلا بنورٍ يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده، يرىٰ في ضوئه حقائق الأمور، ويميِّز بين حقها وباطلها، وصحيحها وسقيمها ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

ولا تستطِلْ هذا الفصل، فلعلَّه من أنفع فصول الكتاب، والحاجةُ إليه شديدةٌ،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨١).

(٢) في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾ [الأنفال: ٤١].

فإن رزقك الله فيه بصيرةً خرجتَ منه إلىٰ فرقانٍ أعظم منه، وهو: الفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد المعطِّلين، والفرق بين تنزيه الرسل وتنزيه أهل التعطيل، والفرق بين إثبات الصفات والعلوّ والتكلم والتكليم حقيقةً وبين التشبيه والتمثيل، والفرق بين تجريد التوحيد العملي الإرادي وبين هضم أربابِ المراتب مراتبَهم التي أنزلهم الله إياها، والفرق بين تجريد متابعة المعصوم وبين إهدار أقوال العلماء وإلغائها وعدم الالتفات إليها، والفرق بين تقليد العالم وبين الاستضاءة بنور علمه والاستعانة بفهمه، والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، والفرق بين الحال الإيماني الرحماني والحال الشيطاني الكفري والحال النفساني، والفرق بين الحكم المنزَّل الواجب الاتباع علىٰ كلِّ أحدٍ والحكم المؤوَّل الذي نهايته أن يكون جائز الاتباع عند الضرورة ولا دَرْكَ علىٰ مخالفه.

فصل

ص: ٧٢٦

الفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد المعطلين

ونحن نختم الكتاب بإشارةٍ لطيفةٍ إلىٰ الفروق بين هذه الأمور، إذ كلُّ فرقٍ منها يستدعي بسطُه كتابًا كبيرًا.

فالفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد المعطلين: أنَّ توحيدَ الرسل إثباتُ صفات الكمال لله علىٰ وجه التفصيل، وعبادتُه وحده لا شريك له، فلا يُجعل له ندٌّ في قصدٍ ولا حبٍّ، ولا خوفٍ ولا رجاءٍ، ولا لفظٍ ولا حَلِفٍ ولا نذرٍ.

وأما توحيد المعطلين، فنفيُ حقائق أسمائه وصفاته وتعطيلُها، ومن أمكنه منهم تعطيلُها من لسانه عطَّلها فلا يذكرها، ولا يذكر آيةً تتضمنها، ولا حديثًا يصرِّح

بشيءٍ منها، ومن لم يُمكنه تعطيلُ ذكرِها سطا عليها بالتحريف، ونفىٰ حقيقتها، وجعلها اسمًا فارغًا لا معنىٰ له، أو معناه من جنس الألغاز والأحاجي.

فصل

ص: ٧٢٧

الفرق بين تنزيه الرسل وتنزيه المعطلة

والفرق بين تنزيه الرسل وتنزيه المُعطِّلة: أنَّ الرسلَ نزَّهوه سبحانه عن النقائص والعيوب التي نزَّه نفسَه عنها، وهي المنافيةُ لكماله وكمال ربوبيته وعظمته، كالسِّنة والنوم والغفلة والموت واللُّغوب، والظلم وإرادته والتسمِّي به، والشريك والصاحبة والظهير والولد والشفيع بدون إذنه، وأن يترك عباده سدًىٰ هملًا، وأن يكون خلقهم عبثًا، وأن يكون خلقُ السماوات والأرض وما بينهما باطلًا، لا لثوابٍ ولا عقاب، ولا أمرٍ ولا نهي؛ وأن يُسوِّي بين أوليائه وأعدائه، وبين الأبرار والفجار، وبين الكفار والمؤمنين، وأن يكون في ملكه ما لا يشاء، بل أسماؤه كلُّها حسنىٰ، وصفاتُه كلُّها كمال، وأفعالُه كلُّها خير وحكمة ومصلحة. فهذا تنزيه الرسل لربِّهم.

وأما المعطِّلون، فنزَّهوه عما وصف به نفسَه من الكمال، فنزَّهوه عن أن يتكلَّم أو يُكلِّم أحدًا، ونزَّهوه عن استوائه علىٰ عرشه، وأن تُرفع إليه الأيدي، وأن يصعد إليه الكلمُ الطيِّبُ، وأن ينزل من عنده شيءٌ، أو تعرج إليه الملائكة والرُّوح، وأن يكون فوق عباده وفوق جميع مخلوقاته عاليًا عليها.

ونزَّهوه أن يكون له وجهٌ، وأن يراه المؤمنون بأبصارهم في الجنة، وأن يكلِّمَهم ويسلِّمَ عليهم، ويتجلىٰ لهم ضاحكًا، وأن ينزل كلَّ ليلةٍ إلىٰ السماء الدنيا فيقول: من يستغفرني فأغفِرَ له؟ من يسألني فأعطيَه[1]؟ فلا نزول عندهم ولا قول.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

ص: ٧٢٩

فصل

الفرق بين إثبات حقائق الأسماء والصفات وبين التشبيه والتمثيل

والفرق بين إثبات حقائق الأسماء والصفات وبين التشبيه والتمثيل ما قاله الإمام أحمد ومن وافقه من أئمة الهدىٰ: أنَّ التشبيه والتمثيل أن تقول: يدٌ كيدي، أو سمعٌ كسمعي، أو بصرٌ كبصري، ونحو ذلك[1]. وأما إذا قلتَ: سمعٌ وبصرٌ ويدٌ ووجهٌ واستواءٌ لا يماثل شيئًا من صفات المخلوقين، بل بين الصفة والصفة من الفرق كما بين الموصوف والموصوف= فأيُّ تمثيلٍ هاهنا وأيُّ تشبيهٍ، لولا تلبيسُ الملحدين؟

فمدارُ الحقِّ الذي اتفقت عليه الرسل أن يوصفَ اللهُ بما وصَف به نفسَه، وبما وصفه به رسلُه، من غير تحريفٍ ولا تعطيل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل.

ص: ٧٣٠

فصل

الفرق بين تجريد التوحيد وبين هضم المراتب

والفرق بين تجريد التوحيد وبين هضم أرباب المراتب: أنَّ تجريد التوحيد أن لا يُعطىٰ المخلوقُ شيئًا من حقِّ الخالق وخصائصه، فلا يُعبد، ولا يُصلَّىٰ له ويُسجَد، ولا يُحلَف باسمه، ولا يُنذَر له، ولا يُتوكل عليه، ولا يُؤلَّه، ولا يُقسَم به علىٰ الله، ولا يُعبَد ليقرِّب إلىٰ الله زلفىٰ. ولا يُساوَىٰ بربِّ العالمين في قول القائل: ما شاء الله وشئت، وهذا منك ومن الله، وأنا بالله وبك، وأنا متوكِّل علىٰ الله وعليك، والله لي في السماء وأنت في الأرض، وهذا من صدقاتك وصدقات الله، وأنا تائب إلىٰ الله وإليك، وأنا في حسبِ الله وحسبِك.

---

(١) انظر قوله في إبطال التأويلات للقاضي أبي يعلىٰ (١/ ٤٣، ٤٥).

فإذا هُضِم المخلوقُ خصائصَ الربوبية وأُنزِلَ منزلةَ العبد المحض الذي لا يملك لنفسه - فضلًا عن غيره - ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا لم يكن هذا تنقُّصًا له، ولا حطًّا من مرتبته، ولو زعم المشركون.

وقد صحَّ عن سيِّد ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: «**لا تُطروني كما أطرتِ النصارىٰ ابنَ مريم، فإنما أنا عبد الله، فقولوا: عبد الله ورسوله**»[1].

وقال له رجلٌ: ما شاء الله وشئتَ، فقال: «**أجعلتني لله نِدًّا؟**»[2].

وقد قال الله له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقال: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٤٩].

فصل

ص: ٧٣٤

الفرق بين متابعة المعصوم وهدر أقوال العلماء

والفرق بين تجريد متابعة المعصوم وإهدار أقوال العلماء وإلغائها: أنَّ تجريد المتابعة أن لا تُقدِّم علىٰ ما جاء به قولَ أحدٍ ولا رأيه كائنًا من كان، بل تنظر في صحة الحديث **أولًا**، فإذا صحَّ لك نظرتَ في معناه **ثانيًا**، فإذا تبيَّن لكَ لم تعدِلْ عنه، ولو خالفك مَن بين المشرق والمغرب.

فمن عرض أقوال العلماء علىٰ النصوص، ووزنها بها، وخالف منها ما خالف النصَّ= لم يُهدِر أقوالهم، ولم يهضم جانبهم، بل اقتدىٰ بهم، فإنهم كلهم أمَروا

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١٨٣٩). وإسناده حسن.

بذلك، فمتَّبعُهم حقًّا مَن امتثل ما أوصَوا به، لا مَن خالفهم، فخلافُهم في القول الذي جاء النص بخلافه أسهلُ من مخالفتهم في القاعدة الكلية التي أمَروا ودعَوا إليها من تقديم النصِّ علىٰ أقوالهم.

ومن هنا يتبيَّن الفرق بين تقليد العالم في كلِّ ما قال، وبين الاستعانة بفهمه والاستضاءة بنور علمه.

فصل

ص: ٧٣٥

الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: أنَّ أولياء الرحمن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، هم الذين آمنوا وكانوا يتقون. وهم المذكورون في أول سورة البقرة إلىٰ قوله: ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [٢ - ٥]، وفي وسطها في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [١٧٧]، وفي أول الأنفال إلىٰ قوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [١- ٤]، وفي أول سورة المؤمنين إلىٰ قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [١ - ١١]، وفي آخر سورة الفرقان، وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ إلىٰ آخر الآية [الأحزاب: ٣٥]، وفي قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٣]، وفي قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]، وفي قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٢٢ - ٣٥]، وفي قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ إلىٰ آخر الآية [التوبة: ١١٢].

فأولياء الرحمن هم: المخلصون لربِّهم، المحكِّمون لرسوله في الدِّقِّ والجِلِّ، الذين يخالفون غيرَه لسنَّته، ولا يخالفون سنَّتَه لغيرها. فلا يبتدعون، ولا يدعون إلىٰ بدعة، ولا يتحيَّزون إلىٰ فئةٍ غير الله ورسوله وأصحابه، ولا يتخذون دينهم لهوًا ولعبًا، ولا يستحبُّون سماع الشيطان علىٰ سماع القرآن.

فإذا رأيت الرجل يحب السماعَ الشيطاني ومؤذنَ الشيطان وإخوانَ الشياطين، ويدعو إلىٰ ما يحبه الشيطان من الشرك والبدع والفجور= علمتَ أنه من أوليائه. **فإن اشتبه عليك، فاكشِفْه في ثلاثة مواطن: في صلاته، ومحبته للسنة وأهلها وتقرُّبه منهم، ودعوته إلى الله ورسوله وتجريد التوحيد والمتابعة وتحكيمِ السنَّة.** فزِنْه بذلك، لا تزِنْه بحالٍ ولا كشفٍ ولا خارقٍ، ولو مشىٰ علىٰ الماء وطار في الهواء!

فصل

ص: ٧٣٩

الفرق بين الحال الإيماني والحال الشيطاني

وبهذا يُعلَم **الفرق بين الحال الإيماني والحال الشيطاني**. فإنَّ الحال الإيماني ثمرة المتابعة للرسول، والإخلاص في العمل، وتجريدِ التوحيد، ونتيجتُه منفعةُ المسلمين في دينهم ودنياهم. وهو إنما يصح بالاستقامة علىٰ السُّنَّة والوقوف مع الأمر والنهي.

والحال الشيطاني يسبِّبه إما شرك أو فجور، وهو ينشأ من قرب الشياطين والاتصال بهم ومشابهتهم، وهذا الحال يكون لِعُبَّاد الأصنام والصُّلبان والنِّيران والشيطان.

ص: ٧٤٠

فصل

الفرق بين الحكم المنزل والحكم المؤول

والفرق بين الحكم المنزَّل الواجب الاتباع، والحكم المؤوَّل الذي غايته أن يكون جائز الاتباع: أنَّ الحكم المنزَّل: الذي أنزله الله علىٰ رسوله وحكم به بين عباده، وهو حكمه الذي لا حكم له سواه.

وأما الحكم المؤوَّل، فهو أقوال المجتهدين المختلفة التي لا يجب اتباعها ولا يكفر ولا يفسق مَن خالفها، فإنَّ أصحابها لم يقولوا: هذا حكم الله ورسوله، بل قالوا: اجتهدنا برأينا، فمن شاء قَبِله، ومن شاء لم يقبله؛ ولم يُلزِموا به الأمة.

فالرأيُ والاجتهادُ أحسنُ أحواله أن يسوغ اتباعُه، والحكم المنزَّل لا يحِلُّ لمسلمٍ أن يُخالفه ولا يخرج عنه.

وأما الحكم المبدَّلُ، وهو الحكم بغير ما أنزل الله، فلا يحِلُّ تنفيذُه، ولا العملُ به، ولا يسوغ اتِّباعُه، وصاحبُه بين الكفر والفسوق والظلم.

* * *

خاتمة

والمقصود: التنبيه علىٰ بعض أحوال النفس المطمئنة واللوَّامة والأمَّارة، وما تشترك فيه النفوس الثلاثة، وما يتميَّز به بعضُها من بعضٍ؛ وأفعالِ كلِّ واحدةٍ منها واختلافها ومقاصدها ونياتها، وفي ذلك تنبيهٌ علىٰ ما وراءَه.

وهي نفسٌ واحدةٌ تكون أمَّارةً تارةً، ولوَّامةً أخرىٰ، ومطمئنةً أخرىٰ، وأكثر الناس الغالب عليهم الأمَّارة، وأما المطمئنة فهي أقلُّ النفوس البشرية عددًا، وأعظمُها عند الله قدْرًا، وهي التي يقال لها: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٨ - ٣٠].

والله سبحانه المسؤول المرجوُّ الإجابة، أن يجعل نفوسَنا مطمئنةً إليه، عاكفةً بِهِمَّتها عليه، راهبةً منه، راغبةً فيما لديه، وأن يُعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وأن لا يجعلنا ممن أغفل قلبه عن ذكره، واتَّبع هواه، وكان أمره فُرطًا؛ ولا يجعلنا من الأخسرين ﴿أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، إنه سميعُ الدعاء، وأهلُ الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فهرس الموضوعات





فهرس الفوائد

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
بل العذابُ والنعيم علىٰ النفس والبدن جميعًا باتِّفاق أهل السنة والجماعة. تُنعَّم النفسُ وتُعذَّب منفردةً عن البدن، وتُنعَّم وتُعذَّب متَّصلة بالبدن، والبدن متَّصلٌ بها، فيكون النعيمُ والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعَين، كما يكون للروح منفردةً عن البدن.	٤٣	١٤٦- ١٤٧
ومما ينبغي أن يُعلم أنَّ عذاب القبر هو عذاب البرزخ. فكلُّ من مات، وهو مستحِقٌّ للعذاب، ناله نصيبه منه، قُبر أو لم يُقبر. فلو أكلته السباع، أو أُحرِق حتىٰ صار رمادًا، أو نُسِف في الهواء، أَو صُلِب، أو غَرِق في البحر= وصل إلىٰ روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلىٰ المقبور.	٤٨	١٦٩
سوءُ الفهم عن الله ورسوله أصلُ كلِّ بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، بل هو أصلُ كل خطأ في الأصول والفروع.	٥٢-٥٣	١٨٤

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
وقد ذكر الله سبحانه هاتين القيامتين - وهما الصغرىٰ والكبرىٰ - في سورة المؤمنين، وسورة الواقعة، وسورة القيامة، وسورة المطففين، وسورة الفجر، وغيرها من السور. وقد اقتضىٰ عدلُه وحكمتُه أن جعلهما داري جزاءٍ للمحسن والمسيء، ولكنَّ توفية الجزاء إنما يكون يومَ المعاد الثاني في دار القرار، كما قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].	٦١	٢١٦
يجلس الإنسان عندما يريدُ النومَ لله ساعةً، يحاسبُ نفسه فيها علىٰ ما خسِره وربِحه في يومه، ثم يجدِّد له توبةً نصوحًا بينه وبين الله، فينام علىٰ تلك التوبة، ويعزِم علىٰ أن لا يعاوِدَ الذنب إذا استيقظ. ويفعل هذا كلَّ ليلة، فإن مات من ليلته مات علىٰ توبة، وإن استيقظ استيقظ مستقبِلًا للعمل، مسرورًا بتأخير أجله حتىٰ يستقبل ربَّه، ويستدرِكَ ما فاته.	٦٧	٢٣١
والظاهر - والله أعلم - أنّ كلَّ نبيٍّ مع أمته كذلك، وأنَّهم معذَّبون في قبورهم بعد السؤال لهم، وإقامةِ الحجّة عليهم، كما يعذَّبون في الآخرة بعد السؤال وإقامة الحجَّة، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.	٧٣	٢٦٤

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
عذاب القبر قد يراد به الألمُ الذي يحصلُ للميت بسبب غيره، وإن لم يكن عقوبةً علىٰ عملٍ عَمِله. ومنه قوله ﷺ: «إنّ الميِّت لَيُعذَّبُ ببكاء أهله عليه». أي: يتألّم بذلك ويتوجَّع منه، لا أنه يعاقَبُ بذنب الحيّ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. وهذا كقول النبي ﷺ: «السفر قطعة من العذاب». فالعذابُ أعمُّ من العقوبة.	٧٥	٢٦٧ -٢٦٧
قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]. وهذا التنزُّل يكون عند الموت، ويكون في القبر، ويكون عند البعث، وأول بشارة الآخرة عند الموت.	٨٢	٢٨٣
فليس الشأن في الألقاب، وإنما الشأن في الحقائق.	٩٧	٣٤٤
فهذا شأنُ الإنسان من حيث ذاتُه ونفسُه. وخروجُه عن هذه الصفات بفضلِ ربِّه، وتوفيقِه له، ومنَّتِه عليه، لا من ذاتِه؛ فليس له من ذاته إلا هذه الصفات. وما به من نعمةٍ فمن الله وحده، فهو الذي حبَّب إلىٰ عبده الإيمان، وزيَّنَه في قلبه، وكرَّه إليه الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ، وهو الذي كتب في قلبه الإيمان. وهو الذي ثبَّت أنبياءه ورسله وأولياءه علىٰ دينه، وهو الذي يصرِف عنهم السوءَ والفحشاء.	١١٠	٣٧٦

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
فقوله تعالىٰ: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [النجم: ٣٨]، وقوله: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩] آيتان محكَمتان، يقتضيهما عدلُ الربِّ تعالىٰ، وحكمتُه، وكمالُه المقدَّس؛ والعقل والفطرة شاهدان بهما. فالأولىٰ تقتضي أنَّه لا يعاقَب بجرم غيره، والثانية تقتضي أنَّه لا يفلح إلا بعمله وسعيه. فالأولىٰ تؤمِّن العبد من أخْذِه بجريرة غيره، كما يفعله ملوك الدنيا. والثانية تقطَع طمعَه من نجاته بعمل آبائه وسلفه ومشايخه، كما عليه أصحاب الطمع الكاذب. فتأمَّل حسنَ اجتماع هاتين الآيتين! ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥].	-	٣٧٩
القرآن لم يَنْفِ انتفاعَ الرجل بسعي غيره، وإنما نفىٰ مُلكَه لغير سعيه، وبين الأمرين من الفرق ما لا يَخفىٰ. فأخبر تعالىٰ أنَّه لا يملِك إلا سعيَه، وأما سعيُ غيره فهو مِلْكٌ لساعيه، فإن شاء أن يبذله لغيره، وإن شاء أن يُبقِيَه لنفسه. وهو سبحانه لم يقُل: لا يَنتفِع إلا بما سعىٰ. وكان شيخنا يختار هذه الطريقة ويرجِّحها.	١١٢	٣٨٤

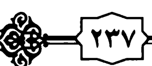
الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
الثوابَ ملكٌ له، فله أن يهديَه جميعَه، وله أن يهديَ بعضَه. يوضِّحه: أنه لو أهداه إلىٰ أربعةٍ مثلاً يحصل لكلٍّ منهم ربعُه، فإذا أهدىٰ الربعَ وأبقىٰ لنفسه الباقي جاز، كما لو أهداه إلىٰ غيره.	١١٦	٣٩١- ٣٩٢
فإن قيل: فما الأفضل أن يُهدَىٰ إلىٰ الميت؟ قيل: الأفضل ما كان أنفعَ في نفسه. فالعِتْقُ عنه والصدقةُ أفضلُ من الصيام عنه. وأفضلُ الصدقة ما صادفتْ حاجةً من المتصدَّق عليه، وكانت دائمة مستمرَّة. ومنه قول النبيِّ ﷺ: «أفضلُ الصدقةِ سَقْيُ الماء». وهذا في موضع يقِلُّ فيه الماء، ويكثُر فيه العطش؛ وإلا فسَقْيُ الماء علىٰ الأنهار والقُنِيِّ لا يكون أفضلَ من إطعام الطعام عند الحاجة. وكذلك الدعاء والاستغفار له إذا كان بصدقٍ من الداعي وإخلاص وتضرُّع، فهو في موضعه أفضل من الصدقة عنه، كالصلاة علىٰ جنازته، والوقوف للدعاء علىٰ قبره. وبالجملة، فأفضلُ ما يُهدَىٰ إلىٰ الميت: العِتْق، والصدقة، والاستغفار له، والدعاء له، والحجُّ عنه.	١١٩- ١٢٠	٤١٥- ٤١٦

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
و«الروح» في القرآن على عدَّة أوجه: أحدها: الوحي، كقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورىٰ: ٥٢]. وقوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]. وسُمِّي الوحيُ روحًا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح. الثاني: القوة والثَّبات والنُّصرة التي يؤيد بها من يشاء من عباده المؤمنين، كما قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]. الثالث: جبريل، كقوله تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٤]. وقال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]. وهو روح القدس، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢]. الرابع: الروح التي سأل عنها اليهود، فأجيبوا بأنها أمرٌ من أمر الله. وقد قيل: إنها الروح المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ [النبأ: ٣٨]، وإنها الروح المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ [القدر: ٤]. الخامس: المسيح ابن مريم قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].	١٢٨	٤٤٦- ٤٤٧

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]. فهؤلاء نسُوا نفوسهم لا من جميع الوجوه، بل من الوجه الذي به مصالحُها وكمالُها وسعادتُها، وإن لم ينسَوها من الوجه الذي منه شهوتُها وحظُّها وإرادتُها. فأنساهم مصالحَ نفوسهم أن يفعلوها ويطلبوها، وعيوبَها ونقائصَها أن يُزيلوها ويجتنبوها، وكمالَها الذي خُلقت له أن يعرفوه ويطلبوه. فهم جاهلون بحقائق أنفسهم من هذه الوجوه، وإن كانوا عالمين بها من وجوه أُخَر.	-	٦٠٠
للنفس من الكيفيات المختصَّة بها ما لا يشاركُها فيها البدن، ولها خفة وثقل، وحرارة وبرودة، ويبس ولِين بحسبها. وأنت تجد الإنسان في غاية الثقالة، وبدنُه نحيل جدًّا. وتجده في غاية الخفَّة، وبدنُه ثقيل. وتجد نفسًا لينة وادعة، ونفسًا يابسة قاسية. ومن له حسٌّ سليمٌ يشمُّ رائحةَ بعض النفوس كالجيفة المنتنة، ورائحةَ بعضِها أطيبَ من ريح المسك. وقد كان رسول الله ﷺ إذا مرَّ في طريق بقيَ أثر رائحته في الطريق، ويُعرف أنه مرَّ بها. وتلك رائحة نفسه وقلبه. وكانت رائحة عَرَقه من أطيب شيء، وذلك تابعٌ لطيبِ نفسه وبدنه. وأخبر - وهو أصدق البشر - أنَّ الروحَ عند المفارقة يوجد	-	٦٠٢- ٦٠٣

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
لها كأطيب نفحةِ مسكٍ وُجِدت علىٰ وجه الأرض، أو كأنتن ريحِ جيفةٍ وُجِدت علىٰ وجه الأرض.		
فعالَـمُ الأرواحِ عالَـمٌ آخر أعظَم من عالَـم الأبدان، وأحكامُه وآثارُه أعجبُ من آثار الأبدان. بل كلُّ ما في العالم من الآثار الإنسانية فإنما هي من تأثير النفوس بواسطة البدن. فالنفوسُ والأبدانُ يتعاونان علىٰ التأثير تعاونَ المشتركين في الفعل. وتنفردُ النفس بآثار لا يشاركها فيها البدن، ولا يكون للبدن تأثيرٌ لا تشارِكه فيها النفس.	-	٦٠٧- ٦٠٨
الروح التي تُتَوفَّىٰ وتُقبض، فهي روح واحدة، وهي النفس. وأما ما يؤيد اللهُ به أولياءه من الروح فهي روح أخرىٰ غير هذه الروح، كما قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وكذلك الروح الذي أيد بها روحَه المسيحَ ابن مريم كما قال تعالىٰ: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠]، وكذلك الروحُ التي يلقيها علىٰ من يشاء من عباده هي غيرُ الروح التي في البدن.	١٦١	٦١٩- ٦٢١

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
وتُطلَق الروح علىٰ أخصَّ من هذا كلّه، وهو قوة المعرفة بالله، والإنابةِ إليه، ومحبتِه، وانبعاثِ الهمة إلىٰ طلبه وإرادته. ونسبةُ هذه الروح إلىٰ الروح كنسبة الروح إلىٰ البدن. فإذا فقدَتْها الروح كانت بمنزلة البدن إذا فقد روحَه. وهي الروح التي يؤيِّد بها أهلَ ولايته وطاعته.	١٦١	٦٢٠
فللعلم روحٌ، وللإحسان روح، وللإخلاص روح، وللمحبة والإنابة روح، وللتوكل والصدق روح. والناس متفاوتون في هذه الأرواح أعظم تفاوتٍ، فمنهم مَن تغلبُ عليه هذه الأرواح، فيصير روحانيًّا. ومنهم من يفقدها أو أكثرَها، فيصير أرضيًّا بهيميًّا. والله المستعان.	١٦٢	٦٢٠- ٦٢١
الطمأنينةُ إلىٰ الله سبحانه كيفيَّة تَرِدُ منه سبحانه علىٰ قلب عبده، تجمعُه عليه، وترُدُّ قلبَه الشاردَ إليه، حتىٰ كأنه جالسٌ بين يديه، يسمع به، ويبصر به، ويتحرك به، ويبطش به. فتسري تلك الطمأنينةُ في نفسه وقلبه ومفاصله وقواه الظاهرة والباطنة، فتنجذب روحُه إلىٰ الله، ويلين جلدُه وقلبُه ومفاصلُه إلىٰ خدمته والتقرُّب إليه. ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وبذكره، وهو كلامُه الذي أنزله علىٰ رسوله، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].	١٦٣- ١٦٤	٦٢٣



الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
قضىٰ الله ﷻ قضاءً لا مردَّ له: أنَّ من اطمأن إلىٰ شيءٍ سواه أتاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهته، كائنًا ما كان؛ بل لو اطمأنَّ العبد إلىٰ علمه وحاله وعمله سُلِبَه وزايَلَه.	١٦٤	٦٢٤
وعلامةُ هذه الطمأنينة أن يطمئن من قلق المعصية وانزعاجها إلىٰ سكون التوبة وحلاوتها وفرحتها. ويسهِّل عليه ذلك أن يعلم أنَّ اللذة والحلاوة والفرحة التي في الظفر بالتوبة أضعافُ أضعافِ اللذة والحلاوة والفرحة التي في الظفر بالمعصية. وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاق الأمرَيْن وباشر قلبُه آثارهما. فللتوبة طمأنينةٌ تقابل ما في المعصية من الانزعاج والقلق، ولو فتَّش العاصي عن قلبه لوجَد حشوَه المخاوفَ والانزعاج والقلق والاضطراب. وإنما يواري عنه شهودَ ذلك سُكْرُ الغفلة والشهوة.	١٦٥	٦٢٨- ٦٢٩
وكذلك يطمئن من قلق الغفلة والإعراض إلىٰ سكون الإقبال علىٰ الله وحلاوة ذكره وتعلُّق الروح بحبه ومعرفته، فلا طمأنينة للروح بدون هذا أبدًا. ولو أنصفَت نفسَها لرأتها إذا فقدت ذلك في غاية الانزعاج والقلق والاضطراب، ولكن تُواريها السَّكرة، فإذا كُشِفَ الغطاء تبيَّن له حقيقة ما كان فيه.	١٦٥- ١٦٦	٦٢٩

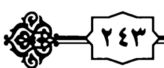
الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
وهاهنا سرٌّ لطيف يجب التنبيه عليه والتنبُّه له، والتوفيقُ له بيد مَن أزِمَّةُ التوفيق بيديه، وهو أنَّ الله سبحانه جعل لكل عضوٍ من أعضاء الإنسان كمالًا إن لم يحصل له وإلا فهو في قلق واضطراب وانزعاج، بسبب فقدِ كماله الذي جُعِل له. مثاله: كمال العين بالإبصار، وكمال الأذن بالسمع، وكمال اللسان بالنطق. فإذا عَدِمتْ هذه الأعضاء القوىٰ التي بها كمالُها حصَل الألم والنقص بحسب فوات ذلك.	١٦٦	٦٢٩- ٦٣٠
وجَعَل كمال القلب ونعيمَه وسروره ولذته وابتهاجه في معرفته سبحانه، وإرادته، ومحبته، والإنابة إليه، والإقبال عليه، والشوق إليه، والأنس به. فإذا عَدِمَ القلبُ ذلك كان أشدَّ عذابًا واضطرابًا من العين التي فقدت النور الباصر، ومن اللسان الذي فقدَ قوة الكلام والذوق. ولا سبيلَ له إلىٰ الطمأنينة بوجه من الوجوه، ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال، إلا بأن يكون الله وحده هو محبوبَه وإلٰهه ومعبودَه وغايةَ مطلوبه، ويكون هو وحده مستعانَه علىٰ تحصيل ذلك. فحقيقة الأمر أنه لا طمأنينة له بدون التحقُّق بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥].	١٦٦	٦٣٠

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
فإذا اطمأنت من الشكِّ إلىٰ اليقين، ومن الجهل إلىٰ العلم، ومن الغفلة إلىٰ الذكر، ومن الخيانة إلىٰ التوبة، ومن الرياء إلىٰ الإخلاص، ومن الكذب إلىٰ الصدق، ومن العجز إلىٰ الكَيْس، ومن صَولة العُجب إلىٰ ذلَّة الإخبات، ومن التِّيه إلىٰ التواضع، ومن الفتور إلىٰ العمل= فقد باشرتْ روحَ الطمأنينة.	١٦٧	٦٣١
فمتىٰ انكشفت عن قلبه سِنَةُ هذه الغفلة بزجرةٍ من زواجر الحق في قلبه، استجاب فيها لواعظِ الله في قلب عبده المؤمن، أو هِمَّة عليَّةٍ أثارها مِعولُ الفكر في المحلِّ القابل، فضرب بمعول فكره، وكبَّر تكبيرةً أضاءت له منها قصورُ الجنة، فقال: ألا يا نفسُ ويحكِ ساعديني لعلَّكِ في القيامة أن تفوزي بسعيٍ منكِ في ظُلَم الليالي بطِيبِ العيشِ في تلك العلالي فأنارت له تلك الفكرةُ نورًا رأىٰ في ضوئه ما خُلِق له وما سيلقاه بين يديه من حين الموتِ إلىٰ دخول دار	١٦٧- ١٦٨	٦٣٢- ٦٣٣

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
القرار. ورأىٰ سرعةَ انقضاء الدنيا، وعَدَم وفائها لبنيها، وقتلَها لعُشَّاقها وفعلَها بهم أنواع المَثُلات. فنهض في ذلك الضوء علىٰ ساقِ عزمه قائلًا: ﴿ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٦].		
ثم يلحظ في نور تلك اليقظة وفود نعمة ربِّه عليه من حين استقرَّ في الرحِم إلىٰ وقته، وهو يتقلب فيها ظاهرًا وباطنًا ليلًا ونهارًا، يقظةً ومنامًا، سرًّا وعلانيةً. فلو اجتهد علىٰ إحصاء أنواعها لما قَدَر، ويكفي أنَّ أدناها نعمةُ النفَس، ولله عليه في كلِّ يوم أربعة وعشرون ألفَ نعمة، فما ظنُّك بغيرها؟. ثم يرىٰ في ضوء ذلك النورِ أنه آيسٌ من حصرها وإحصائها، عاجزٌ عن أداء حقِّها، وأنَّ المنعِم بها إن طالبه بحقوقها استوعب جميعَ أعماله حقُّ نعمةٍ واحدة منها، فيتيقَّن حينئذ أنه لا مطمعَ له في النجاة إلا بعفو الله ورحمته وفضله.	١٦٨	٦٣٣
ثم يرىٰ في ضوء تلك اليقظةِ أنه لو عمل أعمال الثَّقَلَين من البرِّ لاحتقرَها إلىٰ جنب عظمةِ الربِّ تعالىٰ وما يستحقُّه بجلال وجهه وعظيم سلطانه. هذا لو كانت أعمالُه منه، فكيف وهي مجرَّدُ فضلِ الله ومنَّتِه وإحسانِه.	١٦٨	٦٣٤

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
وإن الله سبحانه لن يقبل عملًا يراه صاحبُه من نفسه حتىٰ يراه عينَ توفيقِ الله له، وفضلِه عليه، ومنَّتِه عليه، وأنه من الله لا من نفسه، وأنه ليس له من نفسه إلا الشرُّ وأسبابُه. وما به من نعمة، فمن الله وحده، صدقةٌ تصدَّق بها عليه، وفضلٌ منه ساقه إليه، من غير أن يستحقَّه بسبب، أو يستأهِلَه بوسيلة. فيرىٰ ربَّه ووليَّه ومعبودَه أهلًا لكلِّ خير، ويرىٰ نفسه أهلًا لكل شر. وهذا أساس جميع الأعمال الصالحة، الظاهرة والباطنة.	١٦٩	٦٣٤
ثم تبرقُ له في نور تلك اليقظة بارقةٌ أخرىٰ، يرىٰ في ضوئها عيوبَ نفسه وآفاتِ عمله، وما تقدَّم له من الجنايات والإساءات وهتكِ الحرمات، والتقاعدِ عن كثير من الحقوق والواجبات. فإذا انضم ذلك إلىٰ شهودِ نِعَم الله عليه وأياديه لديه رأىٰ أنَّ حقَّ المنعِم عليه في نعمِه وأوامره لم يُبقِ له حسنةً واحدةً يرفع بها رأسه. فتطامَنَ قلبه، وانكسرت نفسه، وخشعت جوارحه، وسار إلىٰ الله ناكسَ الرأس بين مشاهدةِ نعمه، ومطالعة جناياته وعيوب نفسه وآفات عمله، قائلًا: «أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».	١٦٩	٦٣٤- ٦٣٥

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
ثم تبرُق له بارقة أخرىٰ، يرىٰ في ضوئها عزَّةَ وقته وخطرَه وشرفَه، وأنه رأسُ مال سعادته، فيبخل به أن يضيِّعه فيما لا يقرِّبُه إلىٰ ربِّه، فإنَّ في إضاعته الخسرانَ والحسرةَ والندامة، وفي حفظه وعِمارته الربح والسعادة، فيشحُّ بأنفاسه أن يضيِّعها فيما لا ينفعه يوم معاده.	١٦٩	٦٣٥
اللوَّامة نوعان: لوَّامةٌ مَلُومة: وهي النفس الجاهلة الظالمة التي يلومها الله وملائكته. ولوَّامة غيرُ ملومة: وهي التي لا تزال تلومُ صاحبَها علىٰ تقصيره في طاعة الله مع بذله جهده، فهذه غيرُ ملومة.	١٧١	٦٣٩
وقد امتحن الله سبحانه الإنسان بهاتين النفسين: الأمارة، واللوَّامة؛ كما أكرمه بالمطمئنة. فهي نفسٌ واحدة تكون أمَّارة، ثم لوامة، ثم مطمئنة. وهي غاية كمالها وصلاحها.	١٧٢	٦٤١
خشوع الإيمان هو خشوعُ القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء، فينكسر القلبُ لله كَسْرةً ملتئمةً من الوجل والخجل والحبِّ والحياء، وشهود نِعَم الله، وجناياته هو، فيخشع القلب لا محالة، فيتبعه خشوعُ الجوارح.	١٧٩	٦٥٥



الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
وفي أثر معروف: «إذا رأيتَ الله سبحانه يزيدُك من نِعَمه، وأنت مقيمٌ علىٰ معصيته، فاحذره؛ فإنما هو استدراج يستدرجك به». وشاهد هذا في القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]. فهذا من أعظم الغِرَّة أن تراه يتابع عليك نعمَه، وأنت مقيم علىٰ ما يكره.	١٩٣	٦٨٥
وعلامة الرجاء الصحيح أنَّ الراجي - لخوفِ فَوتِ الجنة وذهابِ حظِّه منها - يترك ما يخاف أن يحول بينه وبين دخولها.	١٩٣	٦٨٧
كلُّ راجٍ خائفٌ من فوات ما يرجوه، كما أنَّ كلَّ خائفٍ راجٍ أمنه مما يخاف. فلذلك تداول الاسمان عليه. قال تعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]. قالوا في تفسيرها: لا تخافون لله عظَمة.	١٩٤	٦٩١
الفرق بين حبِّ الرياسة، وحبِّ الإمامة للدعوة إلىٰ الله، هو الفرق بين تعظيم أمرِ الله والنصحِ له، وتعظيم النفس والسعي في حظها.	٢٠٠	٧٠٥

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
الفرق بين إلهام الملَك وإلقاء الشيطان من وجوه: منها: أن ما كان لله موافقًا لمرضاته وما جاء به رسولُه، فهو من الملَك. وما كان لغيره غيرَ موافق لمرضاته، فهو من إلقاء الشيطان. ومنها: أنَّ ما أثمرَ إقبالًا علىٰ الله، وإنابةً إليه، وذكرًا له، وهمَّة صاعدةً إليه= فهو من إلقاء الملك. وما أثمر ضدَّ ذلك فهو من الشيطان. ومنها: أنَّ ما أورث أنسًا ونورًا في القلب وانشراحًا في الصدر فهو من الملك. وما أورَث ضدَّ ذلك فهو من الشيطان.	٢٠٤	٧١٤- ٧١٥
فالله يبتلي عبدَه ليسمع تضرُّعه ودعاءه والشكوىٰ إليه، ولا يحبُّ التجلُّدَ عليه. وأحَبُّ ما إليه انكسارُ قلبِ عبده بين يديه، وتذلُّلُه له، وإظهارُ ضعفِه وفاقتِه وعجزِه وقلةِ صبره. فاحذر كلَّ الحذر من إظهار التجلُّدِ عليه، وعليك بالتضرُّعِ والتمسكن، وإبداء العجز والفاقة والذُّلِّ والضعف؛ فرحمتُه أقرب إلىٰ هذا القلب من اليد للفم.	٢٠٨	٧٢٣
إن اشتبه عليك، فاكشِفْه في ثلاثة مواطن: في صلاته، ومحبته للسنة وأهلها وتقرُّبه منهم، ودعوته إلىٰ الله ورسوله وتجريدِ التوحيد والمتابعة وتحكيمِ السنَّة.	٢١٥	٧٣٨- ٧٣٩